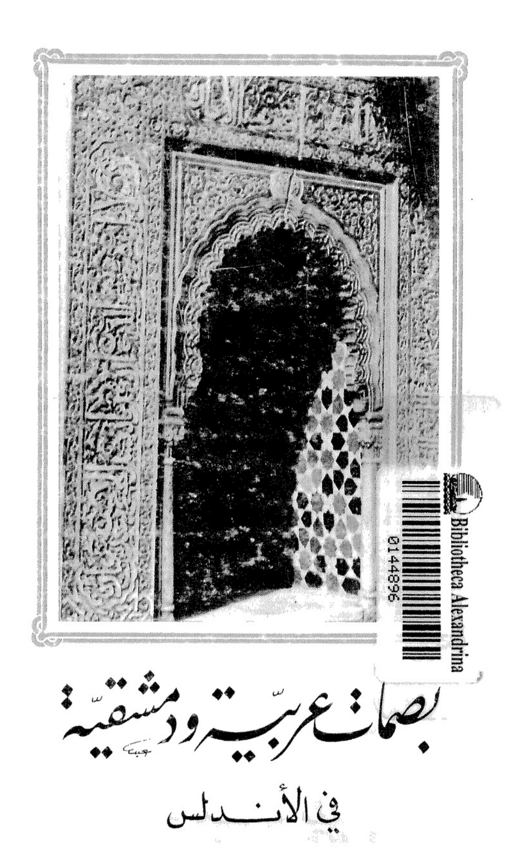
محاضرات

سلمى الحفار الكزبري



بصمات عربية ودمشقية

في الأندلس

الاشراف الفني : زهير الحمو

بصمات عربية ودمشقية

في الأندلس

محاضرات

سلمى الحفار الكزبري

بصمات عربية ودمشقية

في الأندلس


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٣

بصمات عربية ودمشقية في الأندلس : محاضرات / سلمى الحفار الكزبري . ـ دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٣ . ـ ٢٢١ ص ؛ ٢٤ سم .

١ ـ ٠٨١ ج فبا ب ٢ ـ العنوان ٣ ـ الحفار الكزبري

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني : ع ـ ٤٢٩ / ٥ / ١٩٩٣

ماربيا، لؤلؤة الشاطئ الأندلسي

في حاضرها وماضيها

نشرت في مجلة العربي عدد نيسان ١٩٨٩

ان لماربيا، هذا المنتجع الجميل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الجنوب الأسباني. تاريخاً اسلامياً. وآثاراً تشهد عليه قل من يعرفها جيداً من ألوف السياح الذين أخذوا يتوافدون عليها منذ أكثر من عشرين سنة. ورد اسمها في سجلات القرون الوسطى باللغتين العربية واللاتينية على أشكال عدة: ماربيا «MAR – BELLA» أي: البحر الجميل، و «مارڤيليا «Marvilia» (الشريف الادريسي)، و«ماربُله» «Mar bulla» (القلقشندي) و «مَرْبَلّه – Mar balla (الروض المختار) و «مَرْبِله»: (ابن بطوطة).

مناخ ماربيا (كما نسميها اليوم) معتدل في فصول السنة الأربعة. ولا سيما في الصيف لخلوه من الرطوبة، وتميزه بنسائم منعشة تهب عليها من البحر الأبيض المتوسط الذي يتصل بالمحيط الأطلسي في مضيق جبل طارق، القريب منها. خيراتها كثيرة. وعدد سكانها في يومنا هذا مائة وعشرون ألف نسمة. أما الذين يؤمونها للأصطياف

والسياحة في الصيف فان عددهم يبلغ نصف مليون زائر . أكثرهم من الانكليز والألمان والهولنديين والسويديين . يأتي هؤلاء السياح إلى ماربيا ، وسائر حواضر الشاطئ الجنوبي في الأندلس . الذي يسمونه (شاطئ الشمس) . والذي يمتد من مدينة « ملقة » حتى مدينة « الجزيرة الخضراء» بحثاً عن الشمس والراحة . أما إخواننا العرب الذين يؤمونها إما للاقامة في دورٍ ابتاعوها ، وإما في شقق يستأجرونها . أو فنادق يقيمون فيها، فان عددهم لا يشكل أكثر من خمسة بالمئة من زوارها ، أو من عشاقها الأجانب الذين استوطنوها . ولعل من أكثر المرغبات في ارتياد (شاطئ الشمس) وماربيا لؤلؤته هو أن الأجنبي ، أياً كانت جنسيته أو عرقه ، لا يشعر بالغربة مطلقاً اذ قلما يسأله سكان المنطقة الاندلسيون عن هويته ، بل يرحبون به ، ويبتهجون بقدومه ، ويعاملونه ألطف معاملة ، ويحيطونه بكل رعاية وكرم . هذا ما جعل العديد من الأجانب يسهمون في ازدهار شاطئ الشمس عمرانياً واقتصادياً في السنوات الأخيرة حيث امتدّ البناء على الشواطئ وعلى التلال المحيطة بها . وشُيّدت مجموعات سكنية على الطراز الأندلسي العربي ، تتوفّر فيها الحدائق الجميلة لتوفّر المياه الجوفية في كل مكان ، والملاعب الرياضية المتنوعة ، ناهيك عن انتشار الفنادق الفخمة التي تستقبل السياح صيفاً وشتاءً ، خريفاً وربيعاً هذا الاقبال العظيم لا تفسير له سوى جودة المناخ ، وجودة المياه والأسماك ، والفواكه والخضار . وسحر أثيري يدفع عدداً كبيراً من السياح إلى ابتياع شقة ، أو بناء دارةٍ يلجأون اليها للاستجمام وكثيرون هم الذين اختاروها لقضاء ما تبقّى من حياتهم بعد بلوغهم سن التقاعد واذا قمنا بجولة استطلاعية في تاريخ ماربيا بالذات تستوقفنا أحداث جرت فيها من صلب تاريخنا القديم في الأندلس الذي انصهر فيه العرق

العربي والمغربي مع العرق الأسباني . خلال ثمانية قرون من الزمان ، كانت فيها الأندلس بلداً مسلماً . انبعث منه حضارة عظيمة شعّت أنوارها على أوربا وقدمت للإنسانية خدمات جلى عن طريق العلوم والفنون . ولست راغبةً في الإطناب بهذه الحضارة ولكن غايتي من هذه الجولة هي شدّ انتباه إخواننا العرب الذين يزورون ماربيا إلى ما يوجد من آثارنا فيها . إذ كثيراً ما يفوتهم الاطلاع على ما وراء الشوارع والشواطئ ، والفنادق والمتنزهات والملاهي والأسواق .

كانت ماربيا بلدةً صغيرة ذات أهمية كبيرة في تاريخ الأندلس ، إبان الوجود الإسلامي . بسبب موقعها الجغرافي بالقرب من مضيق جبل طارق ، وبعدها عن الحدود الصاخبة التي كانت تفصل بين اسبانيا المسلمة . واسبانيا المسيحية . ولا سيما في القرن الثاني عشر ميلادي . لقد ذكرها العالم الجغرافي أبو عبد الله محمد الادريسي في (كتاب روجر) . (Li bro Rogeriano) الذي وضعه آنذاك في بلاط الملك روجر الثاني في جزيرة سقلية فقال : (مارفيليا مدينة صغيرة آهلة بالسكان ، ذات تربة خصبة ، ومزروعات متنوعة من اكثرها جودة التين » كما وصف الرحالة الشهير ابن بطوطة رحاته إلى الأندلس سنة ١٣٤٩ م التي زار فيها جبل طارق ورندة وماربيا وقلعة سهيل في « فوينجيرولا » وملقة ثم غرناطة في كتابه :) تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (فكتب مايلي:) إن ماربله مدينة تفيض بالأغذية المتنوعة لكثرة مزارعها ومواشيها . ولقد استفاد المسلمون من تربتها الخصبة . وأنهارها وسواقيها ، وجودة مناخها ، فأنشأوا فيها وفي أرباضها مزارع .ونقلوا إليها أشجاراً مثمرة كالتين .

والرمان والزيتون والليمون والبرتقال والنخيل ، والتوت لتربية دود القز واستخراج الحرير منه) .

وقبل سبع سنوات صدر كتاب في ماربيا بعنوان (ماربيا المسلمة) بقلم أحد أبنائها البررة ، المؤرخ الأستاذ (فرنندو ألكلا مارين) (Fernaondo Alcala Marin) نشرته محافظة المدينة، ونال عليه جائزة تقديرية فكتب في مقدمته مايلي :

(تاريخ ماربيا في الحقبة الاسلامية التي دامت زهاء ثمانية قرون من سنة ٧١١ م حتى سنة ١٤٨٥ م حافل بالآثار العمرانية التي زال اكثرها عبر القرون ، ولكن ماهو موجود منها حالياً جدير بالدراسة والترميم والصيانة . إن من أقدس واجباتنا اليوم ، وقد أضحت ماربيا منطقة ذات أهمية سياحية وتاريخية وثقافية كبيرة ، إلقاء الأضواء على هذه الآثار الحربية والمدنية ، وتحريض المسؤولين على الاهتمام بتراث نفيس ينبغي أن تعرفه الأجيال الصاعدة لأنه من صلب تاريخ بلدهم وفنونه وثقافته .)

يحمل هذا المؤرخ كنيةً ذات أصل عربي « Alcala » وتعني : « القلعة » ويعتز بأنه سليل أسرة عربية يعود تاريخها إلى القرن الرابع وقد استقينا من فصول كتابه ، ومن المراجع التي اعتمدها ، المعلومات التالية :

قلعة ماربيا وأسوارها

كانت ماربيا محصّنة بقلعة كبيرة تقع على هضبة مشرفة على البحر، ارتفاعها عنه حوالي مأتي متر وذات قسمين : أولهما مخصص للسلاح

شمالاً ، والثاني للقصبة جنوباً . شُيدت هذه القلعة في عهد الخلافة الأموية في قرطبة ويقول مؤلف الكتاب ان بلدية ماربيا تنوي ترميم جزء القلعة الداخلي فمنعت دخول الزائرين اليه حالياً . أما اسوار المدينة الضخمة فقد كان يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار ، وعرضها متران ، لم يبق منها سوى جزء يسير في ناحيتها الشرقية الجنوبية بالقرب من دائرة البوليس حالياً . ومما يؤسف له أن بيوتاً شعبية شُيدّت فوق ما تبقى من القلعة وبين أسوار المدينة القديمة ، ذات الطابع العربي في بناء دورها المطلية بالأبيض الناصع ، وفي أزقتها الضيقة . وتبقى ماربيا الأندلسية العربية ملاذ السائح فيتجوّل في حاراتها الطويلة ، ويشاهد بيوتها ذات الجدران والشرفّ المزينة بالأزهار ، والتي يضوّع منها ومن (ساحة النارنج Plaza de losnarangos) أريج البرتقال والياسمين والريحان . كانت أسماء الأزقة عربية فيما مضى ، ولكنها اتخذت أسماءً إسبانية بعد سقوط المدينة في٨–٦–١٤٨٥ ملك الأسبان: فردنان الخامس ، فزقاق « الحور » أضحى إسمه زقاق (Calle del Alamo) وزقاق الممرّ صار إسمه (Calle del pasje) الخ

أبوابها وأبراجها

أما أبواب المدينة فكانت ثلاثة « فباب ملقه » شرقاً ، و « باب البحر جنوباً ، و « باب « رنده » غرباً ، وقد سمّي أيضاً « حصن رنده » ولقد تبيّن من الوثائق الموجودة في مديرية الآثار الاسبانية ان باب رنده كان مصنوعاً من المعدن والخشب يحصّنه برجان ، وان باب القلعة التي بنيت ضمن الأسوار . ظلّ قائماً حتى سنة ١٨٤٦ حيث

انهدم قوسه . وزالت آثاره ، كما أن المنارة الّتي كانت متاخمة له قد انهارت كذلك . . . ويؤكد علماء الآثار أن مسجد ماربيا كان يقع في مكان كنيستها الكبيرة حالياً : « Iglesia Magor » وأنه بني على انقاض معبد روماني ، ثم هُدم ، وبنيت هذه الكنيسة في مكانه . ولقد قامت مديرية الآثار بحفريات في داخل هذه الكنيسة سنة ١٩٨١ لإعادة تبليط جزئها المتوسط فظهرت تحته الآثار الرومانية والاسلامية .

واذا عدنا إلى الأبراج الّتي بناها المسلمون في ماربيا وفي ضواحيها لتحصينها والدفاع عنها نرى أنهم بنوا أبراجاً متعددة بعضها مستدير الشكّل ، وبعضها مربّع ، وما زال بعضها قائماً . بلغ عدد هذه الأبراج في المدينة وحولها إثنين وعشرين برجاً ، ستة منها في الجهة الشمالية الغربية ، وستة أخرى في الجهة الشرقية باتجاه نهرٍ قديم غاضت مياهه في القرن الماضي . وعشرة أبراج في الناحية الشرقية والغربية من أهمها : (برج الحمامات Torre de Banos) بالقرب من مصبّ : (نهر ألمينا — Guadelmina) وقد بُني على شكل حَدْوة الحصان و (برج البحر — Torre de la mar) جنوباً . كان برج الحمامات مستدير الشكل ارتفاعه إثنا عشر متراً ، وقطره خمسة أمتار ، وكان برج البحر مربعاً ارتفاعه خمسة عشر متراً . وعرضه سبعة أمتار ، ويدعو المؤرخ المعاصر (خوان تابنوري ألفاريس — Juan Tem borry Alvarez) وهو من مواليد ملقة . ومن سلالة عربية قديمة تنبئ عنها كنيته : « Alvarez » أي « الفارس » ، في كتابه : « الأبراج والمنارات الأندلسية (الذي صدر سنة ١٩٧٥، إلى

إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الآثار الهامة . وإلى إجراء دراسات . وأعمال تنقيب في المنطقة كلها خدمةً للتاريخ والفن والتراث كما يؤكد بأن البرج الذي أقامه المسلمون على شاطئ البحر ، جنوب ماربيا ، وسمّى « برج البحر » قد كان بمثابة منارةٍ ضخمة يسترشد بها البحّارة وصيادو الأسماك . كان هذا البرج على بعد مائة وخمسين متراً من أسوار المدينة ، ولكنه هُدم في القرن الثامن عشر . وشُيّدت في مكانه عمارة كبيرة في العصر الحاضر معروفة باسم « عمارة البحر الأبيض المتوسط — Edificio Mediterraneo »

السوق والمتنزه في ماربيا المسلمة

يؤكد المؤرخون أن سوق ماربيا الكبير كان يقع خارج أسوارها بالقرب من باب البحر ، وأن سكانها كانوا يتنزّهون في حديقة عامة مغروسةٍ بأشجار الحور . تقع على بعد خمسين متراً من شاطئ البحر جنوباً . وهو الآن موقع حديقة البلدية التي تُعرف باسم : « Alameda » أي « حديقة الحور . »

حدود ماربيا وضواحيها وسقوطها

كانت حدود ماربيا ممتدة على رقعةٍ تبلغ مساحتها ثلاثين كيلو متراً شرقاً وغرباً ، وساحلاً وهضاباً . أُنشئت فيها القرى والمزارع التي مازال بعضها يحمل أسماءً ذات أصل عربي نذكر منها : نوالة — Nagueles وهي قرية على بعد ثلاث كيلو مترات غرباً كان يسكنها فقراء المنطقة ، فاسمها مشتقّ من كلمة « نواله » باللهجة المغربية الدارجة ، ومعناها : كوخ ، وعلى هذا الأساس يكون جمعها أكواخ .

ونذكر كذلك قرية اسلامية قديمة قامت في غرب المدينة تدعى :
« بنو حبش — Benohauis » لأن سكانها كانوا من المسلمن النازحين من الحبشة الذين استوطنوا الأندلس آنذاك . كما أن هنالك قرية :
« خَشْيَنْ — Ojen » الواقعة على هضبة شمال شرق ماربيا ، وما زالت موجودة ، ولقد قال عنها البحاثة الأسباني (ميجيل آسين . بالاسيوس Miguel Asin Palacios) في معجمه العربي الاسباني للمواقع الجغرافية والأسماء العربية : « لقد سُمّيت هذه القرية : لخشونة تربتها وجفافها . (وبعد سقوط ماربيا بيد الإسبان تحرّف اسمها . كما تحرفت أسماء عربية كثيرة فأضحى : « أوخين — OJEN »
وبعد هذه القرية بنحو عشرة كيلو مترات يصل السائح في يومنا الحاضر قرية أخرى اشتهرت بمزارع اللوز والزيتون والمعاصر إسمها : قرية ذكوان — COIN » ، والاسم مشتق من اسم رجل عربي يدعى :
« ذكوان » ، كان أول من بنى فيها بيتاً في القرون الماضية . كما أن في منطقة ماربيا الخصبة أنهاراً عديدة ما زال بعضها يحمل اسماء عربية نذكر منها : « وادي عيسى — Gnadaisa » و « وادي المينا — Gnad almina .

كان المسلمون إذن يعيشون في بحبوحة وأمان في ماربيا التي تأخر سقوطها بيد الاسبان عن سواها من مدن الأندلس بسبب قوّة تحصينها من جهة ، وقربها من الشواطيء المغربية التي كان سكانها يهبّون للنجدة ، من جهة ثانية . فقد استرجع الاسبان « بلدة » طريف — Tarifa سنة ١٢٩٢ م . ثم جبل طارق سنة ١٣٠٩ . ثم استعاده بنو مرين بقيادة عبد الله المغربي سنة ١٣٣٣ . وصمدت ماربيا حتى بعد سقوط ملقه

سنة ١٤١٠ ، في عهد بني الأحمر الناصريين بغرناطة . وعندما حاصر الملك فرديناند الخامس مدينة « رنده — Randa » ذات الحصون المنيعة سنة ١٤٨٥ شعر سكان ماربيا بالخطر المحدق بهم . إذ بعث اليهم الملك رسالة يدعوهم فيها الى تسليم المدينة ، وبعد التشاور فيما بينهم أرسلوا اليه رسولاً يطلبون منه ضماناتٍ على أرواحهم وأملاكهم وشعائرهم الدينية ، ولكن قائد القلعة وشيوخ ماربيا ،وعدداً كبيراً من سكانها رفضوا التفاوض معه خشية أن يُرغموا على التنصّر ، وأن يصبحوا عبيداً بعد أن كانوا سادة . لقد آثروا النزوح الى المغرب ، والمنفى ، وطلبوا من الإسبان أن يأذنوا لهم ببيع ممتلكاتهم وان يؤمّنوا رحيلهم إلى الشاطئ الأفريقي . وقبل أن يستولي الاسبان على المدينة في ١١ — ٦ — ١٤٨٥ كان قد نزح منها عدد كبير الى ملقة وغرناطة وضواحيها خشيّة الذل، فدخل الملك فرديناند الخامس ماربيا مع قواته حيث اجتازوا حاراتها الضيقة ، وأقاموا في القلعة ، ورفعوا أعلام النصر . كما ذكر « فرنندو ألكلا مارين » مؤلف كتاب » ماربيا المسلمة . . أن الملك فرديناند أقام معسكراً لقواته على بعد أربع كيلو مترات من وسط ماربيا شرقاً، بالقرب من نهر سُميَّ مذاك : « النهر الملكي — Rio REAL حيث توجد اليوم منطقة سكنية جديدة تدعى : « البرج الملكي — Torre Real » يقوم في أولها برج اسلاميّ قديم . ويذكرّ المؤلف في كتابه ان المسلمين الذين بقوا في ماربيا قد منعوا من الإقامة فيها . ومن الاحتفاظ بأسمائهم العربية وتقاليدهم وشعائرهم فنزحوا الى القرى المجاورة حيث تعاطوا الزراعة وتربية المواشي . وبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ تجمّع الأندلسيون المسلمون وقاموا بثورة مسلّحة ضد الحكم الأسباني شملت منطقة ماربيا كلها وملقة وانتهت بهزيمتهم سنة ١٥٦٩ بعد أن

كبدّت الإسبان خسائر جسيمة بالمعدات والأرواح . لقد دفع المسلمون ثمن تمردهم غالياً فتَجرّدوا من أملاكهم ، وصدر أمر ملكي بتشريدهم في القرى والجبال سنة ١٥٧٠ بغية صهرهم في الشعب الاسباني غير أنه يبدو ثابتاً مما كتبه الأستاذ « فرناند وألكلا مارين » انهم حافظوا على عقائدهم وتقاليدهم في الخفاء ، ويؤكد ذلك رحّالة ألماني يدعى : «خيرو نمو منذرJERONEMO MUNZERفي كتابٍ نشره عن رحلته إلى الأندلس التي دامت ستة أشهر عام ١٤٩٤ وصف فيه حياتهم وزهدهم بمباهج الحياة الدنيا . ولعل أهم ما ورد في كتاب«ماربيا المسلمة » فصل أخير عنوانه : (استمرار الإسبان المسلمين) قال فيه : (لقد انصهر المسلمون الذين بقوا في الأندلس في المجتمع الإسباني بعد هزيمتهم ، ولكنهم يشكلون عرقاً مختلفاً عن سائر الإسبان فهم أندلسيون في اسلوب حياتهم وتقاليدهم التي حافظوا عليها ، وما زالوا يعتزون بها ! والمسلمون عادة ، وإن أبعدوا عن أرض الأندلس ، ما زال حنينهم اليها ملتصقاً بأرواحهم حيثما كانوا ومع أن دم المسلمين الذين بقوا في الأندلس اختلط بالدم الأسباني عبر القرون الماضية ، ولكن الآثار المتبقية في الأندلس ليست ثمرة اختلاط عرقٍ بعرق فحسب إنما هي ثمرة شيء أكثر عمقاً ، وأبلغ تأثيراً من أي اختلاط عرقي وديني يستشفه الزائر في يومنا الحاضر الى تلك الديار لكونه مترسخ في الأشخاص والطباع واللغة والعادات .

بصمات عربية ودمشقية
في الأندلس

محاضرة ألقيتها بدعوة من جمعية أصدقاء دمشق في مكتبة الأسد ، مساء الثلاثاء في ١٦ / ٥ / ٨٩ ثم القيتها في مدينة فانكوفر بكندا بدعوة من الجمعية الثقافية الكندية العربية في ٢٥ / ١٠ / ١٩٩٠

أسعدَ الله مساءكم ، أيها السيدات والسادة ، وشكراً لكم على تكرمكم بالمجيء إلى هذه المكتبةِ الوطنيةِ العامرة ، للاستماع إلى حديثي عن البصماتِ العربية والدمشقية في الأندلس . عندما كلّفتني جمعيةُ أصدقاءِ دمشق باعداد محاضرة ، تركتْ لِي حُريّةَ اختيارِ موضوعها ، ففكرت طويلاً ثمَّ وقعَ اختياري على تقديمِ دراسةٍ عن الحضارة العربية في الأندلس ، وآثارها وبصماتِها المترسخة فيها ، آملةً أن آتيَ بشيءٍ جديدٍ عنها . إن مكتبتنا العربية ، كما تعلمون ، زاخرةٌ بالمؤلفات التي وضعها مؤرخون وباحثون أندلسيون قديماً . كنفح الطيّب ، والعقد الفريد ، ومقدمةِ ابن خلدون وغيرها من كتب التراث التي نقرؤها وندرّسها في معاهدنا ، كما أن الباحثين العرب في

العصر . الحديث والكتابَ والأساتذة الذين تخصصوا بهذا الموضوع قدموا لنا عنه دراسات قيمة ، فماذا تُرى كتب عنه الغربيون والإسبان ، وكيف ينظرون اليه ويقيمّونه؟ هذا ما خطر لي أن أعرضه عليكم علماً بأن الغرب تأخّر كثيراً في الاهتمام بالتراث الحضاري الأندلسي ، وفي القاء الأضواء عليه لأسبابٍ لا بدّ من ذكرها . من أهمها ، في اعتقادي ، موجةُ الغضب العارم على كلّ ما هو عربي وإسلامي في اسبانيا بعد سقوط مملكة غرناطة ، في آخر القرن الخامس عشر ميلادي ، التي كانت آخرَ قاعدةٍ من قواعد الحكم العربي في الأندلس استرجَعها ملوكُ الإسبان. لقد نجم عن ذلك الغضب تعيتمٌ على التراث العلمي والأدبي والفني الضخم الذي خلّفه عباقرةُ عصر الأندلس الذهبي إبان تألق الحضارة العربية في قرطبة على مدى ثلاثمائة سنة تقريباً ، من القرن التاسع الميلادي حتى القرن الثاني عشر . وأما هذا التعتيم فقد انحسر في القرون اللاحقة ، مع انحسار موجة التعصّب تدريجياً في اسبانيا ، فتنبّه الاسبان إلى أهميةّ المخطوطات العربية المتبقية في بلادهم ، وأمر الملك فيليب الثاني بجمعها ووضعها في المكتبة الملكية فجمعوها بدير الاسكوريال في القرن السابع عشر ، ولكن حريقاً كبيراً شبّ بالدير سنة ١٦٧١ والتهم الكثير منها ، ولا بد من الاشارة الى أن عدداً كبيراً من تلك النفائس كان قد أُحرق وأتلف في السابق ، إبان ثورات البربر في الأندلس ، وعقب طرد العرب من غرناطة .

هنالك سببٌ كبيرُ الأهمية أدى إلى نبشِ التراث الحضاري العربي في الاندلس ، وحفز الكتاب الغربيين والمستعربين في أوروبا إلى دراستِه ،

وتحقيقه ، وترجمته في القرنين الماضيين ، وهو نشرُ الفهرس العلمي للمكتبة العربية المخطوطة التي كانت موجودة في دير الاسكوريال لقد نشر ذلك الفهرس الضخم باللغة اللاتينية على يد العالم اللبناني ، الكاهن ميخائيل غزيري الذي استدعته الحكومة الاسبانية من روما إلى مدريد لهذا الغرض فأقام عشرين سنة في الاسكوريال ، عكف خلالها على دراسة المخطوطات النفيسة التي لا يتجاوز عددُها ألفي مخطوطة، ولقد نشر الجزء الأول منه سنة ١٧٦٠ م ، الذي أرشد الباحثين إلى علوم الفلسفة والدين والرياضيات ، والنحو واللغة ، والسياسة والتاريخ الطبيعي والطبِّ والفلك والشعر . ثم نشر الجزء الثاني سنة ١٧٧٠ فكان مرشداً إلى علوم العرب في الجغرافيا والتاريخ . بفضل هذين المجلدين اكتشف الغربيون روائع الحضارة العربية الأندلسية ، وشرعوا بالاهتمام بها اهتماماً بالغاً ، اعتباراً من القرن الماضي ، فالى جانب الدراسات والكتب التي وضعها « دوزي — Dozy » الهولندي ، و « بركلمان — BROCKELMAN » الألماني ،و « جيب — GIBB » البريطاني ، وماسينيون — MASSIGNON » الفرنسي ، نجد أبحاثاً ومؤلفات كثيرة وقيمة ، وضعها مستعربون ومؤرخون إسبان ، أمثالُ ميجيل آسين بالاثيوث Miguel Asin Palacios » و« إميليو غارثيا غوميث — Emilio Garci aGomez » ، و« سانتشيس ألبرنص Sanches Alboronoz » وغيرُهم من الأساتذة واللغويين والمؤرخين المعاصرين . إن الاسبان اليوم غير الاسبان في العصور الماضية ، إنهم يولون الحضارة العربية التي سطعت أنوارُها في بلادهم ، يومَ كانت أوروبا تغطُّ في ليل القرون الوسطى ، عنايةً فائقة ، ويعتبرونها جزءاً هاماً من تاريخهم وتراثاً عربياً إسبانياً مشتركاً بيننا وبينهم ، عربيَّ اللغة والتعبير ، وأندلسيَّ المنبت ، لقد

أضحوا ينظرون اليه برؤيا جديدة لا أثر فيها لرواسبِ التعصب الديني والعرقي كما أخذوا يفاخرون ببصمات تلك الحضارة في بلادهم ، ويعتبرونها دليلاً ساطعاً على أصالتهم . وهنا أود أن أعبّر عن اعتقادي بأن البلاد ، يمتاز بعضها عن بعض ، برسالاتِها ، لا بمساحاتها ، وأن المدنَ تمتازُ بروحها ، لا بصروحِها ، وخيرُ مثالٍ على هذا القول هو الرسالةُ الحضارية العربية التي وُلدت في أرض الأندلس ، وتألّقت في مدنها ، منذ القرن الثامن ميلادي على مدى ثمانية قرون ، والتي حافظت حتى غاية اليوم ، على طابعها الروحي الفريد ، فعندما يزور أحدنا—أي بعد خروج العرب من الأندلس بخمسمائة سِنة تقريباً—قرطبة واشبيليه وغرناطة وطليطلة وغيرَها من حواضر الأندلس ،ويتعرف الى أبنائها ، ويتحاورُ معهم يستجلي ، في الحال ، السماتِ العربيةَ ، وعندما يطوفُ حول الآثار المتبقّية من تلك الحضارة يكتشف البصماتِ الدمشقيةَ الظاهرةَ فيها ، ويقرُّ بأن أميرَ الشعراء شوقي لم يكن مغالياً عندما زارها في أوائل هذا القرن وأنشد يقول :

لولا دمشقُ لما كانت طليطلة ، ولما زهت ببني العباس بغدان

ذكرت انني آثرت الاستنادَ إلى المصادر والمراجع الاسبانية في هذا العرض ، وهي كثيرة وشيّقة ، منها كتابٌ تاريخي علميّ عنوانه : « بم تّدين الثقافة لعرب إسبانيا » وضعه أستاذ مرموق في جامعة برشلونه ، ومستعرب غير أندلسيّ له مؤلفاتٌ متعددة هو الدكتور : خوان فيرنية Juan Vernet . لقد نشر هذا الكتاب باللغة الاسبانية قبل إثنتي عشرة سنة وأعيدت طباعته بضعْ مرات ، ثم تُرجم إلى لغات أوروبية ، منها الفرنسية ، وصدر عن دار سندباد بباريس سنة ١٩٨٥ ،

بالعنوان التالي ce Rue LA culture doit aux Arabes D'espagne.
يقول الدكتور فيرنيه في كتابه : (كان الغزو العربي لاسبانيا غزواً ثقافياً وفنياً مذهلاً بسرعته واتساعه ، وما زال يُدهش الباحثين اذ لم يسبق له مثيلٌ في التاريخ) وكما أشار في مقدمة الكتاب إلى أنه لم يقصد بكلمة « العرب » ، لا العِرقَ ، ولا الدينَ ، إنما قصد بها لغة العرب الّتي دوّنوا بها كنوزَ ثقافتهم ، ونشروها في إسبانيا إبان وجودهم الطويل فيها ، وكان يتكلمها الاسبانُ أنفسُهم واليهودُ ، والفرس والترك ثم أضاف مايلي :

(إن للغة العربية الفضلَ الأكبر في نقل العلوم الشرقية القديمة ، والعلوم الاسلامية إلى اللغتين القشتالية واللاتينية ، وهذا ما كان له أثرٌ كبير في عصر النهضة الأوروبية . لقد عرف الغزوُ الإسلامي لإسبانيا القادمُ اليها عبر المغرب ، موجتين عربيتين كانت الأولى : موجةَ موسى بن نُصيّر ، الحجازيِّ المنبت ، والدمشقيِّ النشأة ، سنة ٧١٢ ميلادية ، وكانت الثانية هي موجة بلج بن بشر ، القائدِ الدمشقي ، سنة ٧٤٠ ميلادية ، ويُقدرّ عددُ جنود هاتين الحملتين ما بين ثلاثين ألف عنصرٍ وأربعين الفاً من العرب والبرابرة ، ولكن العنصرَ العربيَّ فيهما كان الأقوى ، فنشر اللغةَ العربية ، والفنون الهندسية ، والتقاليد العربية في شبه الجزيرة الإيبيرية وهكذا تمكنت تلك الطبقةُ ، القليلةُ العدد ، من فرضِ سيطرتها على إسبانيا كلِّها ، في غضون مئة سنة فقط ، وعرّبتها ، لما كان لها من نفوذ سياسيٍّ ، وتفوّق في الثقافة على ثقافة القوط المسيحيين (١)) .

---

(١) بم تدين الثقافة لعرب اسبانيا – د . خوان فيرني – دار سندباد – باريس – ١٩٨٥ – ص : ١٣

لنستعرض معاً الآن البصمات العربية والدمشقية المترسخة في الأندلس ، فان منها ما هو مرأي ، ومنها ماهو مستتر ، لا يُستدرك الا بالدراسة والتمحيص لأنها بصماتٌ تتجلى في أسلوب التعبير والتفكير لدى الاندلسيين ، وفي الأدب والشعر والموسيقى ، وما زالت تطبعهم بطابع عربيٍّ السمات ، يتحدى الزوال ، بعد انقضاء خمسة قرون على نزوح العرب عن أرضهم .

أولُ البصمات المرئية التي تستقطب اهتمامَ الزائر للأندلس هي الشبَهُ الكبير في التكوين الفيزيولوجي بين سكان مدنها وقراها ، وبيننا ، نحن الشوام ، خاصة وكذلك الشبهُ الواضحُ بين طباعهم وطباعنا إنه يرى نساءً ورجالاً وشيوخاً وأطفالاً ذوي عيونٍ سوداءَ جميلة وشعورٍ كثيفة ، وبشراتٍ حنطيةِ اللون ، وقاماتٍ معتدلة ، في أكثر الأحيان . كما يلحَظُ عندهم كرماً أصيلاً ، وشهامةً في التعامل ، وتمسكاً بتقاليد الأسرة ، ونزوعاً للكلام بأصوات مرتفعة ، وحباً للموسيقى والغناء والسهر ، وإصراراً على أخذ قسطٍ من الراحة بالقيلولة ، لتشابه المناخ بين إقليمهم وأقاليمنا . وإننا نكتشف هذه الطباع وتلك الأعراف التي توارثوها ، جيلاً في إثر جيل ، في مختلف المدن وفي الأرياف حيث ما زال الرجلُ الأندلسي يتصف بالنخوة ، ويعامل المرأة بشيء من الخشونة ، فلا يجاملها مجاملةَ الأوروبيِّ لها ، ولا يتنازلُ عن حقِّه في الزعامة ، كما أن المرأة الأندلسية محتشمةُ احتشامَ المرأة العربية ، مما يزيد في فتنتها ، ومع أنها انطلقت إلى ممارسةِ الأعمال الحرة والحكومية في السنوات الأخيرة ، فهي ما زالت راعيةَ الأسرة ، حريصةً على حُسْن سمعتها ، ومحافِظَةً على القيم الأخلاقية ، إذ قلما

تسترسلُ في حريتها استرسالَ غيرها من نساء أوروبا وأمريكا المعاصرات كما نلحظ اعتزازَ الأندلسيين بالدم العربي الذي يجري في عروقهم لأنه ، في اعتقادهم ، دليلٌ على عراقة منبتهم ، ولستُ أغالي إذ أقول إن الأندلسيين الذين مازالوا يحملون كنىً عربيةً فخورون بالانتساب اليها ، مع أن بعضها قد أصابه التحريف في لغتهم ، فأسرة : « القصير » مثلاً هي بالاسبانية : « Alcocer » ، وأسرة : « بني أمية » هي : « Beni humeya » وأسرة : « المدوّر هي — Almodorar » وأسرةُ : « القلعة » هي « Alcal'a » واذا تبصرنا بأسماء المدن والقرى ، والقصور والقلاع . وبعض المواقع الجغرافية نُدرك على التوّ الأسماءَ التي أطلقها عليها العرب حين شيدّوها أو اكتشفوها أذكر منها ، على سبيل المثال مدينةً : « المنكّب — Almunecar الساحلية ، بالقرب من مدينة : ملقّة ، التي نزل فيها الأميرُ عبد الرحمن الداخل ، عندما قدم إلى الأندلس — سنة ٧٥٦ م وجدير بالذكر أن بلدية المنكّب رفعت له تمثالاً ضخماً على الشاطئ سنة ١٩٨٦ ، وأقامت احتفالاً كبيراً تكريماً لذكراه ومن تلك المدن العربية أذكر بلدةً : طريف » — Tarifa » الساحلية التي سُميت باسم القائد العربي: طريف.« وجبلَ طارق » المسمى باسم طارق ابن زياد ، والمعروف في الغرب باسم « : Gibaaltar ، هو والمدينة التي بنيت على سفحه .

وهنالك . في مقاطعة : البسيط — Albacete « قريةٌ تدعى : الكرز — Alcaraz » ، مشهورةٌ بجودة فاكهتها ؛ أما مدينة « مُرسيّةَ Murcia » الواقعة على الساحل الشرقي الإسباني ، فقد بناها

الأميرُ عبدُ الرحمن الثاني . وولد فيها العالمُ الصوفي الشيخُ محي الدين بن العربي ، وأخيراً أذكر : « مدينة سالم — MedinAceli » الواقعةَ بالقرب من مدريد ، والتي دُفن فيها الخليفةُ المنصور . الأمثلة على ذلك أكثرُ من أن تعدّ وتحصى ، وقد كرّس لها المؤرخون الإسبان كتباً وقواميسَ ، في هذا القرن ، فنشر العالم « ميجيل بالاثيوث كتاباً ، أرجع فيه أسماءَ المواقعِ الجغرافية والأنهارِ والمدنِ والقرى إلى أصولها العربية ، كما نشرت ، مجموعة من العلماء اللغويين قاموساً ضخماً ، قدّم له المؤرخ الكبير : «رامون مننندث بيدال Ramon Menendez Pidal يُرشد إلى أصول لمفردات اللغة الإسبانية المتداولة ، إما العربية ، وإما اللاتينية . ولا بد من الإشارة إلى عملٍ عظيم صدر منذ حوالي نصف قرنٍ في مدريد ، بعنوان : « تاريخ اللغة الاسبانية . وضعه عالمُ لغويٌّ معاصر هو الأستاذ : رافائيل لابيسا Rafael Lapesa وكتب في مقدمته مايلي : (يأتي العنُصرُ العربيُّ في مفرداتِ اللغة الاسبانية في الدرجة الثانية من الأهمية ، بعد العنصرِ اللاتيني ، وتوجد في لغتنا حوالي أربعة آلاف كلمة عربية ، ما عدا المصطلحات الدارجة على الألسن في الأندلس ، المأخوذة من العرب ، والتي تبنّاها الأندلسيون). بسبب تفاعل حضارة العرب في أرضهم وفي أسلوب حياتهم (١)) .

وهنا أودّ أن أستشهد ببعض هذه المصطلحات كقولهم للصديق : « ليحفظك الله — Que Dios Grande » ، وللشحاذ : ليرزقك الله — Que Dios mantenga » ، وقولهم : « إن شاء الله — Ojola إذا ما عزموا على أمرٍ ما . كما أنهم يعبّرون عن طربهم لشيء ، وإعجابهم

(١) تاريخ اللغة الاسبانية — رافائيل لا بيسا — مدريد — الطبعة السابعة ص : ٩٥ — ١١٠

بالرقص أو بالغناء أو ببراعة مصارع الثيران بعبارة : « Ole » ، وأصلها : « الله » ! ويقولون للإنسان الطيّب والمحسن : « بارك الله بالأم التي وضعتك Bendita seo la madre Quc teporio » إنها مصطلحات عربية بحتة ، لايوجد لها شبيه في اللغات اللاتينية والأوروبية، وهي ، وغيرها كثير ، من البصمات العربية الواضحة .

أما الطراز العربي في بناء المدن والقرى الاندلسية قديماً ، والوحدات السكنية حديثاً ، فما زال يجذب السياح إليها لما فيه من جمال وأناقة . ولا ريب في أن الأحياء القديمة في قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة وسائر مدن الأندلس وقراها ، الكبيرة والصغيرة ، هي أجمل ما فيها : حارات ضيقة متعرّجة ، تكتنفها بيوت مطلية باللون الأبيض من الخارج ، لكلّ منها فناء داخليّ ، أو صحن تتوسطه بركة ماء ، وتزيّنه أحواض النباتات والزهور كالريحان ، وهو باللغة الأسبانية : « Arroyon » والحبق وهو : « Albohaca » والياسمين ، وهو Jasmin » والعطرة والخبيزة الخ . . . الخ . . . وقد توجد في بعض هذه الصحون الداخلية شجرة ليمون أو أكثر اذا كان الفناء كبيراً . وكذلك نشاهد في تلك المدن بيوتاً كبيرة من هذا الطراز العربي ، لكل منها أكثر من فناءٍ داخلي ، ينافسُ الواحدُ الآخر بفتنته وتنسيق زهوره ومياهه وأشجاره ولكنها تحوّلت في هذا العصر إلى متاحفَ ومطاعم . ولا ريب في أن قلوبنا تهفو إلى بيوت آبائنا وأجدادنا الدمشقيّة القديمة التي أهملناها وهجرناها ، وأننا نُحسّ بالحنين اليها عندما نزورُ مثيلاتها المغروسةَ في مدن الأندلس ، حيث يحرُصُ السكانُ على البقاءِ فيها ، وصيانتها، ويتبارون بتجميلها لأن البلديات تقدّمُ جوائزَ ماليةّ سنوياً لأبدعِ

فناءِ داخلي ، وأجمل واجهة لتلك الدور الملائمة للمناخ ، والجذابة للسياح أعود فأقول إننا ، نحنُ الدمشقيين نتأسفَ لما ناب بيوتنا القديمة الرائعة من إهمالٍ ، عبرَ القرون الماضية ، لا يبرره سوى التخلّف ولكن البرَكةَ اليوم موجودةً في همم أصدقاء دمشقَ ، ومحبيها ، الذين لا يؤلون جهداً في إنعاش أحيائنا التاريخية ، وترميمها ، وصيانتها وتنظيفها وتجميلها ، لإعادة النضارة اليها .

أما أسواق الأندلس العربية فان الحكومات المتعاقبة تعملُ على تجميلها وصيانتها ، دون المس بطابعها القديم ، وتشجع الصناعات المحلية فيها. فأول ما يسترعي انتباه الزائر لطليطلة تلكَ اليافطاتِ الكبيرة المعلقة على المتاجر في سوقها القديم ، المكتوب عليها باللغة الاسبانية : « Damas Ruinos » ، أي : « صناعات دمشقية » فيدخل اليها ليشاهدَ أنواعاً وأشكالاً بديعةً السيوف والمقصات ، والأدوات المعدنية المنقوشة ، والمطعّمة بزخارف دقيقة . إنها صناعةٌ دمشقيةُ المنبت أدخَلها إلى الأندلس حرفيون دماشقة بعد الفتح ، فحملت اسَمهم ، واتصفت به حتى اليوم ، كما أنهم أدخلوا إلى قرطبة صناعةَ الجلودِ المزخرفة ، والحريرِ الموشّى بالخيوط الفضية والذهبية المعروفِ عالميا باسم دمشق أيضاً : « Damasco » . أما غرناطةُ واشبيلية فقد اختصتا صناعةَ الأشغالِ اليدوية الدقيقة المسماة الدانتيلا ذاتِ الرسوم المتأثرة بأشكال الفن الإسلامي ، وصناعةَ الزجاجِ والفخار والخزف .

وفي الأندلس نلحظ بصمات دمشقيةَ وسورية هندسية وفنية لابّد من شرحها، والتوقف عندها : معروفٌ أنه قد نشأت في سورية القديمة

هندسةٌ مميزةٌ في عهد الامبراطور الروماني « أدريان » في القرن الثاني بعد الميلاد ، وأن الذوق الشرقيَّ يميلُ إلى التزيين والزخرفة ، فاشتُهر عدد كبير من المهندسين والبنائين والحرفيين السوريين إذ ذاك ، وما زالت آثارُ فنهم ظاهرةً في مباني روما والقسطنطينية . ان هذا الشرح منشور في دائرة المعارف البريطانية ، ومذكورٌ في كتب التاريخ الروماني .

ولكن فنّ العمارة والزخرفة في سورية تطوّر بعد الفتح الاسلامي ، واقترنَ بالفن العربي ، الوافدِ اليها من الحجاز ، فأصبح القوسُ البيزنطي ملائماً للذوقِ العربي ، شبيهاً بنعل الفرس وأضحى العمودُ الروماني الضخمُ أكثَر لطافةً وأناقةً ، شبيهاً بالنخلة الّتي تعودتها العينُ العربية ، وتدرّج الفن السوري في الزخرفة من الخطّ الواحد ، إلى التسطير ، والتوريق ، والتقضيب ، وظهر في الرسوم الهندسية على الخشب والجصّ . هذا هو الفن الذي ازدهر إبان الخلافة الأموية في سورية ، والذي حمله الفاتحون من دمشق وحمص إلى القيروان أولاً ، ومنها إلى فاس وسبته ، في المغرب الأقصى ومنهما إلى الأندلس . كان أولئك الفاتحون يحملون الرماحَ بأيديهم ، والدينَ الجديد ، والفنونَ المتطورة في قلوبهم وعقولهم ، وهكذا نرى كيف انتقل فَن العمارة والزخرفة من بلادنا إلى الأندلس على أيدي مهندسين ، وحرفيين ، وخطاطين ، وبنائين مهرة ، بعضُهم رافق جيوش الفاتحين ، وبعضُهم الآخر استقدمه الأمراء والخلفاء في القرون اللاحقة ، فازدهر في عاصمتهم قرطبة ، ومن ثمّ في طليطلة واشبيلية وملقهّ وغرناطة وسائرِ قواعدِ ملكهم الكبير . لقد أحبّ الاسبان هذه الفنون الهندسية والزخارف التزينية فأخذوا يقتبسونها في أبنية مقاطعاتهم الشمالية ، كما أنهم تبنوها ، بعد خروج العرب من بلادهم ، حيث آثر عدد كبير من

الفنانين العرب والمغاربة البقاء في اسبانيا على النزوح عنها ، فيها فُعرفوا باسم « المدجّنين — Mudejares » وسُمّي فنُّهم : الفنّ المُدجّن — Arte mudejar » لقد أثر هذا الفن المدجَن بالفن القوطي ، وظهرت خطوطه العربية ، واشكاله الهندسية والتزينية في عددٍ كبير من الكنائس والأديرة ، والورد والقصور الاسبانية ، حتى نهاية القرن الثامن عشر ميلادي . إن مما اطلعت عليه في كتاب الدكتور خوان فيرنيه قولُ يسترعي الانتباه هذا نصُّهُ : (يعود استمرار هذا الفن إلى مدارس فنيةٍ قديمة أُسّست في إسبانيا لتعليمه ، واقد جرى تنقيب حديث في كنيسة : سان كليمنيتي — San Clemente » بمدريد كشف عن خطوطٍ عربيةٍ منحوتةٍ على جدرانها ، لأن الأسبان اقتبسوا من الخطاطين والنقاشين العرب ، والمدجنين فنونهم الرائعة ، وزينوا بها دوّرهم وقصوَرهم وكنائِسَهم ، من غير أن يدركوا معانَي الكلمات المنقوشة عليها ، ومنها كلمةُ « الله ، وكلمة « البركة » . لقد فقدت تلكَ الكلمات دلالتَها ، مع الزمن ، بدليل أن عبارةَ الشهادة الإسلامية : « لا إله الا الله ، محمدٌ رسولُ الله » ، استُخدمت في القرن الثامن عشر في تزيين اطارٍ جميل مزركش وُجد فوق تمثالٍ للعذراء ، في أحدى الكنائس) .

إن من السماتِ العربية الأخرى ، التي ما زالت تشهدُ بحضارةٍ أسلافنا في الأندلس براعتهم في فنّ الزراعة والريّ ، وجرّ المياه إلى الدورِ والحقول ، وغرسِ أنواعٍ من الأشجار المثمرة والتزينية ، لم تكن موجودةً في القارة الأوروبية قبل فتح الأندلس ، من هذه الأشجار نذكر : الزيتون — « Aceituna » والليمون — « Limon »

والرمانَ والتينَ والتوتَ والنخيل . كما أنهم نقلوا من الشمال الأفريقي ، ومن الشرق زراعة القطن — « Alcoton » ، و « الرز — « Arroz » « والزعفران » — Azafran . واشتُهروا بخبرتهم في أحوال الجّو ، وخصائص التربة .

لنتحدث الآن عن البصمات العربية الشرقية في الموسيقى الإسبانية ، وفي الفلامنكو خاصة . عندما نستمع إلى أعمال المؤلفين الإسبان المعاصرين أمثال : « ألبينيز — Albeniz و « غرانادوس — Granados و « دي فايا — DE Falla » نشعر بتعاطف مع أنغامها المشجية ، ولا سيما في كونشيرتو » : آرانخويس Aranjuez » المشهور للفنان الكبير » رودريفو — Rodrigo » . أما الفلامنكو ، ولا سيما اللونُ القديم منه ، المعروف باسم : كانت خوندو — Cante jon do » ، فان كلّ من يستمع اليه يُحسّ بتفاعُلٍ مع أنغامه ،لأنه متأثر بالموسيقى والغناء العربيين اللذين صدَحا في الأندلس على مدى عشرة قرون من الزمان . أقول عشرة قرون لا ثمانيةَ ، أي مدة وُجود العربَ في الأندلس ، إذ قرأت مقطعاً في كتابٍ تاريخي الأديب العالم الدكتور « غريغوريو مارانيون — Gregoio Maranon » نشره في القرن العشرين بعنوان « أبناء فيليت الثلاثة -- los tres Velez » جاء فيه وصف لجلسة عائلية في غرناطة ، بعد خروج العرب منها بمائة سنة هذا نصّه : (كانت ربّة البيت سيدة موريسكية نبيلة،من سلالة بني أمية وكانت رائعة الحسن ، جذابة الحديث ،بارعةً بالعزف على العود وبالغناء والرقص على الطريقتين العربية والاسبانية .) أما نعتها بـ « الموريسكية » فهو يعني أنها من سلالة المسلمين الذين بقوا في الأندلس، وتنصّروا ، بعد أن استرجعها ملوك الكاثوليك الإسبان . فلقد عرفوا باسم : « الموريسكيين — Moriscos »

على ذكر العود نستحضر ذكرى الفنان الكبير : « زرياب » الذي استدعاه من بغداد إلى الأندلس الأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم ، في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي . لقد غادر زرياب بغداد إلى دمشق ، ومنها إلى الأنداس بصحبة إبنتيه : حمدونة وعُليّة ، وجاريتيه : مصابيحٍ ومتعة ، وعمل في قرطبة نديماً للأمراء ، ومغنياً وملحناً ، ومدرّساً للموسيقى والغناء . كما أنه نشر في الأندلس آداب الطعام والشراب ، وتصنيفهما في المآدب ، وتزيين الموائد ، وتطوير الأزياء لما اشتُهر به من ذوقٍ مرهفٍ ، وأناقة . إن ما يجدر بالذكر هو أن موسيقياً إسبانياً معاصراً هو السيد : « خيوس جرويس — Juis greus » كتب سيرة الفنان زرياب باللغة الاسبانية ونشرها في كتابٍ نفيس صدر بمدريد سنة ١٩٨٧ . ولا بدّ لنا من القول بأن اليهود والإسبان.« المستعربين —Mozarobes» الذين تعاونوا مع الحكم العربي آنذاك ، وظلوا محافظين على شعائرهم الدينية يمارسونها بحرّيةٍ بسبب تسامح المسلمين ، كانوا يرتدون الأزياء العربية في تلك القرون ، على مختلف مستوياتهم الاجتماعية ، فلقد ذكر المؤرخ المعاصر الدكتور : « خوان فيرنيه » ، في كتابة النفيس الذي أشرت اليه ، وأفدت منه كثيراً : (أن الأمراء الإسبان والأشراف والوجهاء ، في المقاطعات المستقلة عن الأندلس إبان الوجود العربي فيها ، حذوا حذوهم في ألبستهم ، وتزيين قصورهم ودورهم ، وترتيب موائدهم ، وتصنيف أطعمتهم ، وذلك في مقاطعات . « قشطالة وليون وأوفييدو Castilta, leon y Oivedo » .

كما أنني قرأت في كتابٍ عن اسبانيا ، وضعه أستاذان مختصان باللغة وبالتدريس هما : « غير ترود ريتشرت — Gertrud Richart »

و « خوليو كورتيس — Juluo cortés » الذي كان أول مدير للمركز الثقافي الإسباني بدمشق ، فور تأسيسه (وكان أستاذي فيه سنة ١٩٦١) أن العديد من النساء الأندلسيات حافظن على الزيّ العربي المحتشم لدى خروجهن من بيوتهن حتى سنواتٍ خلت ، وذلك في « المحقر — Almojocor » ، و « طريف — Tarifa » ، و « فيليث دي لا فرونتيرا — Velez de la Frontera » ، الواقعة بالقرب من مدينة قادش — Cadiz » فان من زار هذه القرى قبل حوالي نصف قرنٍ ، لا بدّ من أن يكون شاهد نساءها يتجولن خارج بيوتهن مرتديات العباءة العربية والخمار ، كما ، أن صورهن قد ظهرت في بطاقات بريدية قديمة .)(١) .

أما اليوم فاننا لم نعد نرى أيّ أثرٍ للأزياء العربية في إسبانيا لأن النساء فيها ، ومنهن الأندلسيات ، نزلن الى ميادين العمل في المدن وفي بعض القرى ، وتحررن من تلك التقاليد الموروثة . وتتمة للحديث عن الأزياء أودّ أن أذكر لكم ، أيها السيدات والسادة ، ما شرعت بعمله وزارة التربية والتعليم في مدينة قرطبة منذ سنة ١٩٨٦ تخليداً لذكرى خلفائها الأمويين الذين أسسوا فيها ملكاً حضارياً عظيماً . لقد شرعت بدعوة المتفوقين من طلاب مدارسها الابتدائية لقضاء أسبوعٍ في مدينة الزهراء الأثرية ، المجاورة لقرطبة ، وذلك في أثناء عطلة المدارس الصيفية ، وجعلت هؤلاء الأطفال يقيمون في خيامٍ عربيةٍ نصبتها لهم ، فوجاً في إثر فوج ، ويشاهدون مسرح العرائس في الأمسيات ، وهم يرتدون أزياءً عربية معدّةً لهم خصيصاً لكي يروا

(١) إسبانيا — خوليو كورتيس وجيرترون ريتشرت — ١٩٥٤ — ص : ١٢٦ و ١٢٧.

فصولاً من الحكم العربي الأموي في مدينتهم ، ويتعلمون نبذاً عن تاريخه الذي أسس حقبة هامةً من تاريخ بلادهم المجيد . إنه ابتكار جديد يدل على تمسّك الإسبان بذلك التاريخ ، واعتزازهم بأمجاده ، ، وتقديرهم لخدماته للعلم والفن لأنه أضحى جزءاً هاماً من جذورهم العريقة ! ولا بد لي من أن أشير الى أن إقبال الاسبان على تعلّم اللغة العربية والتاريخ الاسلامي والأدب الأندلسي ، وتخصيص كليات وفروع لهذا الغرض في جامعات اسبانيا الخمس في يومنا الحاضر آخذ بالتزايد ، وان الاهتمام بذلك التّراث العربي الاندلسي المشترك قد ولّد طبقة من الأساتذة المختصين به والمستعربين ، ينشرون عنه الكتب القيمة والأبحاث الرصينه التي لا أثر فيها لأيّ شكل من أشكال التحيّز أو التعصب .

إننا نعلم أن قرطبة كانت عاصمة النور التي انطلقت منها تلك الحضارة « المعجزة » ، في رأي البحاثة الأرجنتيني المستعرب الدكتور « أوزفالدو ماتشادو » ، وأن قرطبة كانت أولّ مدينة في أوروبا آهلة بالسكان ، مزدهية بالمكتبات العامة والخاصة ، يستقطب مسجدها الجامع طلابَ العلم من كل مكان ، ونعلم أنها اشتُهرت بتنوير حاراتها وساحاتها ، وبكثرة حماماتها ، وأرباضها ، ومنها « الرصافة » التي بناها هشامُ الأول ، ابنُ عبد الرحمن الأول ، تخليداً لذكرى جده هشام بن عبد الملك الذي توفي في رُصافة سورية ، ببادية تدمر . تُرى ماذا تبقّى من رصافة هشام الأندلسية اليوم ؟ لقد أضحت في يومنا الحاضر متصلة بقرطبة لانتشار العمران ، ولكن الحكومة الاسبانية بَنَتْ فيها فندقاً سياحياً جميلاً أسمته : « الرصافة . La Arruzafa » .

واذا تساءلنا ماذا تبقى في قرطبة اليوم من البصمات العربية ؟ فاننا نذهل أمام وفرة آثارها المتبقية وعظمتها ، ابتداءً بأسوار المدينة وأحيائها العربية ، ودورها الدمشقية ، ومروراً بمسجدها العظيم الذي تحول الى بناءٍ أثري احتفلت الحكومة سنة ١٩٨٦ احتمالاً كبيراً بانقضاء إثني عشرٍ قرناً على تأسيسه ، وكان لي الحظُّ بحضوره . أما تكريمُ الحكومة الإسبانية للأعلام العرب الأندلسيين الذين خدموا الثقافة العالمية والحضارة الانسانية امثالُ ابنِ رشد وابن حزم وابن ميمون ، اليهودي الأصل ، الذي أسهم مع العرب بنشرها ، فاننا ننظر الى ذلك التكريم بكثير من الرضا والتقدير ، إذ أقامت الحكومات الاسبانية المتعاقبة ، منذ الستينيات ، مهرجاناتٍ رسمية ، ودعت الى ندوات علمية وأدبية بمناسبة رفعِ تماثيل لهم ، حيثما كانوا يقيمون في قرطبة القديمة . أما ولادةُ وابنُ زيدون فلقد أقامت محافظة قرطبة نصباً تذكارياً لهما ولحبهما في الحديقة العامة ، المواجهة للمسجد الكبير ، التي كانت جزءاً من حديقة القصر الأموي ، المجاورة له ، وكان لي شرف انتقاء بيتين من الشعر ، لكلٍ من ولادة وابن زيدون ، نُقشا على اللوحة الرخامية باللغتين العربية والاسبانية ، ذلك لأن فكرة إقامة ذلك النصب التذكاري انبثقت عند الاسبان في اثر محاضرة ألقيتها في مدريد سنة ١٩٦٧ ، عنوانها : « عاشقا قرطبة ولادةْ وابن زيدون » .

اذا انتقلنا من قرطبة الى إشبيلية لنتعرف الى البصمات العربية والدمشقية فيها يسترعي انتباهنا قصرها الكبير ، وحدائقُه الغناء ، ومئذنةُ مسجدها القديم المعروفة باسم : « لاخيرالدا — LA Giralda» والتي تحولت الى برج لأجراس الكاتيدرائية الكبيرة في القرن الخامس عشر .

أماالقصرُ فهو آخرُ ابتكار بني العباد في العمارة والزخارف، استولى عليه ملوك الإسبان في القرن الثالث عشر (سنة ١٢٤٨) بعد سقوطها . وأضافوا عليه قاعات وزخارف أخذت عن الفن العربي والدمشقي بعض الملامح ، وموّهتْهُ بالألوان الصارخة ، إذ كثيراً ما كان الفنانون الاسبان ، في تلك الحقْبة من الزمن ،يقتبسون الفن العربي ، ويحاولون إخفاءه بسبب نقمتهم على العرب ، وهذا هو السبب في أنهم يُطلقون إسْمَ المغاربة — Moros ، في كتبهم ، على العرب والمسلمين الذين حكموا بلادهم، ونشروا فيها حضارةً مذهلة . « الخيرالدا . إذن هي المئذنة التي شادها المهندس جابر للخليفة المريني يوسف بن يعقوب ، قبل سقوط اشبيلية بفترة قصيرة ، أما برجُ الذهب «Torre de oro » فقد كان أحد أبراج القصر العربي ، الواقعة على ضفة نهر الوادي الكبير — GuadalQivir » ، بُني قسمه الأسفل المضلع سنة ١٢٢٠م في عهد الحاكم الموحّدي أبي العلاء ، ثم بُني قسمُه الأعلى في العهد المسيحي الإسباني ، وسُمّي « برجَ الذهب » لأنه كان في الأصل بيتاً للمال ، ولأن لونه القيشاني الذي يغلّفه ذهبي اللون ، وهو مثال ناجح على اندماج الفنين العربي والاسباني الغوطي بشكل متناسق ، لا أثر للتنافر بينهما . كما أننا نستشفّ البصمات العربية الدمشقية في أشكال الهندسة وأنواع الزخرفة المتجلّيين في أحياء المدينة العربية واليهودية القديمة وفي دورها . إن إشبيلية اليوم تتباهى بماضيها العربي وبماضيها الروماني الذي سبقه ، وتحافظ على الآثار المتبقية فيها بعناية فائقة ، مع أنها أصبحت مدينة حديثة كبيرة ومتطوره . وهي تستعد استعداداً ضخماً لإقامة معرض

دوليّ فيها ومهرجانات في سنة ١٩٩٢ احتفالاً بانقضاء خمسة قرون على اكتشاف أمريكا ، ولكن للقديم فيها حرمته ، ومكانته وأهميته ، كما أن للحديث فيها فائدته وأهميته كذلك .

أما غرناطة فاننا نعلم جميعاً أنها كانت آخر قواعد الأندلس التي سقطت بأيدي ملوك الإسبان الكاثوليك سنة ١٤٩٢ ، ونعلم أن بني الأحمر أسسوا فيها ملكهم العظيم الذي استمر زهاء قرنين من الزمان ، وشادوا على هضبتها قصر الحمراء الفخم الذي ما زال يُدهش السياح بقاعاته وقبابه وحدائقه ، وصحونه الداخلية وجدرانه الملوّنة المكسوة بالقيشاني ، والمنقوشة عليها بعض الأشعار والعبارات ومنها عبارة : « ولا غالب الا الله » . لقد وصف المؤرخون هذا القصر بصفة السحر إذ يتجلى فيه أرقى نموذج للفن الإسلامي العربي ، وأجمله واكثره أناقةً ، وما زال الشعراء الأندلسيون يتغنون به . وبسمات إبداعه ، كما أنهم يتباهون بجمال غرناطة نفسها وسحرها الخاص بها لموقعها الجغرافي الرائع على الهضاب المجاورة لجبل الثلج « Sierro Nevada » ، الاسم الذي أطلقه عليه العرب لتراكم الثلوج فيه. ولا بد من ذكر اهتمام الشعراء العرب بغرناطة قديماً . منذ وصفها أحدهم آتياً على روعة اشرافها على سهولٍ ووديانٍ وحقولٍ غنّاء فقال :

تَمُدُّ لها الجوزاءُ كَفَّ مُصافِــــح
وَيَدْنو لها بَدْرُ السَّمَاءِ مُناجيــــا

كما أننا نقرأ في إحدى قاعات قصر الحمراء هذا البيت الجميل :

فِقْتُ الحسانَ بِحُليَ وَبِتاجِــــــي
فَهَوَتْ إليَّ الشُهُـــبُ فــي الأَبْراج

ولكن أفضل وصف لهذا القصر وأكمله هو وصف الروائي الأميركي : « واشنطن ايرفينغ – Washigton Erving » له ، في كتابه الشهير : « حكايات الحمراء » . لقد وضعه في القرن الماضي ، واستوحاه من زيارته لغرناطة سنة ١٨٢٩ . وإقامته في القصر بضعة شهور ، باذن من المشرفين عليه آنذاك . نُقل هذا الكتاب الى لغاتٍ عدّة ، وما زال يباع في المكتبات ، وفي المركز السياحي الموجود في مدخل القصر ، وإن من يقرؤه يجد فيه سيرةً ذاتية للأديب الرحالة ، وتأملاته في تاريخ الحضارة العربية ، وانطباعاته عن أهل غرناطة الذين اتصل بهم ، كما يجد قصصاً طريفة سمعها منهم ، وأساطير دوّنها بأسلوب مشوّقٍ . لقد كتب في فصلٍ عنوانه : « تأملات في الاحتلال الإسلامي لإسبانيا » ، ما يلي : (نشر العرب سلطانهم في الأندلس على أسس حكيمة ، وقوانين عادلة ، فشيّدوا إمبراطوريةً لامثيل لازدهارها في العالم القديم . لقد بَنَوا المدن ، وجرّوا المياه للحقول ، وغرسوها بالأشجار ، وعلّموا السكان الأصليين فنون الزراعة والري ، والحرف اليدوية ، والموسيقى والفروسية ، والعلوم والفنون والآداب على أنواعها ، وذلك بلغتهم العربية التي نشروها في إبان حكمهم الطويل . وهكذا ازدهرت الأندلس في عهدهم ازدهاراً معجزاً ، وتألّقت حضارتهم في قرطبة وطليطلة وإشبيلية وغرناطة وقادش وسرقسطة وغيرها ، فشعّت أنوارها على الغرب كلّه يوم كان يعيش في عصور الظلام والتخلّف . ومع ذلك ، وعلى الرغم مما صنع العرب من معجزات في اسبانيا المسلمة ، وما شادوا فيها من مدنٍ ومرافىء ، وقلاعٍ وقصور ، ومعاهد وآثار ، فان إمبراطوريتهم لم تكن سوى نوعٍ من

أنواع النبات الغريب والرائع في آنٍ معاً لأنها عجزت عن مدّ جذورها في الأرض التي أحيتها وجمّلتها ... لقد وجدوا أنفسهم ذات يوم ، وبعد عدةِ قرون ، منعزلين عن جيرانهم في الغرب الأوروبي بسبب حواجز الديانة والتقاليد والأعراف التي تفصلهم عنهم ، كما وجدوا أنفسهم منقطعين عن أهليهم في الشرق بسبب البحار والصحارى التي تفصلهم عنهم . كان وجود العرب في الأندلس سلسلةً من المعارك الطويلة الشاقة التي برهنوا فيها عن شجاعتهم وفروسيتهم ولكنهم انهزموا ، في آخر الأمر ، أمام عناد الغوطيين وإصرارهم على استرجاع بلادهم . ترى أين هم الآن ؟ وماذا خلّفوا في الأندلس التي أحيوها وأنعشوها ؟ إن الحمراء أثر خالد من آثارهم المجيدة ، إنها قصر إسلاميّ عربيّ فخم في أرضٍ مسيحية ، وبناء رائع يدلّ على براعة شعب ذكيّ ، ذي ذوقٍ مرهف احتلّ بلداً كبيراً وحكمه القرون الطوال ، ثم رحل عنه مخلّداً فيه آثاراً عظيمةً وتراثاً حضارياً وفنياً غنياً (١)) .

هذا ما كتبه « واشنطن إيرفينغ » في كتابه : « حكايات الحمراء » ، فلنستمع اليه وهو يصف لنا مشاهداته في الحمراء حيث يقول : « قبل أن ندخل الى القصر ، رفاقي وأنا ، مررنا بساحةٍ تدعى : « ساحة الجبّ Ploza Dela Algibe » نسبةً الى خزانات المياه الكبيرة التي بناها العرب » تحت الأرض لتأمين المياه للقصر والقلعة . كما يوجد في الساحة بئر عميق ، ماؤه غير بارد ، يفي بحاجات الشرب ، وهو دليل على اهتمامهم بجر المياه العذبة الى دورهم : من ساحة الجبّ

(١) حكايات الحمراء – واشنطن ايرفينغ– منشورات دار إيفرست – الطبعة الثالثة ١٩٧٧–ص : ٢٧ – ٣٧ .

أطللنا على قصر الملك شارل الخامس ، المواجه للحمراء ، الذي بناه عَمْداً للإنقاص من عظمة قصرها حسبما سمعت ، ولكنه بناءٌ مغترٌّ ، دخيل ، مُعَقّدُ الهندسة . بعد ذلك نفذنا الى مملكةٍ رائعة لدى وصولنا الى فناء يُبهر الأبصار بجماله ، مرصوفٍ بالمرمر الأبيض تكتنفه أروقة شرقّية من كل جانب ، وتتوسطه بركة ماءٍ كبيرة سمّوه : فناءً البركة — Patio de la Alberca » . ومن ثّم اجتزنا قوساً عربياً في طَرازه لندخل الى باحة الأسود وهي بحقٍّ أكمل مثالٍ على الإبداع في التصميم ، ومن حسن الحظ أنها سلمت من عوادي الطبيعة ، عبر القرون الماضية ، وما زالت في كامل حسنها من حيث جمال الأعمدة ، وَنَحْتُ الأسود ، وتدفّق المياه من أفواهها الإثنتي عشرة ، ونضارة النباتات التي تزين وسطها وأركانها . عندما يتبصّر الزائر في هندسة تلك الباحة يجد فيها من الأناقة وحسن الذوق اكثر مما يجد من العظمة ، وعندما يتأمل دقة النقوش في « قاعة الشقيقتين » وزخارف القبة والجدران . وجمال الخطوط العربية والآيات المصنوعة بقوالب من الجص ، هي من ابتداع الحرفيين الدمشقيين ، تعتّريه الدهشة أمام تناسق الألوان التي لا تتعدى اللونين : الأبيض والأزرق ، المطعمين بالذهبي أحياناً . وإنه ليصعب على المرء أن يصدق كيف تحدّى هذا القصر المنيف الهزات الأرضية ، وآفات شيخوخة القرون المنصرمة(١)) .

لقد أجاد واشنطن إيرفينغ بتصوير أيامه السعيدة في القصر الساحر ، وبوصفه له بأسلوبٍ تشوبه لمسات رومنطيقية ، ولا سيما عندما تخيّل

(١) حكايات الحمراء — واشنطن ايرفينغ — دار إيفرست للنشر — الطبعة الثالثة — ١٩٧٧ — ص : ٣٧ — ٣٨

الأميرات العربيات يتجوّلن فيه . ويلوّحن له بزنودهن البضّة وهنّ يتنزّهن في حدائقه ، أو يدخلن إلى قاعاتهن البديعة . ولم يفته وصف مشاعر الغرناطيين الذين اختلط بهم ولازموه إبان إقامته بينهم إذ تعلم منهم أشياء كثيرة ، وسمع أساطير مثيرة متوارثة ، متصلة بالقصر . من هذه الأساطير حكاية الجندي المتقاعد الذي عمل دليلاً للسياح في الماضي وهذا نصّها : (سمع ذلك الدليل وقع أقدامٍ في قاعة السفراء ، قبيل مغادرة القصر مساءاً ، فأسرع بالدخول إليها ظاناً أن أحد الزوار تخلّف فيها عن صحبه ، ولكنه رأى أربعة جنودٍ عرب ، مرتدين أزياء فاخرة ، على صدورهم دروعٌ من الفضة ،وتتدلّى من أحزمتهم سيوف مطعّمة بالأحجار الكريمة وهم يزرعون القاعة ذهاباً وإياباً ، بخطى متوازنة . ولما لمحوه أشاروا إليه بالدنّو منهم ولكنه فزع ، وولّى هارباً ، وهو مذهولٌ . لا يصدّق ما رأى !)(١) ويضيف الكاتب قائلاً إن الحارس: ما تيئو — MATEO » الذي سمع الحكاية من ذلك الجندي الدليل لامه على هربه الذي حرمه من حظٍ كبير ،لأن « ماتيئو » كان مؤمناً بأن أشباح العرب الراحلين كانت تزور القصر ليلاً ،من حينٍ إلى آخر . وأضاف ماتيئو يقول لواشنطن إيرفينغ إن الجنود الذين تجلّوا للدليل يومذاك ظهروا آنفاً أمام دليلٍ آخر كان أشجع من الأخير ، ودلّوه على موضع الكنوز المطمورة في حديقة القصر ، فأخذها وترك عمله في غرناطة ، وذهب إلى ملقة حيث ابتاع بيتاً جميلاً وعقارات وأضحى غنياً بعد أن كان فقيراً !

---

(١) حكايات الحمراء — واشنطن إيرفينغ — دار إيفرست للنشر — الطبعة الثالثة — ١٩٧٧ — ص ٦٢ .

يقع كتاب واشنطن ايرفنينغ في مئتين وخمسين صفحة كتبها من وحي قصر الحمراء ، والآثار العربية الباقية فيه وفي حدائقه الغناء المعروفة باسم : « جنات العريف — Jeneralife » ولكننا نجد في غرناطة بصمات عربية أخرى تتجلّى في حيٍّ شعبيٍ كبير قديم هو حيّ : البزازين — Albaicin أو البيازين نسبةً إلى نوعٍ من الصقور التي تُستخدم في الصيد ومنها البازي . كان العرب يربّون الصقور ويدربونها للصيد ، ويتقنون معرفة أحوال الجوارح في جزيرتهم ، فنقلوا هذه الهواية إلى الأندلس ، وما زال الإسبان يهتمون بتوليد البوازي والصقور ، حتى يومنا الحاضر ، ويدرّبونها على القنص في عدة مقاطعات إسبانية . إن حيّ البزازين ما زال آهلاً بالسكان ، وما زالت أسماء بعض حاراته عربية ومنها حارة : « السقاطين — Sacotin كما أن فيه دوراً عربية السمات ، أبوابها من خشب الخوخ العتيق ، ونوافذها صغيرة تطلّ على الأزقة الضيقة ، ويتوسطها فناء وبركة ماء ، على غرار بيوتنا الدمشقية القديمة وما يشابهها من البيوت المشرقية والمغربية والبيوت الأندلسية في مختلف المدن والقرى .

لقد وصف الأندلس العربية كاتب إسبانيّ معاصر هو الأستاذ « إنريكي سوردا — Enrique Sordo » في كتاب تاريخي سياحيّ مصوّر نشره سنة ١٩٦٤ ، عنوانه : « الأندلس : باب الجنّة : AL — Andolus — Puerta del Paraiso » فحدثنا فيه عن مدنها وبيوتها ذات الطابع العربي التي كان يقطن فيها المسلمون والمسيحيون واليهود جنباً إلى جنب ، في جوٍّ من التآخي والتعاون مثالي ، إبان الوجود العربي في الأندلس أي خلال ثمانية قرون تقريباً، كما وصف سوق غرناطة العربي المعروف باسم : « القيصرية — Alcaizaria »

الذي ما زال محتفظاً باسمه ، ومشتهراً ببيع الصناعات والحرف اليدوية الفاخرة المصنوعة من النحاس والفخار والخزف ، وذكر أن جلّ هذه الصناعات الفنية مأخوذ عن العرب ، وأن سكان غرناطة والقرى المجاورة لها بارعون فيها ، ويصدّرونها إلى الخارج واذا خرجنا من سوق « القيصرية » ينبغي أن نتعرّف على آثارٍ عربية أخرى . ما زالت موجودة في غرناطة منها المارستان القديم ، والمدرسة ، وبعض القلاع والحصون التي بناها ملوك بني الأحمر ولقد كان من آخر ما بنوه ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، قصر جميل مطلّ على قصر الحمراء هو « قصر الحرّة الذي أقامت فيه الملكة عائشة ، الملقبة بالحرّة ، وهي أم أبي عبدِ الله الصغير ، آخر ملوكهم . لقد تحوّل هذا القصر إلى دير ، وبُنيت في داخله كنيسة صغيرة في عهد الملك فردينان الكاثو ليكي ، غير أن الحكومة الإسبانية ابتاعته من رجال الدين في هذا القرن ، ورَمّمَتْهُ خوفاً عليه من الدمار .

على ذكر الأساطير الأندلسية التي تدور حول ما دفنه العرب من كنوزٍ في مختلف المدن ، قبل رحيلهم النهائي عنها ، يطيب لي أن أروي الكم أسطورة طريفة تناقلتها الأجيال في بلدة « ماربيا » ، حول قلعتها العربية ، قرأتها في كتابٍ للمؤرخ المعاصر الأستاذ « فرناندو ألكّلا — Fernando Alcala » ، نشره سنة ١٩٨١ بعنوان : « ماربيا المسلمة » وحاز على جائزة محلية(١) تقديراً لما ورد فيه من أبحاثٍ وتحقيقاتٍ تاريخية قيّمة ، وهذا نصّها :

(يوجد في قلعة ماربيا العربية ، الواقعة بجوار القصبة القديمة

---

(١) تدعى هذه الجائزة : جائزة فاثكيث كلا فيل — Vazquez Clavel

كنزٌ كبيرٌ مخبأ في جرارٍ من الفخار . استناداً الى ما جاء في الأسطورة التّي تداولها سكان البلدة منذ أقدم العصور ، وحتى سنواتٍ خلت . ولا أحد يعرف مكان هذا الكنز سوى رجلٍ عربيّ يُدعى « مصطفى » ، عاش في ماربيا في القرن الثاني عشر الميلادي ، واطلع على مكانه ، وما زال شبحه يزور الأطلال ، في بعض الليالي ، ليرشد من يجرؤ على مواجهته والتحدّث معه إلى حيث يوجد ذلك الكنز الثمين ! ولكن على من يحظى برؤيته أن ينفّذ شروطاً ثلاثة وضعها مصطفى لهذه الغاية ، وهي : أن يدخل إلى المغارة المسماة باسمه ، في منتصف الليل ، ثلاثَ ليالٍ متعاقبة ، فيرى في الليلة الأولى ثوراً ضخماً ، ذا قرونٍ خطيرة ، فعليه ألا يتحرّك والا يرتعد . . . ثم تظهر له في الليلة الثانية أفعى كبيرة ، ينبغي أن يبقى صامداً في مكانه حتى تذهب . . . وأما في الليلة الثالثة والأخيرة فانه يرى شبح مصطفى يحضر أمامه ،ويكافؤه على شجاعته وصموده بافشاء السرّ له ، فيرشده إلى موقع الجرار الممتلئة بالكنوز !)(١)

ولقد أشار الأستاذ « ألكلا » (وأصل كنيته هو كلمة « القلعة » العربية) في كتابه إلى أن الهدم المؤسف الذي تعرّضت له بعض أسوار القلعة أطاح باسطورة ، وبمغارة مصطفى التي أضحى مكانها ملعباً بلدياً في القرن الحاضر . — وهكذا نرى أن البصمات العربية شملت الأساطير الشعبية الأندلسية وحتى الأمثال ، إلى جانب أثرها البيّن في الأدب والشعر ، قديماً وحديثاً ، نتيجةً لالتقاء الأدب الإسباني ، في القرون الوسطى ، بالأدب العربي ، فكراً وتعبيراً ، مما أعطاه لوناً ذاتياً

---

(١) ماربيا المسلمة فرناندو ألكلا مارين — دار ماربيا للنشر — ١٩٨١ — ص : ١٣٠

لا مثيل له في الآداب الأوروبية ــ فالموشحات نشأت في الأندلس . كما نعلم ، ابتكرها وبرع في نظمها العرب في القرن الحادي عشر ميلادي ، فأمست مادةً للغناء الشعبي لخفّة أوزانها وسهولة حفظها . ذكر ابن بسام في كتابه : « الذخيرة » ، وكذلك ابن خلدون في مقدمته ، أن المخترع الأول للموشحات كان شاعراً ضريراً من بلدة : قبرا — Cabra » يُدعى « مُقدّم بنُ مُعافى القبْريّ » ثم برع بهذا اللون : عُبادةُ القزاز ، شاعرُ المعتصم بن صُمادح ، صاحب مدينة : « المرية — Almerie » ، ولقد أكّد هذا القول كلّ من الأستاذين المستعربين : « دوزي — Dozy » في القرن الماضي ، والدكتور « خوان فيرنية — Juon Vernet » ، في كتابه الحديث الذي أشرت اليه سابقاً ، عن أثر العرب في الثقافة العامة . ولكي نحيط بالموضوع من مختلف جوانبه لا بدّ من الاتيان على ذكر : « الزجل — Zejel » الأندلسي الذي بلغ ذروة الإبداع في أشعار « إبن قزمان — Aben Cuzman » في القرن الثاني عشر ، وهو ، كالموشحات ، فنٌ شعري شعبي يمتاز بالبساطة والرقة في التعبير ، وتناول موضوعات الحب والغزل ، والمدح والحماسة بأسلوبٍ يتميزّ بالخيال الخصب . كان الأندلسيون مأخوذين بالموشحات والأزجال ، ولا سيما الطبقات الشعبية في سائر حواضرهم ، فَسَهُلَ على المغنين تلحين هذين الفنين ،واتسع انتشارهما ،ثم تسرّب من ضفاف نهر « الوادي الكبير — Gudalquilvir » ، الذي كان الخطّ الفاصل بين الأندلس العربية وإسبانيا المسيحية ، الى سائر مناطقها المسيحية . وحذا حذوة في المبنى شعراء الاسبان . إن من أهم ما حدث هو أثرُ الموشحات والأزجال الكبير في ظهور الشعر الغنائي القديم في

الغرب . المعروف باسم شعر « التروبادور » . وهم الشعراء الجوّالون الذين اشتهروا في اسبانيا . وفي منطقة « البروفانس » بجنوب فرنسا . كان هؤلاء الشعراء يلقون قصائدهم في المناسبات سجالاً . وكانوا يرتجلونها . تماماً كما يفعل القوّالون من أبناء البادية العربية والقرى في بلادنا . في يومنا الحاضر .

هذا عن الشعر الشعبي الغنائي في القرون الوسطى . وعن انتشاره في الغرب انطلاقاً من الأندلس العربية ، ومنها انتشر كتاب العالم الفقيه ابن حزم القرطبي الشهير ، قبل الشعر الغنائي بمائة سنة . وأعني به : « طوقَ الحمامة » . كان كتابُ ابن حزم أوّلَ دراسةٍ علميةٍ أدبية في الحبّ . وقد ظهر تأثيره في الأدب الإسباني أو القشتالي عندما نشر : « أسقف أبرشية هيتا — Arcipeste De Hita » كتاباً في الحبّ عنوانه : « كتاب الحب الطيّب — Ee lilro del buen Omor فماذا ترى اقتبس أسقف هيتا من ابن حزم ؟ يبدو لنا جلياً أنه نحا نحوه في المقدمة حيث طلب من الله العونَ والهداية في خوض موضوع الحبّ الخطير ، ثم وصف حبّه العفّ الأول . على غرار ما فعل ابن حزم . وبعد ذلك تناول بالشرح أنواع الحبّ المحمودة والمكروهة . وصوّر ببراعةٍ ما عاناه شخصياً في مكافحة نوازع الحبّ المتمكن في نفسه ، خشيةَ ارتكاب المعصية . ولقد ختم الأسقف كتابه عن الحبّ الطيّب بنشيد جميلٍ تغنى فيه بفضل التعفّف ،وطَلَبَ المغفرةً من الله والهداية . لهذا كلّه ذهبَ الباحثون إلى الأعتقاد بأنه قد اطلّع على كتاب ابن حزم في الحب ، وتأثر به كثيراً ، لأن طوقَ الحمامة كتابٌ ذاعَ صيته في الأندلس . ونقل إلى اللغة القشطالية ، كما أنه لا يُستبعد أن يكون أسقف هيتا تعلم العربية ، كسائر المثقفين في عصره .

تتمةً لذكر البصمات العربية في القصص الإسبانية والآداب لا مندوحة لنا من الإشارة الى أن القصص المشرقية ، وفي طليعتها المقامات كانت تُنقل الى الأندلس ، وتُتلى في قرطبة وإشبيلية وغيرهما من حواضرها ، فيترجمها المسيحيون المستعربون الى لغتهم حيث كانت تروجُ بين الناس ، ويذيعُ صيتها في سائر أنحاء إسبانيا لإعجابهم بها . كانوا يستحسنون ما فيها من قوةٍ في الخيال ، ورقّةٍ في المعاني ، وإشراقٍ في الصور ، ووصفٍ دقيق للمشاعر ، ولقد تمّت ترجمةُ العديد منها ، ومن كتب العلوم في عهد الملك « ألفونسو العاشر » الملقب « بالعالم » ، وذلك في القرن الثالث عشر ، بعد سقوط طليطلة بمائةٍ وسبعين عاماً . إن الملك ألفونسو العاشر هو مؤسس : « مدرسة الترجمة » في طليطلة (التي اتخذها عاصمةً لملكه) لشدّة شغفه بالعلوم والآداب العربية ، فكلّف عدداً كبيراً من المدجّنين ، من عرب ويهود ، بنقل الآثار العلمية والأدبية الى اللغة الإسبانية القديمة ، كان كتاب : « كليلة ودمنة أولَ كتابٍ قصصي نقلوه إليها سنة ١٢٥١م ، باشرافه هو ، أما ترجمتُه الى اللغة اللاتينية فلقد تمت سنة ١٣١٣ ميلادية ، فالى ذلك الملك الاسباني العالم ، والى « مدرسة الترجمة » التي أنشأها ، يعود الفضل بنقل عددٍ وافرٍ من كتب الرياضيات والطب ، والفلسفة والفلك وعلوم النبات والتنجيم ، والحيوان وطبقات الأرض ، من مؤلفات ابن رشد وابن سينا ، وابن باجة ، وابن مسلمة المجريطي وغيرهم .

ننتقل الآن الى أثرٍ آخر من آثار العرب في الآداب الإسبانية ، وعلى وجه التحديد في رائعة سيرفانتيس : « دون كيشوت » ، فلقد بيّن المؤرخون الإسبان ، ومنهم الأساتذة : « سانتشيس ألبرنص —

« Juon Vernet — خوان فيرنية » و « Sonchez Albonos » ،
و « إيبانيشا — Ibanez » ، أن إسبانيا ، وحتى أوروبا ، لم تعرفا الفروسية وآدابها المرعيّة ، ونخوتها الحماسية قبل وفود العرب الى الاندلس ، وانتشار فرسانهم وشعرائهم في أرجائها ، فلقد أرسلوا قصائد الحب العذري الملتهب ، ونزعة تقديس المحبوبة على نحوٍ لم يكن معروفاً في غزل الشعراء الغربيين . هذا التأثير نلحظه في أعمال كبار كتاب القرون الوسطى ، ولا سيما في رائعة سيرفانتيس التي نُشرت في القرن السادس عشر لأن فيها نفساً عربياً ملحوظاً بأسلوبها الملحمي ، ونخوة بطلها الحماسية ، دون كيشوت ، في جولاته في مقاطعة : « لامانشا — La. Mancha » اليابسة العابسة ، ممثلاً أعظم أدوار الشهامة والفروسية ، المطعّمة بكثيرٍ من الفلسفة الشعبية ، والفكاهة . كما يظهر هذا الأثر في مشاعر حبّه العفّ للسيدة النبيلة : « دوليثنيادل توبوسو—Dulcinea Del Tobosa ،ربّةِ الحسن والكمال، وأميرة أحلامه ، والمحرّكِ الوحيد له في مغامراته ، بُغية إرضائها ، والظفر بها . أما كتاب « ألفِ ليلة وليلة » فقد تُرجم الى اللغة الإسبانية القديمة « القشتالية » في القرن السادس عشر ، وبدا أثره واضحاً في مسرحيةٍ إسبانيةٍ كلاسيكية للكاتب الكبير : « كالديرون دي لاباركا — Calderon De la Barca » عنوانها: « الحياةُ حلم » ، وذلك لأنه استوحى موضوعها من حكاية « النائم الذي صحا » من حكايات « ألف ليلة وليلة » .

وما دمنا نتحدث عن البصمات العربية في التراث الاسباني الأدبي ينبغي ألا نُغفل أثر المتصوفة الأندلسيين العرب ، أمثال الشيخ محي

الدين ابن العربي في كتب التصوف المسيحي إذ ظهر في إسبانيا أعلامٌ من المتصوفة نَحَوْا نَحْوَ ابن العربي في فلسفة الزهد ، وتكريس النفس للعبادة ، والتغني بأنوار الله ، ومن أشهرهم نذكر : « رايموندو لول — Raimundo Lull » ، والقديسة : « تيريزا دي آفيلا — — Santa Teresa DeA Vila » . وليس هذا بمستغرب لأن رجال الدين المسيحي في إسبانيا اطلعوا على العلوم الروحية عند العرب ، وكتب التصوّف الإسلامي ، واتصل بعضهم بالمتصوّفين العرب ، وحضروا دروسهم ، وتأثروا بهم . ولا بدّ من الإشارة الى أن أشواقَ الروح الإنسانية ونزعاتها الى الأسمى ليست محصورةً بأمةٍ دون غيرها من الأمم ، وكما أن الصوفية العربية مازجت صوفية الهند القديمة ، ثم أضافت اليها بعض الأفكار فان الصوفية المسيحية أخذت من الفلسفة الصوفية الإسلامية بعض معالمها لاستخراج الأسرار الخفيّة ، والمعاني الروحية من طوايا الكلمات الواردة في الكتب المقدسة . وإني أستشهد ، في هذا المعرض، برأي العام المؤرخ: «آسين بالاثيوس –Asin Polo-cios» الذي قال بأنه كان للشيخ محي الدين بن العربي ، ابن مدينة « مرسية — Murcia » أثر كبير في أفكار النساك والمتصوفين الإسبان الذين ظهروا بعده وذلك لأنه قضى سنوات عديدة من حياته في إشبيلية ، في أواخر القرن الثاني عشر ميلادي ، وآمن بوحدة الوجود ، ودعا الى توحيد الأديان مما حببه الى العلماء المسيحيين الروحيين في عصره ، وبعد وفاته . كما أكد المؤرخون الإسبان أن العالم المتصوف الإسباني الشهير : « رايموندولول » الذي عاش بعد ابن العربي بقرن واحد ، كان يعرف اللغة العربية ، وكان مطلعاً على مؤلفات ابن العربي ، ومعجباً بها ، فاقتبس منها أفكاراً ، ولا سيما من كتابيه « العجائب » و « الفتوحات المكية » . وحتى من كتابه : « أسماء الله الحسنى » .

إن الحديث عن الآثار العربية في الآداب والفنون الاسبانية يسوقنا الى التعرف الى بصماتها في ميادين أخرى ، أترك الكلام عنها وتوضيحها الى الدكتور الأستاذ « خوان فيرنيه » حيث قال في كتابه القيم : « بم تدين الثقافة لعرب اسبانيا ، « ما يلي : (إن من جملة الخدمات التي أداها العرب للثقافة الإنسانية هو نقل خبراتهم في أمور الملاحة البحرية ، وهندسة السفن وصنعها ، ووضع الخرائط الجغرافية والمائية مما جعلهم سباقين وماهرين في معرفة أحوال الطقس وتقلباته . لقد أدخلوا هذه العلوم الى الاندلس في زمنٍ مبكر ، فإليهم يرجع الفضل في عبور المحيط الأطلسي بعد ذلك بعدة قرون . ولا ريب في أنهم قد استفادوا من تقدم الفينيقيين الذين جاوروهم قديماً في سواحل البحر الأبيض المتوسط ، ولكن فضلهم لا ينكر لما طوروه ، وبرعوا به في بناء الأساطيل التجارية والحربية ، وتسييرها في مياه الخليج ، وفي البحر فأضحوا أسياده إبان حكمهم للأندلس . ثم أدخلوا الى الأندلس صناعة الورق في القرن الحادي عشر م . وهذا ما ساعد كثيراً في نقل التراث الى الغرب ، ونشر الذخائر الفكرية النفسية فيه (١)) .

إن آخر ما سأحدثكم عنه هذا المساء هو الأثر العربي الواضح في الشعر الإسباني المعاصر ، وعلى وجه التحديد في شعر أبناء الاندلس ، فأذكر منهم شاعراً كبيراً هو: «خواكين روميرو —Jooquin Romero» المولود بالقرب من إشبيلية ، وصاحب ديوان عنوانه : « قصائد النسيان — Poemas Del Olvido » وديوان آخر عنوانه : « الأندلس — AL–Andolus» اللذين تغنى فيهما بأرضه ،وتراثه،وتاريخ إشبيلية المجيد،

---

(١) بم تدين الثقافة لعرب إسبانيا – الدون خوان فيرنيه – دار سندباد للنشر – باريس١٩٨٥ ص : ٢٤٧ .

وملكها الشاعر المعتمد بن عباد . كما نكتشف في ديوان للشاعر القرطبي المشهور : « ريكاردو مولينا — Rieordo Molina » عنوانه : « مرثاة مدينة الزهراء » المنشور سنة ١٩٥٧ ، الأثر العربي في المبنى وفي المعاني وفي أسلوب التعبير ذلك لأنه وقف على أطلال « الزهراء » باكياً عصرها الذهبي ، راثياً الخليفة العظيم عبد الرحمن الثالث الذي بناها في القرن العاشر م . وسماها باسم حبيبته : « الزهراء » . لقد تخيل « بيدرو مولينا » أمجاد الماضي واستعرضها في قصائده ، وأطنب بعبقرية الذين صنعوها ، يتملكه شعور حزين تستشفه من عباراته الناضحة بالحنين الى زمان ذلك الحب الضائع . إن وقفة هذا الشاعر الأندلسي المعاصر على الأطلال ، واستحضاره الماضي العريق لتذكرنا بشعراء الاندلس في عصرها العربي الذهبي أمثال ابن زيدون ، شاعر قرطبة ، وابن عمار ، شاعر اشبيلية ، وابن الوراج ، شاعر سرقسطة ، وابن زمرك شاعر غرناطة ، وأبي البقاء الرندي ، شاعر رندة — Ronda » وصاحب مرثية الأندلس الرائعة . ولا بد من ذكر شاعر آخر إسباني معاصر ، مولود في طليطلة سنة ١٩٣٤ هو : « خوان بينيتو دي لوكاس — Juan Benito DE Lucas » الذي زار سورية ، وأقام في دمشق بضعة أشهر ، قبل ربع قرن تقريباً ، إذ أحس بنداء الشرق العربي قبل أن يزوره ، وهو مؤمن بانتمائه العاطفي اليه . إننا نتلمس من قصائده اعتزازه بجذوره العربية ، وبمعطيات الشرق العربي الخيرة للعلم والأدب والفن . أما شاعر اسبانيا الكبير في الوقت الحاضر ، ورئيس جمعية الصداقة العربية الإسبانية بمدريد ، الكاتب والمسرحي والشاعر المبدع « أنطونيو غالا — Antonio Gala » فهو أندلسي المولد ، وعربي المشاعر ، كثيراً ما يعبر عن انتمائه الروحي الى العرب ، والدماشقة خاصة

في مؤلفاته ، وخطبه وأحاديثه ، وآرائه ، وهو أيضاً قد زار سورية قبل خمس سنوات ، ملبياً دعوة حكومتها ، وصرح أكثر من مرة بسعادته فيها ، وحنينه الى بناة مجدها ، ومجد الاندلس ، الذين يعتبرهم أجداده ! وما زلت أذكر محاضرة قيمة ألقاها بدمشق سنة ١٩٦٨ الكاتب البحاثة المستعرب ، الأستاذ « بيدرو مارتينيث مونتافيث Pedro Martinez Montovez » كان موضوعها: « الأثر العربي في الشعر الإسباني المعاصر ، فاستهلها بهذه العبارات :

(ما زال الشاعر الإسباني الأندلسي يمتلك كل ما هو عربي وشرقي ويتحسس به ، في يومنا الحاضر ، لأنه يجده في البيت الذي يسكنه ، والكتب التي يقرؤها ، والموسيقى التي يسمعها ويطرب لها ، والآثار التي يعجب بها ، فهو يستلهم من هذه المعارف والمشاهد أشعاره ، وأفكاره ، ويتأثر بذلك الماضي المشترك العريق ، ويحن اليه) .

وتتمة لهذه الجولة في الشعر الإسباني المعاصر لابد من ذكر الشاعر الكبير ، إبن إشبيلية : « مانويل ماتشادو — ManuelMachado » الذي يعتبر من أعظم شعراء إسبانيا في القرن العشرين ، وأرقهم أسلوباً ، وأعذبهم جَرْساً ، فلقد تغنى في بعض قصائده بأصالة الأندلس العربية ، وناجى في إحداها مدنها الكبيرة بايجاز بليغ فعزا الى « قرطبة » الصمت الناطق ، والى « قادش » الأنوار المتألقة ، والى « غرناطة » المياه الجوفية الباكية ، والى « ملقة » الطرب ، والى « جيان » الاشعاع الفضي ، وأما اشبيلية ، ذات السمات الرومانية والعربية الخالدة ، فلم يصفها بأي نعت آخر لأنها إشبيلية ، الغنية عن التعريف والوصف ، ولأنه ابنها البار !

وهكذا نرى أن العرب حملوا الى العالم مشاعل العلوم والفنون ، إنطلاقاً من الاندلس ، وأن المدجنين والموريسكيين الذين اندمجوا بالمجتمع الإسباني ، بعد نزوح العرب ، قد حافظوا على الفنون التي توارثوها ، جيلاً إثر جيل . واستكمالاً للحديث لابدّ لنا من التنويه بأهمية اللغة التي تولدت وذاعت بينهم ، في غياب العرب ، المعروفة باسم : « الأعجمية — Aljamiada » ، فقد كانت ظاهرةً فريدةً من نوعها في تاريخ الحضارات القديمة ، وعاشت حوالي قرنين من الزمان ، قبل انصهار أولئك المدجنين والموريسكيين النهائي بالبوتقة الإسبانية . كانوا يكتبون مفرداتها العربية بأحرف لاتينية في مؤلفاتهم ورسائلهم ، وقد وضع بعض رجال الدين الموريسكيين كتباً قيمة بها ، ونقلوا اليها أفكار المذهب الشاذلي التي مازالت مقدسة في صوفية الإخوة الكرمليين . « والأعجمية » ، في يومنا الحاضر ، أصبحت موضع دراسات في الجامعات الاسبانية ، انتقاها بعض الطلاب موضوعاً لأطروحاتهم ، حسبما جاء في كتاب الدكتور خوان فيرنيه ، وهو الذي لخص الغزو العربي لإسبانيا بهذه العبارات :

(كان الغزو العربي لإسبانيا غزواً ثقافياً وفنياً مذهلاً بسرعته واتساعه ، وما زال موضع اهتمام المؤرخين إذ لم يسبق له مثيل في التاريخ) . أما الكاتب الروائي « واشنطن إيرفينغ » ، مؤلف « حكايات الحمراء » فإليكم رأيه في ذلك الغزو حيث كتب يقول :

(لقد تجلّت عبقرية العرب في اجتياح مضيق جبل طارق ، والوصول الى ما بعد جبال البيرنيه بسرعةٍ فائقة ، تماثل في انتصاراتها المتلاحقة ، انتصارات الفتوحات الإسلامية لسورية ومصر ، ولا مثيل لبطولاتهم ،

في رأيي ، سوى تسامحهم لأنهم استطاعوا تأسيس ملك عظيم في الأندلس ، ترسخت دعائمه خلال عدة قرون ، بفضل ذلك التسامح ، إبان وجودهم ، حيث بذلوا خلاصة إبداعهم للإسهام في ترقية الانسان(١)) .

وفي الختام أود أن أقتبس من فيلسوف الفريكة، أمين الريحاني ، صرخةً عربية حرّةً ، وردت في كتابه : « المغرب الأقصى » عن زيارته للأندلس سنة ١٩١٦ ، صرخةً تلاقي الصدى في نفوسنا جميعاً ، على ما أحسب ، جاء فيها ما يلي . :

(عربُ الأندلس ، عربُ الشام ، عربُ العراق ، عربُ الهند ، أيعرف بعضهم بعضاً اليوم إذا اجتمعوا في نجد مثلاً أو في الحجاز ؟ أليس للعرب من الفكر نيرّاً إلا إذا احتك بأفكارٍ بعيدة ، غريبة ؟ أولا يثمر النبوغ العربي إلا إذا لقح بنبوغٍ أجنبي(١)) ؟

ثم وصف الريحاني مبيته في بيتٍ عتيق من بيوت إشبيلية العربية ، فتخيل ابن رشد مقبلاً عليه في حلكة الليل ، وقد شع في الغرفة الصغيرة نور ساطع ، ثم تخيل حواراً ممتعاً جرى بينه وبين ابن رشد ،أقتطف منه ما يلي . قال ابن رشد :

— السلام عليكم

فأجابه الريحاني مذهولاً :

---

(١) حكايات الحمراء — واشنطن إيرفينغ — دار إيفرست الطبعة الثالثة ١٩٧٧ — ص : ٣٦ .

– وعليكم السلام ، ورحمة الله وبركاته ، لقد غمرتني والله ، وغمرت العالم بفضلك .

فرد عليه ابن رشد ، وهو يهز رأسه ، كمن تؤلمه الذكرى :

– الفضل لذويه ، أرباب الفكر والرؤيا ، ولست منهم .....

أجاب الريحاني محتجاً :

– ولكن زيتك يا سيدي لم يزل مشتعلاً في مصابيحهم !

فقال ابن رشد :

– نعم ، في مصابيح الفرنجة ، لا في مصابيح العرب ، والسبب في ذلك هو أن كثيراً من الماء قد امتزج بزيتنا ولم نحسن تصفيته ، مثلما فعل الفرنجة) !

سيداتي وسادتي ، أكرر الشكر لجمعية أصدقاء دمشق الموقرة ، ولكم جميعاً الذين شرفتموني بحضوركم هذا المساء ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

دمشق ١٩٨٩/٥/١٦

حبٌّ وحربٌ وهجرة

محاضرة للندوة الثقافية النسائية بدمشق في
٢٣ / ١ / ١٩٨٩

الحب أكبر نعمة يسبغها اللهُ ، عزّ وجلّ ، على عباده ، وأجملُ عاطفةٍ يهبُها لهم من صميمِ ذاته ، لأن الله خلق الناس ليتعارفوا ، ويتعاونوا ، ويتحابوا ، فاذا ما زالت مشاعر الحب بينهم ضاعت خيراته وبركاته ، فقست قلوبُهم وتحجرت ، وحسبوا أن الغاية من عبورهم جسر الحياة حب الذات ، وحب المادة .

الحب في الوجود هو بمثابة أجنحة خفية يهبها الخالق للمحبين لكي يحلقوا بها ، ويتقربوا من رحاب المللكوت بفضلها . والحب ، في رأي العالم الفقيه ابنِ حزمٍ ، كما ورد في رائعته : « طوق الحمامة » نفحة علوية دقت معانيها ، لجلالتها ، عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة . وليس بمنكر في الديانة ، ولا بمحظور في الشريعة ، إذ القلوب بيد الله ، عز وجل) .

حديثي اليكم هذا المساء تصوير لمشاعر وأحداث من صميم الواقعِ ، عشتها في غمرة حرب لبنان المفجعة ، أقلها حلو ، وأكثرها مر ،

ولكن الحب الذي عصف بكياني ، أثناءها ، كان المنقذ من الوقوع في لجة اليأس . وأنا لا أغالي إذ أقول : إن الحب الكبير الذي نعمت به ، إذ ذاك ، مدني بالقوة ، زودني بالأمل والايمان ، وأعانني على احتمال الشدائد ، ومقارعة الصروف .

إنكم تعلمون مثلي أن الحب سيد مطلق ، يعزو قلوبنا دون تفريق بين شاب و كهل وشيخ ، إن له في العشرين من العمر خصائص ومزايا ، تضفي على ألق الشباب بهاءً وسحراً ، كما أن له ، بعد الخمسين من العمر ، خصائص وسمات تعيد للمحب نُضرة شباب ولى ، وتنعش فيه قلباً أتعبته النوائب ، وروحاً ، قلما تشيخ ، متعطشة دائماً وأبداً ، لنفحاته الزكية ، وروحه وريحانه . أو ليست ورود الخريف أصلب عوداً وأبهى جمالاً ، وأطول عمراً من ورود الربيع ؟

لقد سئل شاعرنا الكبير ، بدوي الجبل ، طيب الله ثراه ، عن الخمسين فأنشد هذه الأبيات :

أتسألين عـــن الخمسين ما فعلـت ؟
يبـلى الشبـاب ولا تبـلى سجـاياه

فـي القلب كنـز شباب لا نفـاد له
يعطـي ويـزداد ، ما ازدادت عطـاياه

فمـا انقضي واحد من زهـو صبوتـه
الا تفجـر أنـسف في حنـايـاه ،

يبـقى الشبـاب نديـاً فـي شمائلـه
فلم يشـب قلبـه إن شـاب فوداه

لا أريد التطرق لانهزام الحب في عصرنا الحديث أمام المادية البغيضة ، والفردية الخطيرة ، اللتين طغتا على العديد من المجتمعات ، فالمجتمعات العصرية التي نسميها خطأ متحضرة » أجرمت بحق الحب ، بل دنست قدسيته عندما أطلقت اسمه النبيل على العلاقات المادية والمنحرفة بين الرجل والمرأة ، أو بين أبناء الجنس الواحد . فلو أطل الحب يوماً على ما وصلت اليه الأمور في حاضرنا ، من تشويه لصورته الجميلة وتزييف لاسمه ، وتيه وضياع ، لأشاح بوجهه عنا ،ورحل إلى عليائه مشفقاً على ما ينتظرنا من مصير مرعب . ولكننا نحمد الله على أنه ما زال يوجد في عالمنا ، أناس يحبون بصدق ، ذوو قلوب عامرة بأسمى المشاعر وأنبلها . أناس يدركون أن هجرة الحب من العالم هي هجرة الخير والبركة ، والجمال والعطاء ، والأمل والرحمة ، بل هي هجرة السعادة الحقة ، والنذير بطغيان الحقد والظلم والإجرام ، وبانحسار النور ، وانهيار القيم ، وبالتالي بانهيار الأعصاب . ولو كان الناس ، كلُّ الناس ، يُحبون بعضهم بعضاً ، ويحبون الانسانية والله والحياة ، لتغير وجه التاريخ ، وتعطلت مصانع الأسلحة ، وأخمدت الفتن والحروب .

أما الحرب التي عانيت منها الكثير ، في أثناء وجودي في لبنان ، وحتى في غيابي عنه ، فانها حرب طاحنة مروعة ، آلمت كل عربي مخلص ، محب لوطنه الكبير ، كما أحزنت الأغراب ، ذوي الضمائر الحيّة ، الذين عرفوا لبنان ، وأعجبوا بجمال تكوينه ، وأريحية أبنائه .

لقد شتت حربه أسراً برمتها ، ودمرت بلداً رائعاً كان الملجأ للعرب كافةً ، والملاذ لهم . إن لبنان هو الأخ الأثير لسورية ، تربُطها به صلات مكينة منذ أقدم العصور . كما أن فيه ، لكل عائلة سورية

تقريباً ، فرعاً أو أصلاً ، أولاداً ينهلون العلم من معاهده ، أو مصالح مشتركة قومية واجتماعية واقتصادية ، فكيف لا نتوجع وكيف لا نئن ونحزن ، ولبنان الحبيب يتمزق منذ أربعة عشر عاماً ؟ ؟

الحروب ، أيها الأصدقاء ، تفرق بين المحبين ، والفراق يؤجج مشاعرهم ، ويلهب أشواقهم ، والحروب تزيد في تعلق الناس بأرضهم وبيوتهم وأشيائهم كما أنها تطيح بالمبادىء الإنسانية والقيم الأخلاقية : ولقد ولّدت حربُ لبنان الهوجاء مآسي تقشعر لها الأبدان: قتلت نساء وشباناً وشيوخاً ، ويتمت أطفالاً ، بلا ذنوب اقترفوها أفقرت أناساً، وأثرت آخرين ، وشرّدت عائلات بأسرها ، كنا نحن في عداد الذين شتت شملهم ودفعتهم للهجرة أكثر من مرة . فالهجرة التي أعنيها هي هجرة كثيرين من الناس ، لبنانيين وغير لبنانيين ، كانوا مقيمين ببيروت ، فنزحوا عنها ، وعادوا اليها مراراً ، يحدوهم الأمل بعودة السلم إلى الربوع ، وجمع الشمل مجدداً . وسواء أكانت الهجرة من بيروت إلى دمشق ،أو إلى ديار الغرب ،فان حبي للبنان ،لأرضه وبحره وسمائه وجباله ،وحنيني لأيامي الغراءفيه مازالا يستعران في أعماق قلبي ، وما أشبههما بجرح ينزف بلا انقطاع ،يسرق النوم الهانىء من الجفون ، ويغتال الابتسام من الشفاه . ولكن ما من جرحٍ الا وله بلسم يشفيه ،فكان الحب الذي عصف بكياني ،في أثناء تلك الحرب ،هو البلسم الذي أعاد إلى نعمة الابتسام ، وشحن روحي بالآمال ، فزاد من إيماني بأن وراء الغيوم الداكنة شمساً مضيئة ، لا بد من أن تشرق ذات يوم . . .

ان الحب الذي تملكني ، في تلك الظروف العصيبة شبيهٌ بكل حبٍ كبير ، يُضحك ويبكي ، يسعد ويشقي ، ويشغل البال في أكثر

الأحيان ، فنحن بشرٌ أقوياء ضعفاء ، أدمغتنا عجيبة تأتي بما يشبه المعجزات ، وقلوبنا رقيقة تستدر من محاجرنا العبرات . ولا بد لي من أن أشير إلى أنني لم أقع في الحب ، كما يقولون ، لقد أحببت وأنا واقفةٌ على رجلي ، عيناي مفتوحتان ، قلبي متيقظ ، وذهني صافٍ ، فرضخت لسلطان الحب راضية ، وارتفعت معه إلى كوكبه الرائع حيث أشرفت على عوالم سحرية ، وجدت فيها كنوزاً لا تقدر بثمن . كلا ! أنا لم « أقع في الحب » لأن الحب ليس فخاً نقع فيه فنحطم ، ولا بئراً نسقط في غياهبها فنهلك !

جرى حوار بين جدتي لأمي ، رحمها الله ، وبيني ، قبل أربعين عاماً ، لا أنساه ، قالت لي ، وهي ترشف قهوتها ، وتدخن سيجارة :

— العشق ، ياحبيبتي ، قدر ، مافي ذلك شك ، وأنا قدر لي أن أعشق في حياتي ، ولكن الله لطف بي إذ جعلني أعشقك أنت ، أولى أحفادي ، منذ ولادتك . والعشق يابنيَّتي كلمة مفزعة في قاموس مجتمعنا العربي ، إنه مسموح للرجال ، ممنوع على النساء ، وإذا ما أحبت فتاة رجلاً في حياتها كانت الفضيحة الكبرى ، لوث العار سمعتها ، وسمعة أسرتها ، وأضحى قتلها حلالاً ! فاللهُ أسأل أن يُنجيك من شرّ العشق . . .

ثم دارت الأيام والأعوام ، فعشقت حفيدة لي ولدت قبل بداية حرب لبنان بسنة . أطلت على حياتي فجمّلتها ، وهمت بها ولازمتها ونعمت بروعة طفولتها أكثر مما نعمت بطفولة أولادي . أصبحت شغلي الشاغل ، ومدار اهتمامي ، وبادلتني حباً بحب منذ أشهر حياتها الأولى ، فالأطفال يدركون بفطرتهم مشاعر الآخرين نحوهم ،

ويحبون بعمق وإن كانوا عاجزين عن التعبير عن عواطفهم بالكلام ، ولكن متى كان الكلام أبلغ تعبيراً عن الحب من النظرات الحنون ، والابتسامات العذبة ، والعناق والقبلات ؟ يكفي أنها لفظت كلمة « تيتا » في الوقت ذاته الذي نطقت فيه كلمتي : ماما و بابا . يكفي أنها كانت تتهلل فرحاً حين تراني ، تركض لتتسلق كتفي فأعانقها وأشتم رائحة زكية من عبيرها . إن الأطفال رائحة منعشة سماوية ، في سنتهم الأولى ، لا يشبهها شيء في الوجود ، ولا بد من أن تكون نفحة من عبير الجنة الموعودة !

استقبلت حبيبتي عامها الثاني ، بعد اندلاع الحرب اللعينة بثلاثة أشهر ، وأطلقت على نفسها إسم « تيمة » منذ أن بدأت تتكلّم ، وتميز الأشياء ، وتعرب عن ذوقها الشخصي . كان لشخصيتها الصغيرة حضور قوي ، وقد منحها الله جمالاً أخاذاً يجمع بين زرقة العينين ، وسواد الأهداب والشعر ، ووضاءة البشرة وسحر الابتسام . كنت أضحك للدنيا عبر ضحكاتها الرنانة ، أشاركها في ألعابها ، أقص عليها حكايات تثير اهتمامها . وتشحذ خيالها ، فتنبعث في كياني صور طفولتي البعيدة الملتحمة بضلوعي حتى آخر الزمن . . .

قضينا سنة الحرب الأولى ، والأشهر الثلاثة من عام ١٩٧٦ في بيروت ، والشمل مجتمع ، ولكن في حال من القلق لا نغبط عليها . كنا نخرج من بيوتنا في النهار بحذر شديد ونمكث فيها برعب شديد ، كيف لا ؟ والحرب مشتعلة . والرصاص يدوي في أي وقت ومكان ، والقذائف تنهال على الأحياء السكنية ، فلا يسلم منها الا كل ذي عمر طويل ! دعي صهرنا ، والد تيمة بالسفر الى الرياض للعمل فيها ،

فشجعناه على الارتحال . حرصاً منا على نجاته وزوجه والطفلة الحبيبة من الأخطار . لقد حبذنا بعدهم عنا . حباً بهم . لأن من يحب فعلاً يرضى بالحرمان من رؤية حبيبه . عندما يكون بعده عنه ، ضمانةً لسلامته . سافر المهندس الشاب وحده . ريثما يؤمن لزوجه وابنته داراً للسكن ، وأقامت تيمة مع أمّها زهاء شهرين في بيتنا الذي كان يقع في « الرملة البيضاء » . باتت المسؤولية كبيرة ، وأضحى الخوف عليهما أكبر لأن حينا تعرض لحوادث عنف متتالية : من قتل وخطف وسرقات . كنت أدعو الله الا تطول إقامتهما معنا . أحمده إذا ما انتهى النهار بسلام . وأكرر له الحمد إذا ما انتهى الليل بأمان . لقد افتقدنا لذة العيش . والنوم الهادىء . والأمان . بلا ريب . كالصحة تماماً ، نعمة جلى لا يقدرها الا الذين يفقدونها . أما تيمة فقد كانت لاهيةً عما يحيق بنا من أخطار ، ترتدي مع بزوغ كل شمسٍ حلةً جديدةً من الجمال والذكاء ، تضحك وتلهو ، رافلةً في نعيم طفولتها العذبة . وأخيراً تقرر يوم سفرها مع أمها الى الرياض . كان موعد الطائرة التي ستقلهما اليها في الساعة السادسة مساءً ،توجهنا معهما الى المطار في الرابعة ، والطريق شبه مقفرة ، تعترضها حواجز للتفتيش والتدقيق بالهويات . توقفنا عند كل حاجز نجيب على أسئلة المسلحين ، من مختلف الأحزاب والفئات المتناحرة ، وما زلت أذكر جيداً أن أحدهم فاجأني بالترحيب . بعد رؤية هويتي ، وقال بوجه باشٍ :

— ألست أنت صاحبة برنامج « آفاق عام ألفين » الذي شاهدناه في التلفزيون ، قبل الحرب ؟

أجبت :

– نعم . . . . . .

فقال : (تفضلوا ، مع السلامة) .

بلغنا المطار بسهولة ، سلمت إبنتي حقائبها لشركة الخطوط الجوية السعودية ، ثم قالت لي مضطربة :

-- نسيت يا أمي حقيبةً صغيرة في غرفة النوم ، توجد فيها أوراق لزوجي ومجوهراتي !

اضطربت بنوري ، ولكن قوة عجيبة دفعتني لمعالجة الأمر بهدوء . سألنا عن موعد إقلاع الطائرة فوجدنا أن الوقت يسمح لي بالرجوع الى البيت لإحضار الحقيبة المنسية . تركت زوجي معها ومع الطفلة ، وأسرعت بالعودة الى البيت . كنت أخفف السرعة أمام الحواجز ، وأطلق العنان للسيارة ، بعد اجتيازها . توقفت أمام البناية صعدت الى الطابق الخامس . تناولت الحقيبة ، ولم أضعها في الصندوق ، خشية التفتيش ، بل وضعتها على المقعد المجاور لي ، وغطيتها بسترة صوفية . عندئذ فقط تملكني الرعب ، إذ أصبحت الطرقات مظلمة ، مقفرة ، وكان في وسع أي مسلح أن يوقفني ، إما لسرقة السيارة ، وإما الإعتداء علي ، فمثل هذه الحوادث كان يقع باستمرار . توكلت على الله ، وقطعت المسافة التي بيني وبين المطار بأقل من ربع ساعة . بلغته ، قبل توجه المسافرين الى الطائرة بلحظات ، فسلمت الأمانة لإبنتي ، ضممتها والحبيبة الى صدري ، ثم أقفلت عائدة الى البيت مع زوجي ، وقد خيم علينا الصمت والوجوم، مثلما كانا مخيمين على المدينة بأسرها .

انقضت الأيام ببطء كبير . بعد غياب الطفلة الحبيبة وأمها ، وأضحى بيتنا حزيناً ، لا أثر للبهجة فيه ، أما الوضع الأمني فقد ازداد

تردياً وخطورة : انفجارات وحرائق وضحايا في بيروت وضواحيها حتى أن سيارات الإسعاف لم تنج من القذائف . كان صفيرها ، يشق عنان السماء ، ليل نهار . ويلقي الذعر في النفوس ، وأضحت الصحف اليومية كلها نعوات . ومقالات يائسة ، يحاول كتابها تحليل الأوضاع السياسية والأمنية المعقدة ، ولا يجدون لها حلا !

وذات صباح تناهى الى سمعي صوت غريب ضمن البيت في حوار مع زوجي . توجهت الى المدخل فرأيت أمامي شاباً طويل القامة ، أشعث الشعر ، بديناً ، دون العشرين من العمر . في يده كرة عجيبة ، ومن حزامه يتدلى مسدس صغير . قال لي زوجي ، مشيراً الى مطبوعات في يده :

– أتى هذا الشاب ليبيعنا أعداداً من الجرائد والمنشورات .

فهمت في الحال أنها صحف ناطقة باسم إحدى المنظمات السياسية ، ومن تلك المطبوعات التي جرى على توزيعها في بيروت شباب صغار ينتمون اليها . ولا أخفي أنني ارتعشت لرؤية ذلك الشاب ضمن الدار . واستغربت كيف وصل اليها وباب البناء التي نسكن في أحد طوابقه مقفل دائماً ، يحرسه رجل موثوق ... مع ذلك جمعت شجاعتي ودعوته للدخول إلى غرفة الجلوس ، فاسترعت انتباهه المكتبة . تأمل فيها ثم قال :

– إن هذه الكتب الكثيرة غالية الثمن ، فماذا تفعلون بها ؟

أجبت بهدوء مصطنع :

– نقرؤها . ونعير بعضها لمن يرغب في الانتفاع بها . وأنت يا بني هل أنهيت دراستك ؟

قال

ـ أنا أقرأ وأكتب قليلاً . تركت المدرسة قبل سنتين . ثم التحقت بالمنظمة الشعبية للدفاع عن أهلي وعن قضيتي .

فسألته :

ـ وماذا تحمل في يدك ؟

أجاب بكل برودة :

ـ قنبلة ألقيها على السيارات المشبوهة التي لاتتوقف أمام حواجزنا ! إن في جيوبي قنابل أخرى مثلها .....

فقلت له ، وأوصالي ترتعد :

ـ احذر على نفسك يا بني ، وقل لي كيف أستطيع آن أساعدك ؟ إن لي إبناً شاباً مثلك ، فهل تريد ثياباً ؟ سأصنع القهوة في الحال ،تفضل بالجلوس .

قدمت له القهوة ، وقطعة حلوى ، وأعطيته مبلغاً من المال ، ثم رافقناه حتى باب البناية حيث أوصينا البواب بشراء الصحف منه يومياً . وبعد ذهابه علمنا من البواب ان الشاب تسلل الى داخل البناء في غفلة عنه ... ومنذ ذلك اليوم بتنا ننام برعب ، ونصحو برعب لأن في إمكان أي مسلح ببيروت أن يقتحم بيوت الناس ، ومنها بيتنا ، ويقتلنا إذا شاء ! كيف لا ؟ ونحن عاجزان عن الدفاع عن أنفسنا ، لا يوجد سلاح في حوزتنا ، ولا توجد لدينا قوة عضلات .

انحصر تجولنا ضمن الحي الذي نسكن فيه مدة طويلة ، كنا نخرج من البيت بحذر لابتياع ما يلزم من حاجات ضرورية ، في ساعات النهار الأولى فقط . أما الليالي فكنا نقضيها فيه نتابع الأخبار على الشاشة الصغيرة ، اذا لم ينقطع التيار الكهربائي .

في تلك الحقبة بالذات رأيت مشهداً وأنا أسير بجوار المنزل ، أذهلني وأقلقني : رأيت أربعة صبية تتراوح أعمارهم بين السنة السادسة والعاشرة ، يمارسون لعبة الحرب التي أضحت لعبة أطفال لبنان المفضلة : سلاحهم عصي يحملونها ، وتسليتهم الانقسام الى فريقين متحاربين ، الحاذق منهما هو الذي يفاجىء الآخر بالهجوم . تمهلت في السير ، وسمعت الحوار التالي بين اثنين منهما ، وفي إهاب كل واحد رجل يتوثب لخوض المعركة . .. قال الأول :

– هل رأيت التلفزيون البارحة ؟ كانت مناظر المعركة في الجبل عظيمة !

أجابه الثاني ، الذي بدا أصغر منه سناً :

– رأيتها يا وليد ، وسمعت الأخبار مع أبي ، وسألته عن أسباب الحرب فأجاب بأنه سيشرحها لي في وقت آخر . هل تعرف أنت ما هي هذه الحرب ؟

فرد عليه وليد :

– طبعاً أنا أعرف ! إنها قتال بين الأحزاب السياسية . والحزب البطل هو الذي يغلب الآخر !

فقال له الصغير متحمساً :

– لكن أخي الكبير أعلمني أن الحرب هي لقتل الأعداء ، فهل المتحاربون عندنا كلهم أعداء ؟

أجابه وليد ، منتحلاً شخصية الخبير بالأمور :

– لا يوجد في الحرب ، صديق ولا عدو ، فاذا هاجمنا أولاد الحارة المجاورة ، يكونون أعداءنا ، وواجبنا أن نحاربهم لصد الهجوم ، ومن يغلب يكون البطل . أفهمت ؟

لكم أحزنني ما سمعت ! عدت الى البيت مكتئبة لأن هؤلاء الأطفال الذين نشؤوا في دوامة الحرب هم في طليعة ضحاياها الأبرياء . لقد شوهت الحرب أحلامهم ، اغتالت صفاءهم ، شوشت أفكارهم ، نمت الحقد في نفوسهم ، وأيقظت الحيوان الشرير ، الكامن في غرائزهم . رحم الله شاعرنا الكبير بدوي الجبل الذى عبر عن مأساة الأطفال في الحروب بهذا الدعاء :

يا ربُّ ، من أجلِ الطفولــةِ وَحْدَهــــا
أَفِضْ بركاتِ السِّلْمِ شَرْقاً ومغربــا

وَصُنْ ضِحْكَةَ الأطفــالِ ، يــاربُّ ، إنها
إذا غرَّدَتْ ، في ظامِىءِ الرَمْلِ ، أَعْشَبا !

ويا ربُّ جَنِّبْ كلَّ طفــلٍ فلا يــــرى ،
وإن لَجَّ في الإعناتِ ، وجهاً مُقطّبا ،

وَهَيِّء له ، في كلِّ قلبٍ ، صبابــــةً ،
وفي كــل لُقْيا ، مَرْحبــاً ثم مَرْحبــا !

في صيف تلك السنة اشتد الحر في لبنان واشتد معه القتال في عدة جبهات ، فنزحنا الى بلودان حيث قدم لنا « أبو خالد » وزوجه بيتهما الصغير للإقامة فيه . إن لأبي خالد وأسرته أفضالاً علينا لاتنسى ، عرفناهم ، قبل سنوات خلت ، يوم كانوا يرعون حديقة بيتٍ قديم ، كنا نصطاف فيه ببلودان . أحببناهم وأحبونا ، قدرنا وفاءهم ، وعمرونا بعطفهم وكرمهم في أيام المحنة . وفي شهر آب من ذلك الصيف أتت تيمة مع والديها لزيارتنا ، وكذلك أتى جداها لأبيها الى الفندق ، فقد نزحا عن بيروت هرباً من جحيمها المستعر . وهنالك تعلمت حبيبتي حب القطط ، وحب الأرض ، وحب الأزهار في حديقة أم خالد ، وآنستنا في ظرف عصيب ، كنا نعيش فيه على أعصابنا ، نتابع الأخبار . علنا نتلمس فيها بارقة أمل ، قلما كانت تلوح في أفق الفتنة الضارية .

عندما حان موعد سفرها مع أمها ، للالتحاق بأبيها كان تعلقها بنا قد ازداد ، فقالت لها ، وقد حز في نفسها الفراق :

– لماذا سنسافر يا ماما ؟ أريد أن أبقى هنا ...

فأجابتها :

– سنسافر من أجل بابا ، لأنه وحده في الرياض ، يشتغل فيها من أجلنا ، ألا تحبينه ؟

فأجابت ، والاكتئاب بادٍ على وجهها :

– طبعاً أحبه ، ولكني أحب تيتا وجدو « كمان » فلماذا لا يأتيان معنا ؟

تدخلت في الحديث ، وقلت لها :

— نحن سنزوركم في الرياض قريباً ، وأنت ستذهبين الى المدرسة ، وتتعرفين على رفيقات ، وتتعلمين أشياء كثيرة لأنك صرت كبيرة يا تيمة ! فسكتت حبيبتي على مضض ، ولحظنا بعد ذلك أن شهيتها للطعام قد خمدت . وأن أفكارها قد تشوشت . ثم فتحت الموضوع مجدداً ، عشية السفر ، فسألت أمها :

— لماذا لانرجع الى بيتنا في بيروت يا ماما ؟ أنا أحب بيروت لأن فيها البحر ، وفيها غرفتي ، وألعابي ، وتيتا وجدو ... فأجابتها :

— سنرجع اليها عندما تنتهي الحرب ، هلم نرتب ثيابك الحلوة ، ونضعها في الحقيبة ، إني أعدك بأن غيابنا في الرياض لن يطول كثيراً .

كان الوداع في مطار دمشق حزيناً ، عدنا بعده الى بلودان ، نترقب هدوء الحالة للرجوع الى بيروت . حيث الفتنة ما زالت مستشرية . وفي نهاية فصل الخريف فجعت بوفاة أمي ، وفقدت بموتها أعز إنسان في الوجود . لبست ثياب الحداد أسوة بأخواتي ، مع أنني كنت وما زلت أعترض على ارتداء الثياب السوداء التي اقتبسناها عن الفرس . فأنا أؤثر البيضاء . في حالات الحزن ، على سنة المسلمين الأوائل ، والأندلسيين من بعدهم خلال القرون الثمانية التي أقاموا فيها بالأندلس ، وذلك بدليل قول الشاعر : ابن مهيمن الحضرمي الأندلسي » في هذه الأبيات الجميلة :

لَئِنْ كَانَ البَيَاضُ لِبَاسَ حُزْنٍ
بِأَنْدَلُسٍ . فَذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ ،

أَلَمْ تَرَنـي لَبِسْـتُ ثياب شَيْبي
لأنـي قـد حـزنتُ عـلى الشباب ؟

علمت ابنتي بوفاة جدتها فأتت الى بيروت مع زوجها وتيمة لتعزيتي . نظرت الى الطفلة الحبيبة باستغراب . وشابت قسمات وجهها مسحة من الحزن . كانت أمها قد هيأتها نفسياً قبل لقائي ، ولكنها لم تكن تتوقع أن تراني دامعة العين ، مرتدية الثياب القاتمة ، دون أية زينة . لقد ساءني أن أجدها منغصة ، فخرجت معها . بعد الغداء . للسير في الشارع ، اذ كانت الحالة الأمنية هادئة . حاولت جرها للحديث عن مدرستها ، ورفيقاتها فأجابت على أسئلتي بتحفظ ، وعلى شفتيها سؤال حائر ، لحظت أنها تتردد في طرحه فقلت لها :

— أراك مرتبكةً يا تيمة . أنت صديقتي التي لا تخفي عني شيئاً ، قولي لي : بِمَ تفكرين ؟

نظرت اليّ ، وشدّت يدها على يدي ، وقالت بصوتٍ مرتعش :

— أنا (زعلانه) لأن أمك ماتت ، ماهو الموت ياتيتا ؟ ولماذا ماتت؟ لا أريد أن تموتي ، ولا أن تموت أمي ! .

فَشَدَدت على يدها بدوري ، وقد اعتصر قلبي تأسياً للقلق الذي سيطر على فكرها لدى ذكر الموت . الموت : ذلك الغول الذي يخطف الناس ، ولا يفرق بين طفل وشاب ، بين كهل وشيخ . لقد راعني اضطراب تيمة وحرت ، أمام هلعها ، من كلمة الموت ، ولغز الموت ، ثلاثة أحرف مروعة : ميم واو تاء ، وما أكثر الكلمات المروعة . المؤلفة من ثلاثة أحرف في قاموسنا : خوف . جوع . بطش ، حقد ، مرض ، جرح ، حرق ، جلد ، ظلم ، ذبح ، خطف ، الخ . . . ولا

سيما « الخطف » الذي أضحى دارجاً في تلك الأيام إما لابتزاز المال ، وإما للمساومة على تبادل الأسرى . وإما للتعذيب . والتمثيل بجثة المقتول . بعد خطفه ، لوجه الشرّ . والحقد . والانتقام ! ! ! .

أستميحكم عذراً إذا ما أثرتُ الألمَ في نفوسكم برواية ما جرى في بيروت ، ذات يوم اشتهر باسم « السبت الأسود » . في ذلك اليوم المشؤوم قتل عشرات من العمال والنساء والرجال ، وحتى بعض الأطفال على الهوية ! المسيحي كان يقتل المسلم ، والمسلم كان يقتل المسيحي دون شفقة أو رحمة ، لمجرد انتمائه إلى هذا الدين أو ذاك . لقد فقد المسلحون صوابهم وتجرّدوا من إنسانيتهم ، فارتكبوا جرائم بحق الأبرياء ، تشمئز لها النفوس . كان الشاعر القروي من المغتربين اللبنانيين في البرازيل الذين اشتد بهم الحنين إلى الوطن ، فعاد إلى قريته « البربارة » في الجبل لقضاء ماتبقّى حياته فيها . ثم اشتعلت الحرب في لبنان ، بلد التعايش السلمي المثالي بين مختلف الطوائف والمذاهب . فتألم لما حلّ به ، وعبر عن شدة التياعه لما جرى يوم السبت الأسود فكتب الأبيات التالية :

لقد اتخذنا الصليب شعاراً
ورحنا . لسفك الدماء ، نسوق جيوشا

نذبّحُ أطفالَنا كالفراخ
ونَبكي المسيحَ ، لنُضحِكَ موشى

فأضحت قرانا قبوراً ، وباتت
أسِرّتُنا الحالمات نعوشا

وتيهنــــا عــلى النــاس عجبـــاً كــأنا
دككنــــا عروشاً . وشيدنـا عروشا

فكـــم ألـــف مليونَ عـامٍ ستمضي
لكـــي نرتقـــي ونصيّر وحوشـا ! !

ومع ذلك كلّه نرى أن عزيمة الشعب اللبناني وشجاعته وحبه الحياة والعمران ، ظاهرة فريدة بين أكثر الشعوب ، حتى بعد أن دمرت الحرب جزءاً كبيراً من بيروت ، ومن معالمها الأثرية ، ومؤسساتها الحكومية كنا نشاهد أبنية حديثة تشاد في العاصمة ، إلى جانب بيوت وأبنية مهدمة ، ونسمع بمطاعم جديدة تفتح أبوابها ، وأعراس فخمة تقام في الفنادق الكبيرة في حين كانت عشرات الجنائز تسير في الشوارع يومياً !

إن لبنان هو بلد المفارقات العجيبة ، بلد أبناؤه مستعدون لرفعه من بين الأنقاض بما أوتوا من طموح للأفضل ، وحماس للحياة . لقد عشت مأساته في مختلف مراحلها ، وإني لأجزم بأن أكثرية اللبنانيين ليسوا طرفاً في هذه الحرب ، لم يريدوها ، لم يؤازروا فيها ، ولم يرضوا عنها . إنهم الأكثرية الصامته المغلوبة على أمرها ، والمستاءة مما يحاك ضدها من مؤامرات ، سواء أكانت من الداخل ، أم من إسرائيل في الخارج . كان لبنان بلداً مزدهراً في جوارها ، استضاف اللاجئين الفلسطينيين إثر نكبتهم ، فشكل عقبة في طريق توسعها ، وطغيانها ، لذا خططت ، وجندت قواها لسحقه ، اجتاحت جنوبه وزرعت العملاء فيه ، ثم احتلت بيروت سنة ١٩٨٢ ، ونحن في المنفى الذي اخترناه مكرهين ، إبان هجرتنا الثانية إلى الغرب . لقد نزحنا عن بيروت ، قبل

الاجتياح الاسرائيلي ببضعة أشهر . خوفاً من القذائف والصواريخ التي لم توفر بيتنا . وخوفاً من التعرض لشظية طائشة ، أو قنبلة تنفجر في طريقنا ، فنحترق بنارها أو نفقد عيناً ، أو رجلاً ، أو ذراعاً ، فنقضي ما تبقى من العمر معاقين ، مشوهين ، عالةً على الأهل والمجتمع . لهذا آثرنا الموت البطيء في الغربة ، على الموت البطيء في الوطن حيث أضحى الموت السريع فيه نعمة كبيرة ، لا تقدر بثمن !

أصبح لبنان في تلك الآونة مقسماً إلى أجزاء متخاصمة ، لكل جزء منه إذاعته . وصحفه ، ومؤسساته ، رحم الله جبران خليل جبران الذي قال ، قبل ستين عاماً أو ما يزيد : (ويل لأمة منقسمة إلى أجزاء ، كل جزء منها يحسب نفسه أمة) !

لقد كان كل ما يجري في لبنان غريباً ، محزناً ، ومن أغرب ما سمعناه من المسؤولين تسمية نكبته « أزمة » ، على غرار ما تعارف بعضهم على تسمية هزيمة حزيران لعام ١٩٦٧ : نكسة وهنالك في بلدة فرنسية صغيرة ، جميلة ، توعى « طونون » ، بالقرب من جنيف ، مكثنا خمسَ سنوات متقطعة ، بالقرب من أختي المقيمة فيها . أضحت « طونون » الملجأ الصيفي لأولادنا والأحفاد ، وجامعة الشمل مع أخي وأخواتي ، أما بيتنا فيها فكان يقع ضمن غابة رائعةٍ في الصيف ، وموحشةٍ للغاية في الخريف والشتاء. وقد اضطرتنا الأحداث الدامية في لبنان إلى البقاء فيه فترات طويلة كنا نعود كل سنة بعدها إلى بيروت لدى استشعار هدوء نسبي ، فلا نلبث أن نغادرها مجدداً لاحتدام القتال . وكما كانت الحرب تتأرجح بين المدّ والجزر . كذلك كانت مشاعري في الغربة وخواطري : كنت أمشي في الغابة والهواجس تتقاذفني :

ترى كيف حال إبني ، الذي ما زال مقيماً بلبنان وزوجه وأولاده ؟ الى متى ، يارب ، سيدوم هذا الاغتراب والفراق عنهم ، وعن ابنتي وأولادهما ، والأهل والأصدقاء متى ستتوقف المجازر المروعة ونشرع بتضميد الجراح ؟ أفكار وهواجس ، أسئلة دون أجوبة ، كانت تقلقني ، تؤرقني ، وتدور في رأسي مبهمة مثل المقبل من الأيام . كنت أتوقف طويلاً أمام صديقة لي ، حالها يشبه حالي في الاغتراب والشكوى الصامتة ، إنها شجرة أرز صغيرة ، وحيدة ، في حديقة مجاورة لبيتنا ، استرعى انتباهي جمالها وحزنها ، منذ أن رأيتها أول مرة ، فبت أصبحها ، وأمسيها ، كل يوم ، وشعرت بأن أواصر صداقة متينة ألّفت ما بيننا . لقد فتنت بتلك الأرزة ، ذات الأغصان المذهبة ، بل عشقتها ، وهل بداية العشق الا الافتتان ؟ أضحت موضع اهتمامي ، وملجأي الوحيد في ساعة الغروب احتمي بجذعها ، أهمس إليها بنوازعي ، وهي رابضة ، شامخة ، تصغي إلي بوحي وتهلاتي ، وتحفظ أسراري . أذكر أن أميرتي الحبيبة تيمة شاركتني الإعجاب بها عندما أقامت شهراً عندنا في الصيف ، حدثتها عن الصداقة الي انعقدت بيني وبينها فأحذت ، هي أيضاً ، تتوقف عندها ، وتحييها بلمسات رقيقة حنون ، وبنظرات الود ، كما كنت أفعل تماماً . وعندما أعلمتها بأننا سنرجع إلى بيروت في الخريف ، قالت لي تيمة مازحة :

— وكيف ياتيتا ستبتعدين عن صديقتك ، وتتركينها وحدها ؟

فابتسمت وقلت :

— ومن قال لك إنني سأنساها ؟ عندما تغيب أعيننا عن الذين نحبهم يا تيمة ، يستقرون في قلوبنا ، يستوطنونها ، فنحس بهم أكثر ، ونحبهم أكثر . . .

جرى هذا الحديث بيننا في أعقاب الاجتياح الاسرائيلي للبنان ، ومجازر صبرا وشاتيلا المروعة ، فحرمتنا الأنباء لذة اللقاء ، وصفو الأيام . كانت تيمة في مستهل التاسعة من عمرها ، فشاهدت معنا صور الجرائم والمعارك الضارية على شاشة التلفزة ، وعلّقت عليها مستنكرة ما رأت ، مضطربة لما سمعت ، وكأن حنينها الى لبنان وطنها ، وولعها ببحره ، وشوقها لذكريات طفولتها فيه ، قد استعر في قلبها الصغير . أدركت مأساته ، ومأساة اللاجئين الفلسطينيين فيه ، من خلال الأخبار المصورة التي كانت وسائل الإعلام تنقلها إلى الغرب يومياً وسألت بالحاح :

-- لماذا تغير عليهم طائرات الصهانية ؟ ما ذنب أطفالهم ؟ وأذكر أنها بكت بحرقة لشدة تأثرها عندما رأت صور إحدى الغارات الإسرائيلية على مخيمات الجنوب اللبناني التي ألقى فيها وحوش صهيون الكواسر ألعاباً مغرية للأطفال ، هرعوا لالتقاطها ، فتفجرت بأيديهم الصغيرة ، وجرحت وأحرقت ، وشوهت وقتلت عدداً كبيراً منهم ! ! كان لا بد من تهدئة روعها . ومن شرح مأساة فلسطين لها ، فاطلعناها على مراحلها بشكل مبسط ، ورويناها لها حكاية الغدر والتهجير التي لحقت بشعب عربي . انتزعته اسرائيل من أرضه ، فأدركت حبيبتي ان نكبته هي نكبتنا ، نحن العرب كلنا ، والسبب في تهجير العديدين من لبنان ، أمثالنا ! وليلة شاهدنا على الشاشة الصغيرة صور خروج أول فوج من الفلسطينيين ، من مرفأ بيروت إلى تونس ، وهم يرفعون شارة النصر بأصابعهم ، قلت لنفسي لو كان حكام إسرائيل أكثر حذقاً وذكاء لما ارتكبوا هذه الجرائم النكراء . وقتلوا الأبرياء ، ورحّلوا أشبال المقاومة لأن العنف يجر عنفاً أشد وطأة . والدماء الذكية التي

سفحوها . والديار التي خربوها تذرعاً بحماية أمن دولتهم المغتصبة ، ستزيد النازحين والمقيمين في المخيمات والضفة الغربية تضامناً ، وقوة ، وإصراراً على استرداد حقهم بأرضهم . أينما وجدوا ، وحتى آخر الزمان ! ولا بد أخيراً من أن ينتصر الحق ، ويزهق الباطل « إن الباطل كان زهوقا ! .

بقينا في الغابة المنسيّة الرطبة حتّى مطلع سنة ١٩٨٣ . طال غيابنا عن لبنان فدفعنا الشوق اليه ، والى من فيه ، للعودة إليه ، غير عابئين بما ينتظرنا من مفاجاءات . عشية الرحيل زرت صديقتي الأرزة الوحيدة لأودعها ، وقد غمرتّها الثلوج برادئها الأبيض الهادىء في حين يذوب تدريجياً،في أعقاب يوم صاح،فخيل الي أن قطرات الماء التي كانت تتساقط منها دموع تنهمل ، مثل دموعي . ولا عجب إذا ما بكيت لأن وداع من نحب يستدر من محاجرنا العبرات ، ومن يدري ؟ لعله الوداع الأخير لأنني ذاهبة الى بلد يحترق ، في حالة حرب وفوضى رصاص القنص فيه يحصد الأرواح ، وقذائف المدافع لاتوفر أحداً ... عانقت صديقتي ، طوقت جذعها بذراعي ، ورحت أبثها أشجاني قلت لها ، فيما قلت ، إنني محزونة للبعد عن وطني وأحبتي ، مفجوعة لما يجري في بلادي . بحت أليها بتألمي على آثار حضارة ٍ في لبنان » ، ومؤسسات ٍ علمية ٍ اندثرت فيه ، وعلى أشجار ٍ وأحراج ٍ وقرى رائعة ٍ تعرضت للقصف ، وما زالت عرضة ً له ، منذ سبع سنوات .

كان كل ما في الكون حولنا صامتاً ، يوحي بالاطمئنان ، إذ عندما تغطي الثلوج الدور والحدائق والجبال ، تتسرب الطمأنينة في نفوس السعداء والمحزونين ، على حد سواء . عندئذ مسحت دموعي ، صليت في قلبي ، ثم سرحت مع أفكاري بعيداً ، وأنا مازلت أعانق

الأرزة ، فأحسست بحرارة تدب في عروقي ، وبأنني أسمع همساً أثيرياً ، منبعثاً منها يواسيني . أصغيت اليه بكل ملكاتي ،وأنا مندهشة ومتأثرة أشد التأثر . ترى ، هل الدموع التي سفحتها أمامها ، وعلى جذعها ، كانت الحافز لها لمواساتي ؟ لا أدري ! ولكن الهمسات التي تناهت الى سمعي كانت تشبه تلك العبارات الرقيقة التي نسمعها في أحلامنا ، فنتذكر بعضها حين نستيقظ ، ويتبخر بعضها الآخر من الذاكرة ، فنندم على ضياعه ... ومع ذلك مازلت أذكر بوضوح همسات الأرزة الحنون التالية :

— (هوني عليك أشجانك ، يا صديقتي الوفية ، أنا غريبة مثلك في هذا البلد ، اجتذوني من غابات جدودي ، في شمال هذه القارة ، وزرعوني هنا ، في وسط حديقتهم لأزينها ، بل لأعيش فيها وحيدة ، وأموت وحيدة .

أنت تشكين وطأة الاغتراب عن أهليك وأوطانك ، وأنا مثلك أشكو للخالق غربتي ، وبعدي عن أهلي ورفاقي وترابي . أنت تتألمين للدمار الذي حل بلبنان ، وأنا كذلك أتألم وأتحسر لأن أواصر قربى تشدني اليه ، تربطني بأرزه الخالد ، الذي اتخذه شعاراً له ، وزين به علمه الجميل . فلا تبتئسي لأن حربه لن تدوم طويلاً ، فالفتنة تأكل أبناءها ، ولبنان وأرزه خالدان خلود الدهر !

أنا يا صديقتي صابرة مثلك ، أتعزى بمشاهدة السياح الذين يؤمون هذا المكان ، فأراهم يمرون أمامي ، من كل الأعمار والأجناس ، بعضهم يثني على جمالي ، وبعضهم الآخر منشغل بحاله ، لايراني ... أما العشاق فكثيراً ما يجلسون الى جانبي فأصغي الى مناجاتهم ، وأشاهد

عناقهم ، وأحس بحرارة قبلاتهم ، ثم يتشاكون ، ويتعانبون ، وينسجون الأحلام للمثيل من أيامهم . حنان وضم وشم ، ابتسامات ودموع ووعود . ومن ثم يتفرقون ، فيذهب كل واحد منهم في طريق ، والله وحده يعلم ما ينتظره من مصير .

سافري يا صديقتي ، تشجعي وانزعي الأحزان عن قلبك . لاتخا' شيئاً لأنك تحملين قلباً يحب عامراً بالإيمان ، ان القلوب التي يعشش فيها الحب مباركة ، صافية ، لا ينبغي أن تعكرها الآلام) .

وفجأة ساد السكون . كان سكوناً رهيباً فشعرت بأنني أصحو من حلم مذهل . نظرت الى السماء أسألها عن سر ما سمعت فبدت بعيدة ، ولم تجبْ ... ثم أحسست بقشعريرة تسري في عروقي ، فعدت أدراجي الى البيت مرتاحة النفس ، سعيدة كمن عثر على كنز ، لا يستطيع أحد أن يسلبه منه !

عدنا الى بيروت ، في اليوم التالي ، الى أجوائها المحمومة ، المشحونة بالكرب والمخاطر ، فتردت صحتي ، وكادت أعصابي أن تنهار . وعندما صحبني ابني الى مزرعته ، القريبة من طرابلس ، للاستجمام ، كان فصل الربيع في أوجه ، في كل بقعة ومكان ، الا في لبنان ، فالربيع زائر « مرح » ، باسم ، يقبل على الذين يفتحون أذرعهم لاستقباله ، ولكنه لا يطرق أبواب الحزانى ... لقد هاجر الربيع ولن يعود الا بعودة السلم الى الربوع !

ومع قدوم الصيف رجعنا الى « طونون » مجدداً للمعالجة الصحية أولاً ، ومن ثم لاستقبال الأولاد والأحفاد . ولكن الشمل فيها لم يجتمع ، كما نشتهي ، لانشغال كل منهم بهمومه المعيشية . لذا عدنا

الى بيروت ، ومنها سافرنا الى الرياض ، فدمشق ، ونحن نتنقل من بلد الى بلد ، كالغجر الرحل ، في حين كنا في أمس الحاجة الى الاستقرار.

استقبلنا سنة ١٩٨٤ في الرياض ، بالقرب من الحبيبة تيمة التي رزقت أخاً كانت متشوقة لقدومه ، فأعلمنا أصحاب البناء الذي نقيم فيه ببيروت أن بيتنا معرض للاحتلال وأنهم اضطروا لإسكان أسرة مهجرة فيه يعرفونها ، ويضمنون إخلاءه ، لدى رجوعنا . لذا غامرنا بالسفر الى بيروت في أوائل نيسان ونجونا من الهلاك بأعجوبة ، يوم دخلناها بالسيارة ، قادمين من دمشق ، تحت وابل من القصف العشوائي في المنطقة التي يسمونها الخط الأحمر ، الواقعة ما بين مستشفى أوتيل ديو ومستشفى « البربير » . وجدنا البيت في حالة من الفوضى والإهمال يرثى لها ، فعزمنا على النزوح النهائي ، بعد أن وضعنا ما تبقى من أمتعتنا والمكتبة ، في أحد المستودعات . لم يعد لنا مأوى في بيروت ، فتوجهنا الى « طونون » حيث توجد صديقتي الأرزة الوحيدة ، وحيث بتنا ننتظر حلول فصل الصيف ، وقدوم أولادنا والأحفاد ، كانت حبيبتي تيمة قد غابت عني ثمانية أشهر ، واستقبلت عامها الثاني عشر في غيابي . وإن أنسى لا أنسى فرحتي يوم استقبلتها في مطار جنيف ! وجدت أمامي حورية في عمر الورود ، ممشوقة القد ، رشيقة الخطى ، مزهوة بجمالها ، واثقةً بنفسها . حقاً إن الصور التي كانت ترد الي من الرياض لا تعبر عن تألق شخصيتها ، وفتنتها . كنت لأارتوي من النظر إليها ، والتحدث معها ، فلله ما أروع معجزة الربيع في الطبيعة وفي الإنسان !

أضحت تيمة الصبية أعذب رفيقةٍ لي في البيت ، وفي خارجه .

صحبتها يوماً الى البلدة للتسوق بما يلزم لإعداد الطعام ، ثم جلسنا في مقهى للاستراحة ، فقالت لي . وفي عينيها الماسيتين بريق حاد :

— أريد يا تيتا أن أقول لك شيئاً ، فهل تعدينني بحفظ السر ؟

— بلا شك يا حبيبتي . فنحن صديقتان ، والصديق لايفشي سرّ صديقه لأحد .

فقالت بكثير من الحياء والارتباك :

— يوجد صبي أجنبي في النادي الرياضي يراقبني ، يطيل النظر إلي ، فأتجاهله . ولكنه اقترب مني البارحة ، وسألني عن اسمي وعن جنسيتي ، فلم أرد عليه يا تيتا ، بل أمسكت بيد صديقتي التي كنت ألعب معها ، ورجعت الى البيت ....

سألتها :

— وما عمره يا تيمة ؟

قالت

— أظن أنه أكبر مني بقليل ، وهو جميل ، ومهذب ، فماذا أفعل ؟

أجبت :

— أنصحك بأن تكوني واثقة من نفسك ، طبيعية في تصرفاتك ، وان تتحدثي معه إذا عرفك بنفسه ، ما دام مؤدباً .

قالت ، وقد احمرت وجنتاها :

— تعالي معي الى النادي بعد الغداء ، من فضلك ، واحكمي عليه بنفسك يا تيتا .

رافقتها الى النادي فرأيت فتى وسيم الطلعة ، في حوالي الرابعة عشرة من العمر ، واقفاً مع فتاة شقراء ، وسيدة ذات هيبة وجمال ، قدرت أنها أمه . سألت مدير النادي عنه فعلمت أنه ألماني ، أتى الى طونون مع أمه وأخته منذ أسبوع ، ضيوفاً على عائلةٍ فرنسية ، وأنهم مسافرون في الغد الى بلدهم .

فعلّقت حبيبتي على ما سمعت بقولها :

ـ الحمد لله أنه مسافر ، يا تيتا ، لأني لا أحب الأجانب لأنهم ينظرون إلينا باستعلاء ، ولا يحبون العرب : فلماذا لا يحبوننا ؟

أجبتها :

ـ لأنهم لا يعرفوننا كما نحن ، ولكن من يتعرف إلينا يكتشف مزايانا ، ويدرك أننا لسنا جهلة ، ولسنا إرهابيين ، كما تصورنا وسائل الإعلام في بلادهم . واعتقد يا تيمة أن من واجبنا أن نتحدث اليهم بلغتهم ، ونعرفهم بأنفسنا على حقيقتها .

ولا أخفي أنني اكبرت في حبيبتي اعتزازها بأصلها ، وغيرتها على سمعة بلادها ، وتأذيها من منجهية الغربيين ، وتهجمهم علينا .

في مساء ذلك اليوم ، والصيف أوشك أن ينتهي ، قررنا استبدال بلدة دافئة في جنوب الأندلس ، بطونون ووحشتها ورطوبتها ، ثم مشيت وحدي ، على ضفاف البحيرة ، يتملكني شعور بالاكتئاب . برزت في مخيلتي صور أحفادي التسعة ، وصور أبناء جيلهم الصاعد ، فأقلقني المستقبل الذي ينتظرهم ، في رحاب القرن الواحد والعشرين . هل ترى سيرفرف عليهم السلم، هل سينعمون بحياة رغدة يسودها

العدل والحرية ؟ لقد عشت حضارة القرن العشرين ، في مفارقاتها العجيبة : المنجزات العلمية من جهة ، والأخطار من جهة ثانية ، وكثيراً ما أميل الى الاعتقاد بأننا نعيش نهاية حضارة القرن العشرين ، بسبب المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والخلقية التي نجمت عن معطياتها ومكاسبها . إنها معضلات جسيمة تفتك براحة البشر ، وتهدد العالم بالفناء فنحن نرى ، الى جانب المنجزات العصرية المتمثلة برفع مستوى المعيشة في بعض البلدان ، وتحرير المرأة ، والقضاء على الأمية ، والحد من وفيات الأطفال ، نرى شروراً وويلات تفشت في أنحاء العالم ، كالمخدرات ، ومرض السيدا ، وعبادة المادة ، وتفكك الأسرة ، وضياع الشبيبة . كما أننا نرى سيادة شريعة الغاب بأبشع صورها : فالأقوياء يأكلون الضعفاء ، وهم يتبجحون بحماية حقوق الأنسان ، يشعلون حروباً صغيرة ، في أرجاء المعمورة ، لتشغيل مصانع أسلحتهم ، وزيادة رؤوس أموالهم ، والانسان ، في العالم الثالث خاصة ، مقهور ، مغلوب على أمره ، يتفاقم بؤسه بتفاقم الجوع والظمأ ، والمرض والتخلف ، ولا من يهب للإنقاذ ، سوى جمعيات إنسانية قليلة ، وأناس رحماء ، وأطباء متطوعين ، لم يفقدوا ، بعد ، الحميّة والنخوة ، وحب الخير للأسرة الإنسانية .

إنني ، أيها السيدات والسادة ، واحدة من ملايين الأمهات والآباء ، والأجداد والجدات ، القلقين على أبنائهم وأحفادهم ، والأجيال الصاعدة ، ولكن ما يشد من عزيمتي هو حب كبير منوط بإيمان راسخ ، حب للأوطان المنكوبة ، والإخوة البؤساء ، وايمان بالرحمة الالهية التي لاتتخلى عن الضعفاء والبؤساء ، وعن الرأفة بهم وبالعالم أجمع . ألا ليتني أكون نسراً عملاقاً يحمل كل الأطفال على

جناحيه . وينقلهم بعيداً بعيداً ليحط بهم على أرض نظيفة . يعيش عليها أناس عقلاء . شرفاء . ليقضوا بينهم مسيرة حياتهم المقبلة ! أعود الى الحب فأقول إنه المنقذ الوحيد للبشرية المعذبة ، وللغارقين بلجج المادية والأنانية ، وحب السيطرة ، وشهوة الاستغلال .

بما تكرمتم بجعل هذه الأمسية ممتعة ودافئة بوجودكم في هذه الندوة الثقافية النسائية الموقرة ، فليكن ختام حديثي اليكم ، قراءة قصيدة قصيرة كتبتها باللغة الفرنسية لحبيبتي تيمة في طفولتها ؛ إليكم ترجمتها بقلمي ، الى اللغة العربية :

الى تيمة الحبيبة في عيد ميلادها الأول :

في عينيك الساحرتين أرى
موكب النجوم الزرقاء الساهرة ،
وفي خُصُلات شعركِ الحريريّ
ألْمَحُ عُمْقَ الليالي ، وَسِرَّ الأمواج .
أُحِسُّ بيدِ الخالقِ ترتَعِشُ
في نَبَضاتِ قلبكِ الصغير .
كأنهِ اضطربَ ، جلَّ جلالُهُ ،
حينَ أَبْدَعَكِ بهذا الجمال !
رناتُ صوتكِ الملائكي أَسْمَعُها
في حفيفِ الأشجارِ ، وشدو الطيور .
في غناء السواقي ، وهمس الأوتار ،
فأنسى متاعبي وآلامي .

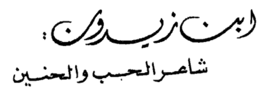
تيمة يا ساحرتي الغالية

يا صدى نفسي ، يا فرحتي الكبرى

تَشُبّينَ وتقرأين كتاباتي ستقولين :

« كانت لي جَدّةٌ شاعِرة ، فحوّلتُ أحزانَها الى أعياد ! »

* * *



محاضرة ألقيتها في مهرجان بلدة « أصيلة »
المغربية الأدبي في جامعة المعتمد بن عباد في
١١ / ٨ / ١٩٨٨

الحب والحنين هما السمتان البارزتان في شعر ابن زيدون ، وأعني بهما : حبّه لولادة بنت المستكفي التي هام بها في مطلع صباه ، وحبه لقرطبة، المدينة التي أنبتته وقضى فيها أهنأ أيام عمره، وحنينه الشديد اليهما بعد فراقهما . فلقد تجلت عبقريته الشعرية ، وأصالته الفنية في قصائد حبه وحنينه التي بوأته مكان الزعامة بين شعراء الأندلس في القرن الحادي عشر ميلادي .

ان لشعر ابن زيدون الغزلي صبغة رومنسية لأن الطبيعة أثارت أشجانه، وحركت لواعجه إبان طوافه في ربوع الأندلس العامرة وهو هارب من السجن في قرطبة ، وملتجىء إلى بني العباد في اشبيلية ، حيث كان يرسل للحبيبة الأميرة ، ولقرطبة الأثيرة ، مناجيات وجدانية أبدع فيها ، وأيّ إبداع ! لقد بدا في تلك المناجيات متحداً مع الطبيعة في مختلف مشاهدها ، فتخيل أن الرياض إلهيه ، والنسائم العليلة ، والمياه المترقرقة

تشاطره اللوعة على فراق أحبته ، ولا سيما عندما توقف في مدينة « الزهراء » ، عقب فراره من السجن ، وأنشد يقول :

إنـــي ذكرتـــك بالزهـــراء مشـــتاقاً
والأفـــق طلق ومرأى الأرض قـــد راقا

وللنسيـــم اعتـــلال فـــي أصائلـــه
كأنمـــا رقّ لي فاعتَـــلّ إشفـــاقـــا

والروض عـــن مائِـــهِ الفضّي مبتسِـــمُ
كمـــا شَقّقْـــتَ عـــن اللبات أطواقا

كـــأن أعينـــه إذ عايَنَـــتْ أرَقـــي
بَكَتْ لما بـــي ، فجال الدمـــع رَقـــراقا !

لقد سبق ابن زيدون الشاعر الرومنسي الفرنسي لامارتين في إتيانه على معنى جميل عندما خاطب ولادة قائلاً :

يـــامَنْ غَدَوْتُ بِـــهِ في الناسِ مُشتـــهرا
قلبـــي عليك يقاسي الهم والفِكَـــرا

إن غِبـــتَ لم ألْقَ إنساناً يؤنّسُنـــي
وإن حضـــرت فكلّ الناسِ قد حَضَـــرا

ذلك أن لا مارتين خاطب حبيبته الغائبة في قصيدة له عنوانها (العزلة) ، ملتاعاً على فراقها ، وهو في بقعة من أجمل بقاع أوروبا على ضفاف بحيرة (آنسي) ، فلم ير غير الجدب بسبب غيابها عنه ! ولا بد من الإشارة إلى أن شاعرنا عاش قبل لامارتين بحوالي ثمانمئة سنة . . .

كانت غربة ابن زيدون عن قرطبة وولادة حافزاً قوياً لمناجاتهما ، ولتصوير عواطفه المشبوبة نحوهما ، وشوقه المبرح اليهما بأسلوب سلس تفرد به ، واتسم بجرس موسيقي عذب ، وديباجة رشيقة ، مما حدا بمعاصريه ، ومنهم « ابن بسام » صاحب« الذخيرة » إلى تشبيهه بالبحتري . في حين ان الأستاذ كامل الكيلاني الذي حقق ديوان ابن زيدون ونشره في مصر سنة ١٩٣٢ ، قدمه للقراء بدراسة قيمة فشبه شعره بشعر العباس بن الأحنف ، والشريف الرضي ، وحتى بمجنون ليلى ، ومن ثم قال :

(الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء في زمنه وبعده بمحاكاته ، والانضواء تحت رايته) .

وأننا لنذكر بالمناسبة معارضة أمير الشعراء أحمد شوقي . لقصيدة ابن زيدون الخالدة في الوداع :

وَدَّعَ الصَّبْرَ حبيبٌ ودّعك
ذائِعٌ مِن سِرِّه ما استَوْدَعَكْ

يَقْرَعُ السِنَّ على أن لم يَكُنْ
زادَ في تلكَ الخُطى إذْ ودّعَكْ

يا أخا البَدْرِ سَنَاءً وسنى
حَفِظَ اللهُ زماناً أطْلَعَكْ

إن يَطُلْ بعدكَ ليلي فلكم
بِتُّ أشكو قِصَرَ اللَيْلِ مَعَكْ

ونعنى بها القصيدة الجميلة التي لحنها الأستاذ محمد عبد الوهاب وغناها ، ومطلعها :

رُدَّت الروحُ على المُضْنى مَعَكْ
أَحْسَنُ الأيامِ يَوْمٌ أَرْجَعَكْ

أضحى حبُّ ابن زيدون لولادة أسطورة في تأريخ أدبنا العربي ما زالت تحث الكتاب والشعراء في المشرق وفي المغرب على استلهامها ، وسواء أكانت ولادة حبه الأوحد في حياته أم لم تكن ، فلا ريب في أن حبه الكبير لها كان الجذوة التي أججت عواطفه ، وفجرت موهبته ، وأوحت اليه روائع شعرية لا تحل قراءتها ، ولا يصعب حفظها ، ومن أجودها وأشهرها قصيدته النونية :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
ونـاب عن طيبِ لُقيانا تجافينا

من مُبلغ المُلبسينا بانتزاحهم
حُزناً مَعَ الدهرِ لا يَبْلى ، ويُبْلينا

أنَّ الزمان الذي ما زالَ يضحكُنا
أنساً بقربِهمُ قد عادَ يُبكينا ؟

غيظ العِدا من تساقينا الهوى فدَعَوْا
بأن نَغَصَّ ، فقالَ الدهرُ آمينا ،

فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ،
وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا

وقــــد نكـــونُ وما يُخشـــى تَفرــاقُنا
فاليـــومَ نَحـْــنُ وما يُرْجى تلاقينـــا

لــم نَعْتقِــدْ بَعْدَكُم الا الوفاءَ لَكُمْ
رأيــاً ، ولم نتقلّدْ غيْـَــرهُ دينـــا

بِنْتُــمْ وبِنا ، فما ابتلّــــتْ جوانحنا
شــــوقاً إليكم ، ولا جَفّتْ مآقينا ،

نــــكادُ حين تناجيكـــم ضمـــائرُنــا
يقضــــي علينــــا الأسى لولا تأسّينا !

إن هذه القصيدة آية من آيات الشعر العربي ، وحتى الشعر العالميّ ، ولو لم يكتب ابن زيدون غيرها لا عترف له مؤرخو الأدب بالابداع سبكاً ولغةً وإلهاماً . وهي ليست قصيدة حب وحنين فقط ، بل هي لوحة وجدٍ وشوقٍ من أشهر القصائد التي تناقلتها المحافل الأدبية منذ ولادتها فلقد ذكر « المقري » في « نفح الطيب » بأن حفظها كان من شروط التحلي بالظرف والأدب عند الأندلسيين ، إلى جانب التختم بالعقيق ، ولبس البياض والتفقه للشافعي ، ودراسة أدب الجاحظ !

مما يسترعي الانتباه في شعر ابن زيدون الوجداني طابع الحزن واللوعة لأن أيام الصفاء في حبه لولادة لم تدم طويلاً ، ولو لم يحصل الجفاء بينهما ، ومن ثمّ الهجر والفراق ، لما حظينا بتلك الروائع التي بثّ فيها ألمه وعتبه ، ووجده وشكواه ، انني لا آتي بشيءٍ جديد إذ أقول إن افتراق العشاق كان وما زال هو الذي فجرّ مواهب الأدباء والشعراء منهم في تأريخ الأدب العالمي . ولقد ترجم النونية المستعرب الاسباني

الأستاذ « إميليو غارثيا غوميث » ونشرها في كتاب قيم أعده عن شعراء الأندلس ، فوجدها ملائمة للذوق الغربي ، وعلق على البيت التالي منها :

حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لياليناً فكتب مايلي : (يخيل اليك وأنت تمعن النظر في هذا البيت أن ابن زيدون جالس أمام رقعة شطرنج يتصرف بتحريك حجارتها البيض والسود وكأنه يخوض شوطاً يائساً حيال حبه العظيم !)

الحب في رأي ابن زيدون عاطفة نبيلة ، والخضوع فيه للمحبوب عز لا إذلال ، ومع أنه كان ينحدر من قبيلة بني مخزوم القرشية فقد وجد نفسه دون حبيبته الأميرة الأموية شرفاً في النسب ، وأكد لها أن كل حب عظيم ، يزيل الفوارق بين المحبين .

مـــا ضرَّ إن لم نكنْ أكفاءه شرَفـــا
وفـــي المودّة كـــافٍ مـــن تكافينـــا ؟

إن مناجيات ابن زيدون لولادة في غربته عنها تنبيء عن صفاته الانسانية الجميلة ، ومن أهمها الوفاء والأخلاص ، وعن آلامه وخشيته من غدرها به ، لعلمه بأن خصومه في قرطبة ، وعلى رأسهم « ابن عبدوس» ، أوغلوا صدرها عليه طمعاً في استمالتها اليهم . من هذه المناجيات المؤثرة نذكر مخاطبته لها عندما بعث إليها بالأبيات التالية :

أَيو حِشُنِي الزمانُ وأنـــتِ أُنســـي ؟
وُيظْلِمُ لِيَ النهارُ وأنـــتِ شَمْســـي ؟
وأغرِســـُ فـــي محبّتِـــكِ الأمانـــي
فأجنـــي المـــوتَ مـــن ثمراتِ غـــرســـي

لقد جازيتِ غدراً عن وفائي
وَبِعْتِ مودّتي ظلماً بِبَخْسِ ،

ولو أن الزمان أطاعَ حُكْمي
فَدَيْتُكِ ، من مكارهِهِ ، بنفسي !

كما أن حسن اختياره للأوزان الخفيفة والقوافي الجزلة من أهم مزايا تلك المناجيات ، ومنها :

متى أَبُثُّكِ ما بي
يا راحتي وعذابي ؟

ما البَدْرُ شَفَّ سناهُ
على رقيقِ السحابِ

إلا كوجْهِكِ لما
أضاءَ تَحْتَ النِّقابِ

أما قصائد حنينه لقرطبة ، بعد نزوحه عنها ، فاننا نجد فيها لوعة الذين يغتربون عن أوطانهم وأحبتهم ، ومرابع طفولتهم ، فالإنسان خلق ألوفاً ، ولا أحسب أن شيئاً يضنيه اكثر من فراق الأرض التي أنبتته ، والأماكن التي قضى فيها صباه ، إذ مهما امتدّ به العمر يظل حبها متأججاً في ضلوعه ، ويبقى حنينه اليها مشتعلاً في قلبه . لقد عاش ابن زيدون نصف عمره في الغربة ، ولقي كل حفاوةٍ وتكريم في بلاط بني العباد باشبيلية ، كما هو معروف ، وتولى الوزارة فيه ، كما أحيط برعاية بالغة في زياراته المتعاقبة لملوك الطوائف وأمرائها ، أمثال « بني الأفطس » في بطليموس . و«الأمير إدريس ابن المظفّر »

في ملقة ، ولكن المجد الأدبي والمناصب الرفيعة لم تُنسه حبّه الأول ، وهيامه بقرطبة ، فظل يُنشد القصيد تلو القصيد ، دامي القلب ، دامع العين :

يا دَمْعُ صُبْ ما شِئْتَ أن تصوبـــا
ويا فؤادي آنَ أنْ تذوبـــا

قـد مَـلأَ الشـوقُ الحشـا نُدوبـا
فـي الغَـرْبِ إذ رُحْـتُ بـه غريبـا

عَليـلُ دَهْـرٍ سـامَنِي تَعْذيبـا ،
أَدْنـى الضَنـى إِذْ أَبْعَـدَ الطبيبـا !

وعندما طالعه العيدان ، عيد الفطر وعيد الأضحى المباركان ،وهو في ضيافة الأمير العالم المظفر بن الأفطس أنشد قصيدة عبّر فيها عن حنينه الشديد هذا مطلعها :

خليليّ لا فِطْرٌ يَسُـرُّ ولا أضحـى
فَمَا حالُ من أمسى مشوقاً كما أَضْحى ؟

كما أن له مخمسّة رائعة صبّ فيها هيامه بديار صباه ،وشوقه لموطن هواه ، وضمنّها وصفاً لتلك الديار أطّلعنا بفضله على ما كانت عليه قرطبةٍ من بهاءٍ وازدهار ، فذكر مواقع ومنتزهات كانت عامرةً في عصره ، منها : « الرصافة » وهي المنتجع الصيفي الذي بناه الخليفة عبد الرحمن الثالث بجوار قرطبة ، حيث وُلد شاعرنا ، ومنها « العقيق » ، و « عَيْن شُهدة » أما العقيق فقد كان جدولاً ضمن بستان يقع بالقرب من أحد أبواب قرطبة ، في شمالها ، وأما « عينُ شُهدة » فقد كانت ينبوعاً ثرّاً ينبجس من سفح الجبل المجاور لقرطبة يقصده الناس للتنزه والسمر في الليالي المقمرة . ولا بد من

الاشارة الى أن المخمّسه التي ذكرتها تكاد تكون ملحمةً في شعر الشوق والحنين ، وهي التي مطلعها :

أَقُرْطُبَةُ الغَرّاءُ هَلْ فيكِ مَطْمَع ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَّى لِبَيْنِكِ تُنْقَعُ ؟
وَهَلْ لِلياليكِ الحَميدةِ مَرْجِعُ ؟
إذ الحُسْنُ مَرْأى فيكِ ، واللّهْوُ مَسْمَعُ
وإذ كَنَفُ الدنيا ، لَدَيْكِ ، مُوطّأَ ؟

وقبل ان توافيه المنية ببضعة أشهر قرت عين ابن زيدون بالرجوع الى قرطبة مظفّراً ، بصحبةِ حملةٍ عسكريةٍ أرسلها المعتمد بن عباد لإنقاذها من هجوم جيش ملك طليطله عليها ، « المأمون بن ذي النون » ، سنة ٤٦٤هـ . ولكن الحظ لم يسعف شاعرنا اذ اضطر للعودة الى اشبيلية بأمر من المعتمد بن عباد للإسهام في إغماد فتنةٍ شبت فيها . كان مريضاً حينذاك فاشتدت به العلة ، ومات في إشبيلية ودفن غريباً عن مسقط رأسه وهو دون السبعين من العمر لأنه ولد سنة ١٠٠٣م . وتوفي سنة ١٠٧٠م . كان نبوغه في الشعر مواكباً لنهضة أدبيةٍ وفنيةٍ كبيرةٍ في الاندلس ، ومع أنه لم يكن شاعر الحبّ الأوحد في القرن الحادي عشر ميلادي فيها . فقد كان المجلّي في ميدانه لأنه أبدع قصائد رائعة ، نابعة من تجربته العاطفية المثيرة ، ومعاناته الصادقة في الاغتراب عن مدينته الأثيرة قرطبة . ولولا تفرده بعذوبة السبك ، وجزالة الاسلوب ، ودقة النبرات وصدقها لما كتب الخلود لشعره في الحب والحنين الذي مازال يطربنا ويشجينا ، بعد انقضاء تسعة قرون على زمن إنشاده .

ندوة الثلاثاء

ألقيت هذه المحاضرة في المركز الثقافي العربي بدمشق وألقيت في ٢٠ آذار سنة ١٩٨٤ في قاعة جمعية الصداقة الاسبانية العربية بمدريد في ٢٠ مايس ١٩٨٨ باللغة الاسبانية كما ألقيت بنصها العربي الكامل في جامعة عمان في ٢٠ تشرين الأول ١٩٨٥ حيث كنت ضيفة الموسم الثقافي للجامعة الاردنية .

اسمحوا لي ، سيداتي وساداتي ، ان ادعوكم للقيام برحلة ٍ فكرية في هذه الساعة ، نطوف فيها على المجالس الأدبية التي كان يعقدها أعلام النهضة العربية الحديثة في منزل الأديبة ميّ زيادة بالقاهرة ، في الثلث الاول من القرن العشرين . إن ندوة الثلاثاء هي التي أوحت للشاعر شبلي الملاط هذه الأبيات :

ألا حَمَلــو إلـيــكَ حديــثَ مــي
كأزهــارِ الجنائِـــنِ فــي شذاها ؟
وَهَلْ رَصَدوا فَــرائِــدَهــا الغوالـــي
كأبــراجِ الكــواكــبِ فـــي سماهــا ؟
وَهَل طــافــوا بمكتَبِهــا وحيّــوا ؟
هنالِكَ ، في الكِنـــانــةِ ، منتداهــا !

عرف تاريخ أدبنا الحديث ندوات أدبية كانت تعقدها نساء رائدات أمثال « نازلي فاضل » في القاهرة ، و « ماريانامراش » في حلب ، و « ماري عجمي » بدمشق ، ولكن صالون ميّ الأدبي كان أهم تلك الندوات لاستقطابه صفوة كتاب النهضة وشعرائها على مدى ما ينوف على عشرين سنة . هؤلاء الكتاب والشعراء الذين تبلورت على أقلامهم النهضة الثقافية الحديثة في بلادنا قد استناروا برسالة رواد النهضة العربية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمثال « الشيخ محمد عبده » ، و « جمال الدين الأفغاني » ، و « قاسم أمين » ، و « البستاني » و « اليازجي » وغيرهم . لقد حركوا في الأمة العربية طاقاتها الراكدة ، وجاهدوا لإخراجها من بؤس الجهل والتخلف الى رحاب العلم والتقدم . ومي زيادة هي علم من أعلام طبقة الرواد الثانية التي شكلت جيلاً من المفكرين والصحفيين والأدباء والعلماء يعتز بهم تاريخنا لما أغنوا به مكتبتنا المعاصرة من آثار نفسية ، ولما قدموا من خدمات جلى للمجتمع العربي عامة ، المتطلع الى التحرر من الجمود والطغيان ، والتواق الى الحرية والتطور فكرياً وقومياً واجتماعياً . ففي الربع الأول من القرن العشرين نشطت حركة النشر والتأليف والترجمة ، وأسهمت فيها نساء رائدات أمثال « ملك حفني ناصف » صاحبة كتاب « نسائيات » المعروفة باسمها المستعار : « باحثة البادية » « ولبيبة هاشم » ثم مي زيادة في مصر ، وماري عجمي ونازك العابد في دمشق ، وماري يني وجوليا طعمة في بيروت . ولقد أعجبت مي باللواتي سبقنها في خدمة النهضة الأدبية والاجتماعية فاقتفت أثرهن ، وأخذت تنشر مقالات قيمة في جريدة أبيها (المحروسة) منذ سنة ١٩١١ .

ومي ، كما تعلمون . انحدرت من أب لبناني هو إلياس زيادة ، وام سورية هي نزهة معمّر .

ولدت مي ، أي ماري زيادة في مدينة الناصرة بفلسطين حيث تلقت علومها الابتدائية ، ومن ثم أكملت الدراسة الثانوية في مدرسة راهبات عنيطورة بلبنان ، وانتقلت الى القاهرة مع والديها سنة ١٩٠٧ حيث استقرت وتابعت الدراسة الجامعية ، ولمع اسمها أديبة وصحفية وخطبية وصاحبة ندوة طبعت شهرتها الآفاق .

ظهر النبوغ عند مي في حداثتها ، ونما في مناخ مصر حيث تفتحت مواهبها المتعددة ، وتجلى شعورها القومي ، وتمكنت من تحقيق طموحها الثقافي . درّست اللغة الفرنسية لبنات الصحفي إدريس راغب ، صاحب جريدة « المحروسة » قبل أن يتنازل عن ملكيتها لأبيها إلياس زيادة سنة ١٩٠٩ ، ودرست في القاهرة اللغات الالمانية والايطالية والاسبانية ، كما كانت تلم باللغة الانكليزية . وفي سنة ١٩١١ نشرت ديوان شعر باللغة الفرنسية بعنوان : « زهرات حلم » ولكن ذكاءها دفعها الى إتقان اللغة العربية فعكفت على قراءة القرآن ، ، ودراسة اللغة وآدابها وفلسفتها في الجامعة المصرية ، وأضحت تنشر مقالات بها استرعت انتباه المعاصرين لجودتها . وان ما يجدر بالذكر هو أن مي كانت تنتحل أسماء مستعارة توقع بها مقالاتها الأولى كاسم خالد رأفت ، واسم عائدة ، ولما كان إسمها الاصلي ماري ، أرادت ان تبدله باسم عربي جميل فاتخذت أول حرف منه وآخر حرف فأضحى إسمها « مي » وغلب عليها في سائر أدوار حياتها .

بعد أن ظهرت مقالاتها الأولى في « المحروسة » ومجلة « الزهور »

أخذت تنشر في « الهلال » و « المقتطف » وافتتاحيات ومقالات في جريدة « الأهرام » بوأتها جودتها أرفع مكانة بين كتاب عصرها . كما أنها أثبتت مهارة في الخطابة فأضحت أميرة المنابر في مصر ونبنان وسورية ، تحث الجماهير على النهوض والتضامن والتحرر ، مسهمة بذلك في النهضة التي عاصرتها ، والتي تشبعت بها روحها وأفكارها ، وتدعوهم الى رفع لواء اللغة العربية إيماناً منها بأنها الأداة الفضلى لجمع الامة العربية ، وتوحيد صفوفها ، وحجر الأساس في يقظتها وتقدمها وتضامنها .

ان تفوق مي الكبير في الوسط الأدبي والثقافي والقومي هو ما حدا بأعلام عصرها الى إطلاق ألقاب عليها اشتهرت بها دعاها الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي : (سيدة القلم العربي في التاريخ كله) ودعاها أنطون الجميل : (النابغة مي) ودعاها خليل مطران : (فريدة العصر (ودعاها الدكتور يعقوب صروف : (الدرة اليتيمة)، ودعاها الأمير شكيب أرسلان : (نادرة الدهر) ودعاها الأب أنسطاس ماري الكرملي : (حلية الزمان) .

تأسست ندوة الثلاثاء في بيتها سنة ١٩١٣ ، فلندع مي تحدثنا بنفسها عنها إذ كتبت ما يلي : (زارنا الأستاذ سليم سركيس في ربيع سنة ١٩١٣ ودعاني لإلقاء خطاب جبران خليل جبران نيابة عنه ، في حفل تكريم خليل مطران بك ، فقبلت الدعوة ، وكانت تلك أول مرة تقف فيها فتاة عربية تتكلم في حفلة رسمية تحت رعاية الخديوي. وبعد أن تلوت الخطبة ذيلتها بكلمة من عندي لتحية المحتفى به ، فلقيت من الحاضرين تشجيعاً « عظيماً » . وبعد ذلك ابتدأ يجتمع عندنا شبه صالون أدبي ، في كل يوم ثلاثاء ، مكث أعواماً « تحت

رياسة اسماعيل صبري باشا فاقتبست منه تهذيباً عربياً بما كان يلقى فيه من أحاديث باللغة العربية الفصحى (١) .

ضم صالون مي الأدبي منذ بدء تأسيسه أدباء وشعراء وكاتبات وعلماء أمثال : ولي الدين يكن ، وأحمد لطفي السيد (استاذ الجيل) والدكتور طه حسين ، وأنطون الجميل ، وسليم سركيس ، ونجيب الهواويني وخليل مطران ، والكاتبة إيمي خير والدكتور شبلي شميل . ولا ريب في أن مي اقتبست من جلسات ندوتها الاسبوعية نوراً شع من شخصيتها الفذة بفضل معاشرة أولئك الأقطاب ، وحفزهم لها على الابداع ، كما لاريب في أن صالونها كان ينبوع إلهام لهم وسعادة ، إذ لم يعرف المجتمع العربي حينذاك ندوة أدبية في ذلك المستوى ، وفي سمو الغاية منها تعقدها أديبة نابغة شابة ، امتازت بالخلق الرفيع ، والثقافة الواسعة ، والبراعة في الحديث ، والتواضع واللباقة والاحتشام . فلم يكن مستغرباً ان تحظى بتقدير رواد ندوتها ، وتستدر إعجابهم بسحر بيانها ، وسعة مداركها ، ولطفها ، لقد جمعت شملهم في زمن كان يفتقر الى مشاركة المرأة في المجالس الأدبية تعطرها ، وتحفز الهمم للعطاء .

زار مي في ندوتها الشاعر شبلي ملاط فاوحت له بالأبيات التالية :

يــا مــيُّ بيــنَ الأوراقِ والكُتُبِ
كــالشمــسِ بيــن الأقمــارِ والشُهُبِ
أحْيَيْــتِ عَهْــدَ القــريــضِ والأدبِ
جــدّدتِ للشــعرِ رَوْنَــــقَ العَرَبِ

---

(١) مجلة الهلال – ج ٣٨ – عدد فبراير ١٩٢٨ – ص ٦٥٩ – ٦٦٠

يــا مــيُّ عيشـــي الــى مدى الحقَبِ
لخيــرِ أمٍّ سَــمَتْ وَخَيْـــرِ أبِ !

لم يكن شبلي الملاط مغاليا « في وصف مي لانها كانت عبر ندوتها رسولة الهام للكتاب والشعراء ، واوحت اليهم اروع الآثار وأجمل القصيد ، وبقدر ما كانت هي كاتبةً متفوقة ، تنشر الأبحاث والكتب ، عاماً في إثر عام ، كانت منشطة للحركة الفكرية ، فاضحت ندوتها التي سماها ولي الدين يكن : « نادي الفضل » محجة لسائر كتاب العربية وشعرائها ، وللمستعربين الأوروبيين في الثلث الاول من هذا القرن . وهذا ماحدا بالأستاذ محمود الشرقاوي لتخصيص فصل من كتابه : (إبراهيم ناجي الشاعر والانسان) عن ندوة مي قال فيه : (ولم يقيض لأديبة في ندوتها كما قيض لمي اذ أوتيت من الخصائص والمزايا ما أعانها على تحقيق رغبتها في الاجتماع الأدبي الذي كانت تشارك فيه المثقفة والأديبة من المصريات واللبنانيات إلى جانب الرجال . والحق ان مي بذلت الشباب والذكاء والاخلاص لندوتها الجامعة ، فكانت تضفي عليها من تألق نبوغها ، وصفاء نفسها ، ووسامتها ، وسحر حديثها ما استهوى العقول ، فأضاء جوانب النفوس ، وأروى الظمأ الى السعادة الروحية) .

وكتب طه حسين في مذكراته ما يلي ، واصفاً الندوة وصاحبتها : (وفي مساء الثلاثاء ، رأى الفتى نفسه ، لأول مرة في حياته ، في صالون فتاة تستقبل الزائرين من الرجال ، حفية بهم ، معاتبة لهم في رشاقة أي رشاقة ، وفي حديث عذب يخلب القلوب ويستأثر بالألباب(١)) .

---

(١) مذكرات طه حسين – ص ٤٠ .

سيداتي ، سادتي : إن ذلك الحديث العذب الذي كان يخلب قلوب رجالات مرموقين وألبابهم ، وجلهم في عمر أبي مي ، هو ما جعلهم يتشوقون الى يوم الثلاثاء ، حتى لكأن اسماعيل صبري باشا عبر عن حال كل واحد منهم حين أنشد يقول :

روحي على بعضِ دور الحيِّ هائمـــةٌ
كظامىء الطـــير توّاقـــاً الـــى المـــاءِ

إن لَـــمْ أُمتّـــع بميِّ ناظـــريَّ غـــداً ،
أَنْكَرْتُ صُبْحَكَ يـــا يـــوم الثلاثاءِ !

أما الصحفي سليم سركيس فقد وصف الندوة بما يلي :

(يتحول منزل إلياس زيادة ، صاحب جريدة « المحروسة » الى منزل فخم من منازل الأدباء في باريس ، مساء كل ثلاثاء . وتتحول الفتاة السورية التي لاتزال في أواخر العقد الثاني من عمرها الى « مدام ريكاميه » و « مدام دي ستايل » و « عائشة الباعونية » و « ولادة الاندلسية» و « وردة اليازجي » . ويتحول مجلس الآنسة مي الى فرع من سوق عكاظ حيث تروج الأبحاث الأدبية والفلسفية والعلمية بين اسماعيل صبري ، ولطفي السيّد ، والدكتور شبلي شميل ، وخليل مطران ، وأحمد زكي باشا ، وطه حسين ، والمطران دريان ، فيهزون ، بأحاديثهم ومناقشاتهم ، أغصان شجرة ذات ثمر ، ويحركون وردة ذات أريج ، والآنسة مي بينهم تناقش هذا ، وتدفع حجة ذاك) .

وسرعان ما ذاع صيت الندوة في أوساط القاهرة فانضم إليها بعد الحرب العالمية الأولى كل من عبد القادر حمزه ، ومصطفى عبد الرازق ، والدكتور يعقوب صروف ، وعباس محمود العقاد ، ومصطفى

صادق الرافعي ، وعبد العزيز فهمي ، وإميل زيدان ، وإدجار جلاد ، وإيمي خير ، وحمدي يكن ، وداود بركات ، والشيخ رشيد رضا . كما أخذ يتردد عليها الشعراء ، أحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، وخير الدين الزركلي ، ثم تجاوزت شهرتها حدود مصر فأضحت محجة للمفكرين العرب والمستشرقين الذين كانوا يزورون القاهرة .

كانت مي تستقبل في ردهة فسيحة ، متصلة بغرف متاخمة لها ، كانت تفتح أبوابها لاستيعاب الضيوف ، عند اللزوم . وكان الطابع الشرقي يغلب على أثاثها ، وعلى اللوحات المعلقة على الجدران ، تتصدرها مكتبة ضخمة تحتوي سبعة آلاف مجلد من الكتب النفيسة باللغات العربية والفرنسية والانكليزية والألمانية والايطالية . وقد علقت مي على أحد جدران القاعة لوحة كتبت عليها الأبيات التالية :

للإمام الشافعي بخط فارسي :

إذا شئتَ أن تحيا سليماً مِنَ الأذى
وَحَظُّكَ موفورٌ وعرضُكَ صَيِّنُ

لسانُكَ لاتذكر بِهِ عَوْرَةَ امرىءٍ
فَكُلُّكَ عوراتٌ وللناسِ أَلْسُنُ

وعيناكَ إن أبْدَتْ إليكَ معايباً
فَصُنْها وَقُلْ : يا عينُ للناسِ أَعْيُنُ

وعاشِرْ بمعروفٍ وسامِحْ مَنِ اعتدى
و فارقْ ولكن بالتي هِيَ أَحْسَنُ .

كما كانت توجد في بيتها غرفة للموسيقى والمطالعة تلجأ اليها

للعزف على البيانو أو العود إما وحدها ، وأما مع بعض الأثيرين من أصدقائها . أما واجبات الضيافة فكانت تقتصر على القهوة والشاي ، وشراب الورد ، وبعض الحلويات الشرقية من صنع والدتها السيدة « نزهة » التي كانت تسقبل رواد الندوة مع زوجها وابنتها النابغة مي .

كان المسلم والمسيحي ، المؤمن والملحد كالدكتور شبلي شميل « الداروني » والمحافظ والمتحرر يؤمون كعبة الأدب عند مي ، وينسون فيها كل تباين في معتقداتهم وميولهم الأدبية والسياسية بفضل مهارتها في إدارة الجلسات،وجمع الشمل والإيحاء بالمساجلات . يكفي أن نستمع الى رأي عباس محمود العقاد في أهمية الندوة حيث كتب يقول :

(لو جُمعت الأحاديث والمناقشات التي دارت في ندوة مي لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة « العقد الفريد » ومكتبة الاغاني في الثقافتين العباسية والأندلسية) .

وبما أن جمع تلك الأحاديث أمر محال فلقد عكفت على جمع كل ما نشر عنها في الصحف والمجلات بقلم روادها وزوارها وصاحبتها بالذات . ومن حسن الحظ أنني وقفت على الكثير منها الذي أعطانا صورة واضحة عنها . فهذا العقاد نفسه يصف ندوة الثلاثاء في مقالة له نشرها في مجلة « الرسالة » ، عقب وفاة مي سنة ١٩٤١ ، وفيها يقول :

— ... وما تتحدث به مي ممتع كالذي تكتبه بعد روية وتفكير ، وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة ، ووهبت ما هو أدل على القدرة من ملكة الحديث ، نعني به ملكة إدارة الاحاديث والمناظرات

بين الجلساء المختلفين في الرأي والمزاج والمقام ، فيكون في المجلس عشرة : منهم الوزير والموظف الصغير ، المحافظ ، والمغالي بالتجديد ، ومنهم الوقور المتزمت ، والمرح والثرثار ، فاذا دار الحديث بينهم أخذ كل منهم حصته على سنة المساواة والكرامة ، وانفسح مجال القول لرأيه وللرأي المناقض له ، وانتظم كل ذلك في رفق ومودة ولباقة بفضل توجيهها وهي تنقل الحديث من متكلم الى متكلم كأنها تتوجه بغير موجه ، وتلك غاية البراعة في هذا المقام .

وكانت لها فطنة للضحك تحيي المساجلة ، وتزين الحوار ، كما كانت كبيرة الاعجاب بفكاهة المصريين التي تسميها : « النغاشة » أو القافية التي لاتعذر ولا ترحم . تذاكر الأدباء في مجلسها يوماً في مناقب رجل فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه غير أنها استأذنت أن تلومه أمامهم في أمر صغير فقالت : « كنت في الجامعة المصرية فقدمني اليه الأستاذ لطفي السيد فتفضل وأطرى كتاباتي العربية والأفرنجية بما شاء له فضله وتشجيعه ، ولكني لا أدري لماذا نسي أنني عربية ، وكاتبة عربية ، واختار أن يخاطبني باللغة الفرنسية وأصر على مخاطبتي بها مع إجابتي له بالعربية على كل سؤال ! » .

وبدا عليها أنها غضبت حقاً لعربيتها من أن يخاطبها مصري عظيم بغير لغته ولغتها ، وهي التي تتضمن خمس لغات . وتكتب بكل واحدة منها كتابة يرضاها القراء من أبنائها . ولقد تكون الواحدة من بناتنا ، وما تحسن لغة واحدة كلاماً ، فضلا عن الكتابة ، ثم لاتزال ترطن بها في البيت وفي الطريق مع أبناء جنسها وكأنها لاتفهم لغة غيرها ....

وواجب لمي في عنق العربية أن تغار على أدبها كغيرة مي على نسبتها

إليها ، فما عرفت كاتبة أفضل منها ، وأقدر وأجل ، وليس فضل الندوة أقل من فضل الإحسان والإتقان . حياها الله في ذكراها) .
كما أدلى الاستاذ العقاد بحديث الى المؤرخ « محمد عبد الغني حسن » نجد فيه وصفا طريفاً لاقطاب من الرواد فقال :

(اطفي السيد وأسلوب الفيلسوف « « الجنتلمن » ، وعبد العزيز فهمي وأسلوب الصمت الخجل كأنه الصبي في مجلس الفتيات ، وأنطون الجميل وأسلوب بائع الجواهر في العرض على الهوانم ، وشبلي شميل وأسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور ، وخليل مطران وأسلوب « موليير » على غير مسرح التمثيل ، وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات في صالون من أشهر الصالونات ... ومصطفى صادق الرافعي وأسلوب المفاجأة بالكتابة الذي يغني الاطلاع عليها عن السماع ، واسماعيل صبري وأسلوب الشاعر الذي يعلم ان حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من من حق الكتابة والتلميح ، وأحمد شوقي وأسلوب الايماء من بعيد) .

ولقد سئلت مي يوماً عن اقرب صديقين لها فأجابت : « انطوان الجميل وخليل مطران هما أقدم صديقين لوالدي ولي ، إن أنطون الجميل بائع مجوهرات ، ولكن خليل مطران يملك الجواهر ! »

كان بينها وبين خليل مطران مداعبات محببة الى نفسها غير انه كان يأخذ عليها الإفراط بالمجاملة الى حد الرياء ، فدافع عنها مصطفى عبد الرازق العقال : « ان مي لاترائي ولكنها تجامل في رشاقة ! »

---

(١) رجال عرفتهم – عباس محمود العقاد – كتاب الهلال – القاهرة ١٩٦٣ – ص : ٢١١ – ٢١٢

وعلى ذكر المغالاة في المجاملة التي غلبت على مجالس المجتمع المصري آنذاك أحب ان أشير الى نفوز عبد القادر المازني منها . لقد حضر ندوة الثلاثاء بصحبة عباس محمود العقاد مرة واحدة لم تتكرر ، غير أنه اعترف بمكانة مي الكبيرة في حديثه عنها لعبد الغني حسن ، وبأنه قصر معها يوم أهدت إليه كتابها : « الصحائف » و « ظلمات وأشعة » ولم يتناولهما في فصول كتابه النقدي : « حصاد الهشيم » .

وكان نجيب هواويني ، خطاط القصر الملكي ، من أوائل رواد الندوة ، و « الصديق المزمن » لمي ووالديها ، على حد تعبيرها . لقد اشتهر بلطف المعشر ، والبديهة الحاضرة ، والنكتة الطريفة ولكنه كثيراً ما وقع ضحية الدكتور شميل في الجلسات . فالدكتور شميل كان عصبي المزاج ، مصاباً بالربو ، في صوته غلظة ، وفي حركاته عنف ، ومن أصدقاء مي وأسرتها القدامى . وذات يوم رفع عصاه بوجه الهواويني مهدداً بضرب الذين يجادلونه بوجود الله ، فقد عرف عنه أنه كان ملحداً ، وهو أول من نقل الى العربية فلسفة « داروين » وشرح نظريته في النشوء والارتقاء . وكانت مي قوية الايمان ، تأسف لإلحاده وتقول له :

— « إني أعجب كيف تؤمن بداروين وتكفر بالله ! » .

كما أنها تجرأت عليه ذات يوم فقالت له :

— « قلمك يقول يا سيدي الجليل إننا أولاد القرد ، ولسانك يقول إننا أولاد الكلب . فالى أي واحد من الاثنين تستقر نسبتنا يا ترى ؟ » .

ولقد عثرت على وصف للدكتور شميل في مذكرات مي وهي تستجلي ذكريات ندوتها هذا نصه :

(أذكر لاسماعيل صبري مجالس رائعة عندنا مع المرحوم المطران دريان يتطارحان الشعر ، وأمامهما الدكتور شميل راكباً على كرسيه كالقائد يمتطي جواداً في صميم المعركة ، ويلقي الأوامر الموجزة الخطيرة في فيالق الميمنة والمسيرة ، والقلب ، لتنقض على العدو كالصواعق كذلك كانت نبرات الدكتور شميل وإشاراته ومعاني عينيه القادحتين شرراً إلا ساعة الهدوء والضحك ، وهو على صهوة كرسي الخيزران : ان اولئك الثلاثة ، على اختلاف مذاهبهم وميولهم ، لم يفترقوا يوماً إلا على اتحاد ووئام (١)) .

كان الدكتور شميل يعامل مياً كابنته ، ويؤنبها لفرط جدها واحتراسها فيقول لها مداعباً : « يا آنستي يا أم شبلي ! » ولقد حزنت عليه بعد وفاته سنة ١٩١٧ ورثته بكلمة تدل على تقديرها لعمله ومحبتها له : صحيح أن مي عرفت بالجد في صلاتها مع سائر الناس ،وصحيح أنها غالت في القسوة على نفسها . وذاك بشهادة سائر الذين عرفوها عن كثب ، ولا سيما الدكتور طه حسين ، وعباس محمود العقاد ، وإني لموقنة ، سيداتي وسادتي ، بأنها لو لم تكن رصينة في سلوكها ، وجدية عفيفة في طبعها لما أحرزت تلك المنزلة الرفيعة ، والسمعة الطيبة في عصرها، ولما اكتسبت احترام الرجال الذين استقبلتهم في بيتها يوم كانت المرأة معزولة عن كل نشاط اجتماعي . واسمحوا لي أن أشير الى الصورة المشوهة التي أبرزها بها مسلسل تلفزيوني مصري عرض في البلاد العربية سنة ١٩٨٠ عنوانه : « « العملاق » كان المقصود بالعملاق عباس محمود العقاد وقد استند المخرج الى كتاب نشره عامر العقاد

(١) مذكرات مي زيادة — جميل جبر — دار الريحاني — بيروت ١٩٥١ — ص ٩١

بعنوان : « غراميات العقاد » بعد وفاة عمه الكاتب الكبير ، وجنح فيه بخياله لما يتنافى مع الأمانة التاريخية والخلق والوفاء . مما يؤسف له كثيراً ظهور العقاد في المسلسل المشار اليه بمظهر القزم في بعض المشاهد ، وظهور صديقه عبد القادر المازني بمظهر المهرج ، وظهور مي زيادة بمظهر الغانية المستهترة في سلوكها وتبرجها ، والهائمة بحب العقاد ، الساعية للالتقاء به خفية عن أعين الرقباء ... إني لست أدافع عن العقاد والمازني ومي إنما أدافع عن الحقيقة ، وعن شرف هؤلاء الثلاثة ، ولا سيما مي التي اشتهرت باحتشامها وعفتها في سائر أدوار حياتها . ولا بد من الاشارة الى أن قلب مي لم يخفق الا لجبران خليل جبران ، ذلك العبقري المغترب الذي راسلها وراسلته خلال حوالي عشرين سنه الى أن طواه الردى سنة ١٩٣١ .

نعود الى وصف الندوة وروادها الذين ملكت عليهم مي قلوبهم حباً وإعجاباً وإجلالاً فننقل ما رواه ، كامل الشناوي عنها ، وعن أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد الذي كان اه أثر كبير في توجيه ثقافتها العربية . كتب الشناوي يقول :

(كان لطفي السيد محدثاً ابقاً يتخير الجملة في كلامه ، ويحسن استعمال صوته ارتفاعاً وانخفاضاً وكانت الأناقة حائرة بين قوامه وهندامه ، ولكنه لم يعشق مي ولم تعشقه مي إنما كان يحب جوها المشبع بالجمال والذكاء والثقافة ، وكانت تحب جوه المشبع باللباقة والأنس والفهم .

وعلى ذكر الأناقة تجدر الاشارة الى أن هؤلاء الكتاب والوجهاء والشعراء كانوا يتأنقون في ألبستهم إلا واحداً هو مصطفى صادق

الرافعي اذ كان يصل من طنطا الى القاهرة بالقطار ، مساء كل ثلاثاء ، ويتوجه من المحطة تواً الى بيت مي وعليه كل ما في الطريق من غبار !..:
ويقول الشناوي في كتابه : الذين احبوا مي (لقد لمحه حافظ ابراهيم يوماً مرتدياً بدلة جديدة فبادره قائلاً :

أنت اليوم متنكر يا مصطفى . . . أمال فين التراب اللي على بدلتك (١) ان ما لا ريب فيه هو أن الرافعي عشق مي عشقاً عذرياً أوحى اليه روائعه الثلاث : « رسائل الاحزان » ، و « السحاب الاحمر » و « أوراق الورد ! » ولا ريب في أنه توهم أنها بادلته ذلك العشق ، ولكن الحقيقة التي لايرقى اليها الشك هي أنه كان عشقاً من جانب واحد ، على الرغم مما جاء في كتاب سعيد العريان عن حياة الرافعي ، وذلك بدليل الرسائل المخطوطة من الرافعي الى مي التي وفقت بالعثور عليها في مصر ونشرتها في كتابي « مي زيادة وأعلام عصرها ، وثائق جديدة لم تنشر » . ان هذه الرسائل هي التي جلت هيام الرافعي بمي ، وصدها له ، وغضبه ، الشديد من ذلك الصد . على سبيل المثال أحب أن أقرأ عليكم ثلاثة أبيات من شعره استهل به رسالة عتب إلى مي ، بتاريخ السابع من شهر تموز « يوليو » سنة١٩٢٣ :

يا نسمةً في ضفافِ النيل ساريةً
مسرى التحيةِ من ناءٍ الى نائي

يا ليتَ رياكِ مسَّتْ قلب هاجرتي
فتُشعريه بمعنى رقةِ الماءِ

(١) كامل الشناوي — الذين أحبوا مي . دار المعارف — القاهرة ١٩٧٢ — ص : ١٤ — ١٥

ليســـــت تُحـــب ســـوى ألا تحبَّ فما
أعصى الدوا إن يكـــــن مـــن حُبِّها دائي !

ثم أضاف الرافعي يقول لها :

(هذا وان النفس لتنازعني إليك ولكني لم أتطفل على أحد من قبلك ، ولن أتطفل مرتين) (١) .

وإثباتاً لما أوردت استشهد بما كتب صاحب الرسالة ، أحمد حسن الزيات ، في هذا الصدد حيث قال :

(كان لميّ وندوتها في أدب العصر آثار وسمات : لقد ألهمت صبري ، وأوهمت الرافعي ، وألهبت جبران ، ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان ، متنوعة الأفنان ، أضافت ثورة الى ذخائر الفكر الإنساني) (٢) :

ان ما سبق ذكره لا ينفي أن مي كانت تؤثر صحبة بعض رواد صالونها الأدبي على صحبة غيرهم أذكر منهم العقاد ، وطه حسين ، ويعقوب صروف ولطفي السيّد والجميّل ومطران ، فلتستمع الى طه حسين يحدثنا عن ودها له ولهم ، في مذكراته :

(أتيح لي أن أكون من خاصة مي بفضل الأستاذ لطفي السيد فكنت أتأخر في الصالون حتى ينصرف الزائرون ، وما أكثر الليالي التي انصرفوا فيها ولم يبق منهم إلا الأستاذ لطفي السيد ، ومحمد حسن المرصفي وأنا . في ذلك الوقت كانت مي تتفرغ لنا حرة ، سمحة ، فنسمع من حديثها

---

(١) مي زيادة وأعلام عصرها – سلمى الحفار الكزبري – مؤسسة نوفل بيروت ١٩٨٢ – ص ٢٢٨

(٢) وحي الرسالة – أحمد حسن الزيات – الجزء الثاني من الطبعة السادسة ص : ٣١٥

وإنشادها ، ومن عزفها وغنائها . ويظهر أنني لن أنسى صوت مي حين كانت تغنينا أغنية لبنانية مشهورة : « ياحنينة » ، وتغنينا في اللغات المختلفة وفي اللهجات العربية المختلفة)

فاتني أن أذكر صلة مي الودية بالشاعر الرقيق ولي الدين يكن ، فلقد دونت بعض الذكريات عنه في صالونها فكبتت مايلي :

(في إحدى زياراته لنا رأيت نظره جامداً وعندما سألته مابه قال مشيراً إلى زهرة ليلكية في ثوبي :

– « هذه ! ! ! يحزنني يامي هذا اللون الليلكي ! »

فحاولت نزع الزهرة ولكنه قال :

– « لا تفعلي أرجوك ، يحزنني أن أراها ، ويحزنني أكثر من ذلك أن تنزع . »

وأنشدنا في ذلك المساء أبياتا « من شعره الحزين . كما رأيناه مرة ، يضطرب وتتغير ملامحه لمجرد سماع أبيات من قصيدة : « الأسد الباكي » كان ينشدها خليل مطران وهي :

أنـــا الأسدُ البـــاكي ، أنا جبـــلُ الأسى
أنـــا الرّمْسُ يمشـــي دامياً على أرماسي

فيـــا منتهـــى حُبّي الى منتهى المُنـــى
ونعمـــةَ فكري فوق شقّوةِ إحـــاسي

دَعَوْتُـــكَ استشفـــي إليـــكَ فوافِني
عـــلى غَيْـــرِ عِلمٍ منكَ أنـــكَ آسي

فهتف وليّ الدين :

– كفى. ! آه خليل ! لو سُئلتُ كيف يُنظّم موكبُ دفني ، لتمنيت أن ترثيني أنت بأبيات ينشدها عزيز نصر على مقربة من نعشي السائر (١)) .

وكان وليّ الدين معجباً بمقالات مي الأولى فوجه إليها الرسالة التالية سنة ١٩١٤ :

(فصولك الغضّة تعلو بالمدارك وتنير جوانب النفوس فلا تدعيها كالأوراق التي تخضرّ في الربيع ، وتذوي في الشتاء . إجمعيها غضة وكلّلي بها رؤوس هذه الأعوام ، فالناس يامي في حاجة إلى الأنغام الإلهية) .

واقترح في الندوة أن يقرأ رسالته إليها فلاقت منا شدته صداها إذ تعهد صاحب مجلة الهلال إميل زيدان بنشر مقالاتها الأولى في كتاب صدر بعنوان : « سوانح فتاة »

من خلال الرسائل التي كانت تتلقاها مي من رواد ندوتها وقفت على حادثة طريفة » جرت في ندوة الثلاثاء مفادها ان المجتمعين استغرقوا ذات مساء في نقاش جاف حول الأفعال وتصريفها ، فضاق صدر الكاتب حمدي يكن مما سمع ،وبعث الى مي ، في اليوم التالي ، كلمة قال فيها :

(. . . وأما فرض زيارتك فواجبه الأداء ، وسيكون في الأسبوع

---

(١) الصحائف -- مي زيادة - مؤسسة نوفل – ص ٨١ – ٨٢ (بيروت)

الذي يلي هذا الأسبوع شرطَ ألا يكون فينا من يصرّف فعل : « آمَنَ » ثم يتوسع فيه إلى مالا يطاق ، مما تفرقع له جوانبي ! وما زالت أحاول أن أنسى ما خرق طبلة أذني في اجتماعنا الماضي) . . .

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أمست ندوة مي محجة لأهل العلم والأدب المقيمين في مصر ، والوافدين الى القاهره من عرب وأجانب . وكانت مي تدعو الشخصيات المرموقة إليها ، وتحتفي بهم في صالونها لتوطيد أواصر المعرفة بينهم وبين أصدقائها أعلام العصر . فعندما قدم العالم الأب انسطاس ماري الكرملي من بغداد سنة١٩٢١ احتفلت به في بيتها وتلقت منه رسالة مطولة بعد إيابه الى بغداد جاء في آخرها مايلي :

(. . . اذا واجهت الدكتور صروف ، ولطفي بك ، وخليل مطران بك وسركيس وكل من عرفتني إليهم أرجوك أن تهدي اليهم أصدق تحياتي ، وفقك الله وبارك في أيامك وأعانك في أمورك) .(١)

ويوم علمت بوصول فيلسوف الفريكة أمين الريحاني الى القاهره سنة ١٩٢٢ أقامت حفلة كبرى على شرفه ، ألقت فيها خطاباً نشرته المقتطف بعنوان : « الريحاني وفضل المشرق » وكان مما جاء فيه قولها :

(غير أنني ماذكرت الريحاني الا ذكرت انه كان جليسي يوم كنت أتلقن اللغة العربية على نفسي ، وعلى حبي لها . كان جليسي في « الريحانيات » وكانت « الريحانيات » من الكتب الخمسة أو الستة التي عرفتني باتجاه الفكر العربي الحديث في صيغتي النثر والشعر) .

ومن الذين كرمتهم في ندوتها الأدبية الأستاذ جبر ضومط سنة

---

(١) مي زيادة وأعلام عصرها ، وثائق جديدة لم تنشر - سلمى الحفار الكزبري ص ٢٤٣ مؤسسة نوفل — بيروت .

١٩٢٣ فعددت مناقبه وفضله في تدريس اللغة العربية لعدد كبير من طلاب العلم في بيروت ، وفي غرس حب تلك اللغة في نفوسهم . كما نوهت بالاحتفال السخي الذي كان قد أقامه لها الأستاذ ضومط في منزله الصيفي في « سوق الغرب » في لبنان ، عندما زارته في فرصة الصيف .

ولا بد للباحث عن صالون مي الأدبي من أن يذكر أن فكرة الاحتفال بيوبيل المقتطف الذهبي انبثقت منه سنة ١٩٢٥فتشكلت فيه لجنة لاعداد الاحتفال الكبير ضمت كبار الشخصيات فكان رئيسها وزير المعارف المصرية محمد توفيق رفعة باشا ، وطه حسين والعقاد ولطفي السيد ، وشوقي والجميل من أبرز أعضائها ، فانتخبوا مياً « أمينة » للسر .

ولقد استغرق الأعداد لذلك الاحتفال ما يقرب من سنة كرست مي خلالها الكثير من الوقت والجهد فاتصلت بالشخصيات وبالمؤسسات العلمية والثقافية العربية في المشرق وفي المغرب وفي المهجر ، ولاقت منها الاستجابة للمشاركة ، مما جعل الاحتفال ، الذي أقيم في ربيع سنة ١٩٢٦ مظاهرة ثقافية وأدبية وعلمية ناجحة للغاية .

وعندما زار القاهرة الشاعر السوري خليل مردم بك سنة ١٩٢٦ استقبلته مي ، وجرى بينهما حديث شيق نقله في مقالة نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بعد رجوعه اليها ، هذا بعض ما جاء فيها :

(. . . كان من ترحيب مي بي ومجاملتها قولها إن مصر ترحب بي وأن أدباءها حريصون على التعرف بي شخصياً،وإن كانوا لا يجهلوني. ثم أطرت رسالتي عن شعراء الشام وقصيدتي في شوقي ، وكان من

من دعابتها أن قدمت لي لفافة وأرادت أن تقدح عود ثقاب فبادرت اليه قبلها فقالت :

ـ دعني أقبسك النار ولا تخف فهي نار باردة . . .

فقلت :

ـ أنا أحرق نفسي .

ثم سألتني عن كارثة دمشق فقالت بصوتٍ مملوء حنواً :

ـ ان كان لا يؤلمك أن تقص علي كيف وقعت الواقعة فحدثني

فقلت :

ـ نعم ياسيدتي فمن الألم ما يفيد .

وأخذت أقص عليها ما شهدت بعيني من الواقعة فكانت تظهر ألماً . وحزناً « واستياءً » وتقول :

ـ لا أقدر أن أتصور دمشق محروقةً ، تلك المدينة التي يتمثل بها جمال الشرق وجلاله ، وتبعث في نفس الرائي الحرمة والروعة .)

ان هذا الحديث يدلّ على اطلاع مي الواسع على ما كان يجري في الوطن العربي من نشاطات أدبية ، وأحداث قومية ، في سبيل التحرر من الاحتلال الأجنبي المسيطر عليها . ولقد امتازت شخصيتها بثقافة غنية أدهشت معاصريها ، وأثارت إعجابهم بها وتقديرهم لها . كان من هؤلاء المعاصرين العالم الأمير مصطفى الشهابي الذي زارها سنة ١٩٣١ . ونشر ، بعد رجوعه إلى دمشق ، كتاباً « عنوانه : « الشذرات » أورد فيه هذا الوصف لها :

زرت الآنسة مي ، كبيرة أديبات العربية في يومنا هذا بلا منازع ، مع صديقي العلامة أمين باشا المعلوف ، صاحب « معجم الحيوان » ، فاذا بي في دارها وكأني في هيكل الأدب الأسمى ، وقدس العبقرية والنبوغ . واذا بحديثها ينم على أدق ما تلمسه مشاعر الانسان ، وقد خيل الي انني في حضرة سيدات الملأ الأعلى اللواتي كنت أقرأ عنهن في كتب الأدباء الفرنسيين . وما كدنا نودعها ونخرج حتى ابتدرني الصديق الأمين قائلاً : « إنها مخيفة ! » فقلت : « صدقت ياباشا ، وماذا أخافك منها ؟ » قال : « حدة ذكائها ووفرة معلوماتها الأدبية . » فقلت : « أما أنا ففرط إحساسها لدقائق الحديث حتى كدت أرى نفسي غير قادر على مجاراتها) !

أما الضيوف الأجانب الذين حضروا بعض جلسات ندوة الثلاثاء فان من أبرزهم المستشرقين الكبيرين « كارلو ألفونسو نالّلينو » و « ميجيلانجلو غويدي » ووفد من الأدباء الهنود الذي حملته رسالة تحية للشاعر طاغور ، وتلقت منه قصيدة باللغة الانكليزية اهداها اليها وكان عنوانها : « طائر الصباح » .

سيداتي وسادتي : إذا تابعنا دراسة صالون مي الأدبي نرى أن بابه أوصد في وجه الكتاب والشعراء المعاصرين لها سنة ١٩٣٢ ، عقب وفاة أمها ، التي سبقها حادثان أحزنا مي حزناً شديداً هما موت أبيها ثم موت جبران خليل جبران .

لقد استبدت بها الأحزان ، وآثرت العزلة ، غير أنها استأنفت نشاطها الأدبي سنة ١٩٣٥ ، وأخذت تستقبل عدداً قليلاً من الأدباء، بين حين وآخر ، وتعقد معهم اجتماعات لمعالجة الأمور الهامة . كانت

مي تكره الخصومات . وتحرص على توطيد أواصر الصداقة بين كتاب عصرها ، فقامت بأدوار مهمة للتوفيق بين ذوي النزعات المختلفة ، منها دورها في مصالحة صديقيها الدكتور طه حسين مع الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وذلك في إثر فتور وقع بينهما .

لندع حسن الزيات يروي انا ما حدث بقلمه ، نقلاً عن افتتاحية نشرها في عدد فبراير (شباط) من مجلته الرسالة سنة ١٩٣٥ ، تحت عنوان : « مجلس نادر » :

(نعم مجلس نادر ، وندرته في طبيعة الغرض منه وشخصية الداعية اليه ، وقيمة الجالسين فيه . كان الغرض منه اصلاح ما بين أخي طه حسين وبيني ، وكانت الشخصية الداعية اليه الآنسة الجليلة ميّ ، وشخصية ميّ في العصور الأخيرة نادرة . وكان الجالسون فيه الدكتور طه ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور أحمد زكي ، والأستاذ محمد عبد الله عنان فانسجم البهو الذي سمرنا فيه باثاثه ونظامه وألوانه وضوئه مع ذوق الآنسة الشاعرة ، فكان نمطاً من الحديث أذكى المشاعر ، وألهم الأذهان . قالت الكاتبة وقد انتظمنا حولها عقداً كانت هي واسطته :

— أرجو أن تكونوا شخصاً واحداً .

فقال لها الدكتور طه :

— نعم ، وتكونين أنت روحه !

وعلى ظرف هذا الخطاب،وبراعة هذا الجواب جرى إسقاط الحديث وكانت الآنسة مي تصرف الحديث ، وتساجل هؤلاء الأعلام ببديهة

حاضرة فمثلت لي صورة من صور الأديبات اللواتي أنشأن مجالس للأدب في عهوده الزاهرة كسكينة بنت الحسين، وولادة بنت المستكفي، ومدام دو رامبوييه ممن وفقن بين البلاغة واللغة ، وبين الأدب والذوق ، وبين الفن والسمو ، ثم وشين عصورهن بألوان شتى من أناقة العرض ، وجمال الأداء ، وحسن المبادهة ، ولقد تشقق الحديث عن صور من لفتات الذهن النشيط ثم مسحت مي بيدها الساحرة ما كان بين الصديقين ، فاذا الماضي يعود كله ، واذا الحاضر يذهب كله وعلاقة هذين الصديقين علاقة نشأت مع الصبا، وتوثقت مع الزمن . فلما نال منها العهد المجرم ، الذي نال من كل شيء جزعت الآنسة الكريمة فيمن جزع ، وظلت تتحين المناسبة لسفارة الوفاق والمودة ، حتى تم لها ذلك ليلة الأمس .)(١)

كما ان لمي مأثرة مماثلة وفقت فيها بمصالحة طه حسين مع فؤاد صروف ، في أعقاب صدور ديوان : « أنفاس محترقة » للشاعر محمود أبو الوفا ، بمقدمة كتبها الدكتور فؤاد صروف . ذلك أن الدكتور طه نشر مقالة نقدية في جريدة : « الوادي » تهجم بها على الشاعر وشعره الذي سماه نظماً ، ولام فيها الدكتور فؤاد على اهتمامه بتقديمه . فاستاءت مي من تحامل صديقها طه حسين على الاثنين معاً ، ودعته لزيارتها في بيتها ، ذات مساء ، كما دعت فؤاد صروف للغرض ذاته ، في موعد حددته له . جاء طه حسين أولاً وشكى لمي ضيقه بسبب فصله من الجامعة المصرية ، ولكي تسري عنه رددت على مسمعه قول الشاعر :

أوَدُّ أضْحَـــكُ للدنيـــا فيَمنَعُني
أن عاقبتنـــي على بعضِ ابتساماتـــي .

---

(١) مجلة الرسالة – السنة الثالثة – العدد ٨٣ تاريخ ٤ فبراير سنة ١٩٣٥ – ص : (١٦٠)

فوجم الدكتور طه ثم سألها :

ـ لمن هذا الشعر ؟ إنه لم يعرض لي من قبل .

أجابت مي :

ـ لواحدٍ من الشعراء ، والشعراء كثيرون نحفظ شعرهم وننسى أسماءهم . . . فالح عليها في معرفة قائل هذا البيت الجميل الذي ارتاحت له نفسه فقالت له :

ـ إنه لمحمود أبي الوفا !

فندم على القسوة التي قساها على الشاعر ، وطلب منها أن تكتم ما حدث عن الناس ، فقالت له :

ـ بشرط ألا أكتمه عن فؤاد صروف الذي ناله مانال من نقدك . . .

وفي تلك اللحظة وصل الدكتور فؤاد وانضمّ إلى المجلس فروت له ميّ ما وقع مستأذنةً في ذلك طه حسين . وكان أن أصلحت ما تصدع بينهما إذ كفّ الدكتور طه عن حملة النقد المرة على الشاعر أبي الوفا ، نادماً على تسرعه في قيادتها) (١) .

وهكذا ترون ، أيها الأصدقاء ، أن صالون مي الأدبي كان ظاهرة من مظاهر النهضة العربية الحديثة لإسهامه في تنشيط الحركة الفكرية ، وتطوير الحياة الاجتماعية بفضل شخصيتها ، وجهودها الجبارة ، وثقافتها وشجاعتها .ومما لاريب فيه هو أن انعقاد تلك الندوة في منزلها ، والمثابرة على إحيائها ، عنصر أساسي في نجاحها ، إلى جانب معاصرتها لطائفة من صفوة الكتاب والشعراء العرب في زمنها .

(١) نشر هذه الرواية البحاثة الأستاذ وديع فلسطين في مجلة الأديب عدد نوفمبر ١٩٧٢

وختاماً أحسب أن أفضل ما أختم به هذه الرحلة الفكرية التي تكرمتم بمصاحبتي فيها هو أن أردد على مسامعكم الأبيات التي أنشدها أمير الشعراء أحمد شوقي في ندوة مي ، طيب الله ثراهما :

أسائِـــــلُ نفسـي عما سبانـــي
أحُـــسْــنُ الخَلْــقِ أمْ حُسْنُ البيانِ ؟

رأيْـــتُ تنافُسَ الحُسْنَيْنِ فيـــها
كأنّـــهُمـــا لِمَيّـــة عاشقـــانِ

إذا نَطَقَـــتْ صبا عَقْلي إلَيْها
وإن بَسَمَـــتْ إلَـيَّ صبا جَنَـاني

ومـــا أدْري أتبَسَمُ عــن حَنيـــنٍ
إلـــيَّ بِقَلبِـــها ، أمْ عن حنـــانِ

أمْ أنَّ شبابَـــها راثٍ لِشَيْبـي ،
ومـــا أدْهــى زمانـــي من كيـاني !

وشكراً لكم ، سيداتي وسادتي ، على تشريفكم إياي بالحضور وطاب مساؤكم .

* * *

الشاعرة اليزابيت باريت براوننغ
١٨٠٦ – ١٨٦١

محاضرة ألقيت في النادي العربي بدمشق في
١٣ / ١ / ١٩٦١

(قل لي مرة بل مرات « أحبك » ماذا تخشى
هل يخشى الانسان طفرة الأزهار في شهر آذار ؟
وهل يخشى كثرة نجوم السماء تلمع وتبتسم ؟
قل لي إنك تحبني وزد في رنات هذا الجرس الفضي
من غير أن تنسى أبداً أنك تحبني
في أعماق قلبك ، دون بوح ، وكلام ...)

ان سيرة إليزابيت باريت براوننغ قصة انسانية رائعة قلما سمعنا بمثلها. إنها قصة واقعية تكاد تكون خيالية لما تخللها من مغامرات ومفاجآت ، من ألم وهناء ، فان الشاعرة التي ماتت منذ مائة عام « إليزابيت باريت براوننغ » ، والتي ترجمت قصائدها الى عدة لغات ، تعتبر مثالاً نادراً للنبوغ النسائي في الشعر مما جعل النقاد والمؤرخين يضعونها في مصاف كبار شعراء العالم . كتب عنها الكثيرون ، قديماً وحديثاً ،

منهم الكتابة الانكليزية دوروثي هيوليت. والاديب الفرنسي « أندريه موروا » و « بيتي ميللر » وغيرهم كثيرون من الذين اهتموا بدراستها وكتبوا عنها وعن زوجها الشاعر الكبير « روبيرت براوننغ » ، ولعل من أجمل ما في سيرة هذين النابغين الخالدين الاعجاب الصادق بينهما ، الذي دام طيلة حياتهما ، والذي أصبح مثالاً نادراً في سير النبغاء . كانت إليزابيت تشعر بتفوق براوننغ عليها ، وتضعه في مصاف أبطال الشعر ، وكان هو سعيداً باكتشاف نبوغها ، وواثقاً من أنها أعظم امرأة قالت الشعر في الأدب الانكليزي . لقد رزق أبوها المستر باريت (وكان رجلاً ثرياً من أغرب الناس طبعاً في القرن التاسع عشر) ، ثلاث بنات وتسعة صبية ، وشاءت المقادير أن تكون إليزابيت كبرى بناته . كان قاسياً الى أبعد حدود القسوة ، وأنانياً مفرطاً في أنانيته فاستعبد بناته وأبنائه ، وحرمهم من مخالطة الناس خوفاً من أن يشاركه أحد في التأثير عليهم ، كما فرض عليهم الا يتعرفوا إلا بمن يريد ، وألا يحبوا أحداً غيره ! كانت كلمتا : (الأمر والطاعة) من أهم محتويات قاموس كلامه معهم ومع أمهم لأنه هو السيد المطلق الذي فرض على هذا الجيش الصغير الطاعة العمياء . إن من أطرف ما فعله المستر باريت في حياته أنه أطلق على الصبيين الأخيرين اللذين رزق بهما إسمين غريبين بدافع شذوذه اذ سماهما بكل بساطه : السابع ثم الثامن ....

كانت أسرة المستر باريت تعيش في قصر ريفي بالقرب من لندن ، ولدت فيه إليزابيت عام ١٨٠٦ ،وكانت أكثر الأولاد حساسية وتمرداً . بدأت تتمرد على سيطرة أبيها منذ نعومة أظافرها ، — وبدأت ، وهي في عامها الرابع ، (على ذمة أندريه موروا) تعبر عن حاسيتها المرهفة وخيالها الخصب بأشعار ساذجة جميلة ، نبهت الأب الطاغية الى نبوغها ،

ولكن غرابة أطواره حالت بينه وبين تفهم هذا النبوغ ورعايته . ولقد أثر الضغط الشديد الذي فرضه عليها تأثيراً سيئاً على أعصابها وصحتها ، جعل منها ، وهي في عنفوان العمر ، فتاة ، مريضة معقدة .

تجلى هذا الضغط العنيف على إليزابيت وإخوتها كلهم منذ ان رأت أعينهم النور إذ حرم عليهم أبوهم الخروج من الدار والحديقة الواسعة المحيطه بها ، وجعل حدود عالمهم تنتهي عند سورها الخارجي الضخم . كما أنه لم يسمح لاحد منهم بارتياد مدرسة خوفاً عليهم من الاحتكاك بأمثالهم من الأطفال ، فأحضر لهم المدرسين والمدرسات ليعلموهم في البيت — وفي ساعات معينة — ما أراد لهم ان يتعلموه : القراءة أولاً ، ثم الطبيعيات والعلوم والآداب . ولماأ صبحوا قادرين على تعلم اللغات أحضر لهم من يعلمهم اللغتين اللاتينية واليونانية ، ولابد من الإشاره الى أنه كان يملك مكتبة غنية ساعدت أولاده على التعمقبالعلوم والآداب ولكن اليزابيت كانت الوحيدة التي تشارك اخوتها في دروسهم ومطالعاتهم لأنها كانت مولعة بالعلم،صبورة على المطالعة والمناقشة ، ومتعطشة لمعرفة كل جديد .

ألقت الشاعرة الصغيرة أولى قصائدها أمام أبويها وهي في الثامنة من العمر ، ولما بلغت العاشرة ألفت مأساة مدهشة قامت بتمثيلها في الدار بالاشتراك مع إخوتها فوزعت عليهم الأدوار،وتولت بنفسهاإخراج المسرحية . لقد حظيت بتقدير أبيها منذ ذلك اليوم ثم برهن عن إعجابه الكبير بها يوم أمر بطبع خمسين نسخة من ملحمة شعريه كتبتها ، وهي في الثالثة عشرة ، عن معركة « ماراثون » ، كما أمر بتوزيع النسخ على أهل الدار ، وعلى رهط قليل من أقربائه وأصدقائه ، من غير أن يسمح

لهم برؤية الشاعرة الصغيرة ! وكانت إليزابيت في تلك الفترة من عمرها متأثرة بتوجيه معلم إخوتها ، الأديب الأعمى المستر « بويد BOYD » فأولعت بادباء الإغريق ، وأتقنت اللغة اليونانية القديمة بسرعة وأضحت تطالع الآثار القديمة فيها بنهم وشوق . بلغ ولعها حداً بعيداً جعلها تقدم القرابين في الخفاء لآلهة الأغريق ، وتضع في حديقة الدار تمثالاً ضخماً مصنوعاً من الحشائش لهيكتور . كان الأستاذ « بويد » يأتي الى بيت أبيها لتعليم إخوتها الذكور فقط ، فاحتجت بشدة على منعها من متابعة الدروس وأضحت تنتابها نوبات عصبية حادة لم تتوقف الا عندما سمح لها أبوها بحضور جلسات الاستاذ الاعمى ، فأحبته كثيراً وأصبح بالنسبة اليها الصديق الوحيد،والموجه الوحيد . عندما بلغ أخوها « ادوارد » عامه الثالث عشر قرر أبوه أن يرسله الى المدرسة لمتابعة دراسته فطالبت اليزابيت بمرافقته ، ولكن المستر باريت رفض طلبها رفضاً حاسماً لأنها فتاة ، ولأن التقاليد تقضي بأن تعيش البنات في البيوت ، لا في المدارس ! عندئذ ثارت ثورة عنيفة ولكن دون جدوى ، غير أن أباها سمح لهما بالطواف في مكتبته ، كلما شاءت ، بعد أن أوصاها بقوله : (إقرأي الكتب التي في هذا الجانب من المكتبة ، ولا تقربي أبداً من الكتب الموجودة في الجانب الآخر !) وجدت في الجانب المباح مؤلفات أفلاطون هوميروس وشكسبير وميلتون وبايرون والكتاب المقدس ، ولكنها لم ترض بهذا وحده لأنها لم تجد فيه مايشبع رغبتها القوية للمعرفة والاطلاع . كانت تتطلب المزيد من موارد الفكر لتنهل منها ، ومع ذلك قرأت ما وقع بين يديها وحفظته عن ظهر قلبها ، ثم تفتحت قريحتها فكتبت مذكراتها ، وقصائد موثرة ، ضمنتها ثورتها على الظلم ، وشوقها للانطلاق ، وحبها للحرية . في تلك الآونة تملكها الشعور بالنقمة على

الطبيعة التي لم تجعلها ذكراً إذ وجدت في معاملة أبيها لاخوتها الذكور بعض اللين . كانت تؤمن بأنها ليست أقل منهم كفاءة ومقدرة لأنها كانت تتفوق عليهم في ركب الجياد في حديقة القصر ، وتبذهم في الدراسة وكتابة الشعر ، والشغف بالمطالعة ، فكتبت قصيدة رائعة تقول فيها : (كثيراً ماتاقت نفسي الى الانطلاق بينما الناس كلهم نيام ، وطالما تاقت روحي الى الهرب من سجن الجسد لأتخطى المروج ، وأسير على الدروب الى أن أبلغ قمة الجبل ، فأرتع عليها ساعة أو أكثر أسامر النجوم ، ثم أعود الى البيت قبل أن يصحو أحد) .

ظهرت على اليزابيت بوادر الضعف الجسماني بعدما أيقنت بان أباها لن يخفف من قسوته ، ولن يلين في معاملته ، فيئست من الحياة ، وانتابتها نوبات عصبية حادة ، وباتت تشكو من آلام متواصلة في رأسها وفي مفاصلها مما جعلها تقرر البقاء في الفراش احتجاجاً على الظلم والحرمان . لقد لازمت السرير حتى في الأيام التي كانت تشعر فيها بتحسن في صحتها ، فأحضر لها أبوها الطبيب تلو الطبيب لمدا واتها ، فلم يجد الأطباء فيها علة جسمانية واضحة ، بل أجمعوا على أن العلة نفسية . أما المستر باريت فقد كان بعيداً عن الاقتناع بهذا الكلام ، ولم يكن مستعداً للتنازل عن مبدئه في تربية بناته ، مع أنه كان يحبهن ولكن على طريقته الخاصة ! وهكذا ، ومع انقضاء السنين أصبحت إليزابيت الشاعرة فتاة مقعدة لا تقوى على الحراك ، فشبت في عزلة عن العالم ، مقيدة بالأغلال ولا ريب في أن العزلة شحذت موهبتها الشعرية ، وأن القيود دفعت روحها للجموح ، وخيالها للانطلاق في عالم رحب لاحدود له ، لأنها سجلت ، وهي في فراشها ، أجمل ماكتبت شعراً باللغة الانكليزية ، وأعمق وأرق ما قيل في وصف

الانسان والطبيعة . ثم لاحظت أن أباها أصبح يعاملها برقة غير مألوفة ، وأنه أخذ يعطف عليها، ويحيطها بعناية فائقة كمشاركتها في القراءة أحياناً ، وجلب الكتب اليها بسخاء ، والأدوية المقوية ، وكل ما كانت تطلبه تقريباً ، كما أنه أذن لها باقتناء كلب من كلاب الصيد اسمه فلاش فأصبح سلوتها الكبرى وأضحى ، بعد مدة وجيزه ، شديد الغيرة عليها ، فاذا صح ان نسمي المستر باريت المستبد الكبير . وجب أن نسمي « فلاش » المستبد الصغير .

بعد أن عاد أخوها « ادوارد » من مدرسته صادقته إليزابيت وكانت قد تحولت غيرتها منه ، في مطلع صباها ، الى حب جم ، ووجدت في عشرته متعة فائقة . كانت تعقد الجلسات الأدبية في غرفة نومها بحضوره وحضور استاذهما الأعمى المستر (بويد) فتدور المناقشات في التاريخ والشعر والنثر ، ثم يلح الجمهور المؤلف من الرجلين : الأديب الاعمى ، وادوارد المعجب بموهبة أخته ، لتلقي الشاعرة المقيدة قصائدها العذبة بصوتها الموسيقي الرخيم ، مما كان ينقلها معهما الى عالم مسحور يزخر بالظلال الوارفة ، والينابيع الصافية ، والأطيار الشادية ، والعواطف النبيلة ، والنفوس الخيرة . كان هذا العالم الهانيء غذاءً روحياً للشاعرة المتألمة كما كانت قراءة بايرون وشيللي ، وشاعر شاب يدعى روبيرت براوننغ ، الملجأ الوحيد لتلك النفس الكبيرة التي قدر لها ان تعيش في الظلام، والحرمان . ولم تنقض بضعة شهور على عودة صديقها وأخيها إدوارد الى الدار حتى أصيبت بالتهاب رئوي حاد أنهك قواها فأشار الاطباء على أبيها بضرورة إبعادها عن جو الرطوبة فلان وسمح بإرسالها الى مكان دافيء للاستشفاء على الشاطيء الجنوبي مع أخيها إدوارد وهنالك نعمت اليزابيت بأشعة الشمس التي نفذت الى

جسمها العليل لتنعشه وتغذيه ، وأنست بجوار البحر ، وبأحاديث أمواجه ، وهمسات رماله . ولكن القدر القاسي كان لها بالمرصاد لأن سعادتها لم تدم أكثر من أيام معدودات إذ غرق إدوارد تحت نافذة غرفتها بينما كان يسبح فأصيبت بصدمة نفسية لظنها بأنها كانت المسؤولة الوحيدة عن غرقه ! لقد انتابتها الكوابيس ، واصبحت فريسة لها وللنوبات والأوهام مما أدى الى ضرورة معالجتها بالمورفين لكي تهدأ وتنام . استمرت عوارض تلك الصدمة مدة طويلة بعد وقوع الحادث المشؤوم ولم تجد العزاء الا رويداً رويداً مع مرور السنين ، لأن الزمان وحده كفيل بالتخفيف من وطأة كل مصاب . ولقد توفيت أمها يوم كانت في أمس الحاجة الى وجودها ودفء جناحيها فقرر المستر باريت الانتقال مع أسرته من الريف الى لندن حيث زادت قسوته على أولاده بعد موت أمهم ، وبلغت غيرته حد الجنون . كانت الدار في لندن واسعة وموحشة وتشدد السجان في فرض سيطرته على أولاده ومنعهم من الاتصال بالناس في العاصمة ، ولكنه استثنى اليزابيت وأذن لها باستقبال أستاذها القديم الأعمى من حين الى آخر . أشار عليها أستاذها بأن تنشر قصائدها ، فقبلت وتم طبع ديوانها الأول تحت عنوان : « أشعار اليزابيت باريت » . ثم تلته مجموعات أخرى انتشر صداها بسرعة في الأوساط الادبية والمجتمعات ، ولاقت رواجاً ونجاحاً كبيرين ، فلم يسمع أحد بقصيدة لإليزابيت باريت الا وحفظها وأذاعها بين معارفه ، وتساءل باهتمام : من تكون هذه الشاعرة الملهمة ؟ فعلم القراء بأنها ابنة الملاك الكبير والتاجر الثري المستر باريت ، وأنها شابة مقعدة لاتقابل أحداً ، بل تعيش أسيرة في رعاية أبيها محاطة بهالة من الغموض ... كان ما علموه صحيحاً لان المستر باريت

ازداد ولعاً بابنته الشاعرة ، بعد أن فقد زوجة ، وجعل منها أسيرةً لأنانيته : كان يجد لذة كبيرة في أسرها ، والحياة معها ، ومشاركتها في الصلاة كل ليله ، وفي المطالعة أحياناً حتى أنه اختار لها الغرفة المجاورة لغرفة نومه ، وكثيراً ما كان يتفقدها ليلاً للاطمئنان عنها والسؤال عن حالتها الصحية فيجدها ، في أغلب الاحيان ، غارقة بين الأوراق والكتب ! وليس بغريب أن يصبح هذا النوع من الحياة محبباً الى نفس الشاعرة التي أضحت تخشى الضجيج والنور والهواء ، وكل شيء يخرج عن نطاق المألوف لديها ، حتى أن صلاتها مع إخوتها في الدار كانت محدودة مع أنها كانت موضع محبتهم واحترامهم إذ كانوا معجبين بعبقريتها ، وبقوة شخصيتها أمام أبيهم . ان ما يجدر ذكره هنا هو أن المرض والانزواء لم يضعفا شخصيتها ، ولم يخففا من تأجج مشاعرها ، وانطلاق أفكارها ، بل كانا الحافز الاكبر لتبلور شخصيتها وشاعريتها . كان دأبها على الدرس والتأليف عجيباً والأعجب من كل هذا ، في رأي الذين حللوا شخصيتها ودرسوا حياتها ، أن تستكين في صباها الى الجمود المطلق وان تفرض على نفسها الحياة في الفراش بعد أن كانت في طفولتها ومطلع شبابها تفيض بالحركة وحب الحياة .

كان روبيرت براوننغ ، شاعر انكلترا الشهير ، في الرابعة والثلاثين من عمره عندما قرأ أشعارها وأعجب بها فوجد في رنة أناشيدها ورهيف حسها ، وعمق تفكيرها الصدى المنشود لشعره وشخصيته وفلسفته ، وحاول ان يتعرف اليها بواسطة صديق له من أقرباء أبيها يدعى المستر : « كينون » ، وليس بالمستغرب ان تبوء

محاولته بالفشل لأننا نعلم جيداً أن باب الغرفة التي كانت تعيش فيها كان موصداً دون العالم الخارجي .

شعرت إليزابيت بسعادة كبيرة تغمر كيانها عندما بلغها ان الشاعر الكبير براوننغ معجب بديوانها ، وحريص على مقابلتها -- ولكنها رفضت قبول زيارته خوفاً من أبيها الذي يحرم عليها الاتصال بالناس ، وخوفاً من أن تترك في نفس براوننغ أثراً سيئاً نظراً لمرضها وتقدمها في السن إذ كانت يومئذ في الثامنة والثلاثين من العمر . كتبت تقول في مذكرتها : (لست من اللواتي يمكن أن يسعى أحد لرؤيتهن أو سماعهن عن كثب واذا كان شعري قيماً حقاً فليكتف به الناس لأنه زهرة حياتي ونفسي) .

أما الشاعر براوننغ فلم ييأس من الرفض بل جدد محاولاته لأنه وجد في إليزابيت ضالته المنشودة . كان شاباً وسيماً من أحدى الأسر المعروفة ، وكان يبحث عن ذكاء خارق ، وروح كبيرة في النساء ولكنه لم يعثر على بغيته قبل أن يتعرف الى اليزابيت باريت من خلال قصائدها . لقد وجد فيها الروح الملهمة ، والنفس المعطاء ، والقلب الرقيق وأحبها قبل أن يعرفها شخصياً وبقي مصراً على مقابلتها طوال عام باكمله . كانت اليزابيت تخلق شتى الأعذار وتبلغها لصديقه وقريبها « المستر كينيون » . عندئذ عزم براوننغ على مراسلتها فتلقت رسالته الأولى سنة ١٨٤٥ وفيها يقول : (إني أحب أشعارك حباً جماً ولا ابتغي من رسالتي هذه إطراء عبقريتك فحسب . أيتها الآنسة باريت العزيزة ، لأني أحب أشعارك وكذلك أحبك أنت .) قرأت الرسالة فحبست أنفاسها . وساورها فرح كبير ، شعرت بعده بقلق وضيق :

تُرى كيف يصح أن يبوح لها الشاعر براونغ بحبه وهما لم يلتقيا بعد ؟ لاشك في أنه يجهل انها مريضة ، مقعدة ، نضارتها قد ذوت ، وشبابها قد ولّى ... ثم كيف يجوز لها ان تتلقى رسالة غرامية من شاب يطلب زيارتها ، وأبوها قد منعها من الاتصال بالناس ؟ وبينما كانت اليزابيت تتصارع مع نفسها ، يستولي عليها الخوف من الحب ومن أبيها تارة والإرتياح لأنه وجد من يفهمها ويحبها ويبحث عنها تارة أخرى، أخذت رسائل براوننغ تنهال ، الواحدة تلو الأخرى ، تؤكد لها بأنه يحبها ويقدر نبوغها ويضمر لها كل الخير . لقد أضحت رسائله مصدر سعادة لم تكن ذاقت حلاوتها من قبل ، بل دفقة جديدة من الحياة تدب في عروقها وتغذي قلبها وتروي نفسها الظامئة للحياة والجمال والحب ، لهذا كله بدأت تجيب على رسائل براوننغ بصفحات هي اعذب ما كتب في أدب الرسائل . هل ترى كانت تشعر بأنها قد دنت من بلوغ أجلها عندما قالت له : (ان ميل شاعر كبير مثلك لشخصي هو من دواعي ابتهاجي وفخري . ولكني اليوم شبيهه بمن أشرف على الموت وتنبه فجأة الى أنه تأخر كثيراً في اكتشاف روائع شكسبير ، وقراءة آثاره ففاتته الفرصه) !

بقيت اليزابيت تستمد من رسائل براوننغ القوة والألهام مدة طويلة ، وتتردد بين قبول زيارته ورفضها لأنه سيطر على قلبها وفكرها ، وأصبح شغلها الشاغل ومصدر سعادتها وشقائها في آن واحد . كان خوفها من وقوف أبيها على الحقيقة مصدر عذاب روحي لها ، ولم تكن قد نسيت بعد كيف طرد ذلك الضابط الشاب الذي أتى لزيارتهم أملاً في الحصول على يد أختها : « هنرييتا » لقد طرده بعنف وصرح لبناته بأنه يعتقد أن زواجهن هو جريمة من أبشع الجرائم الدنيوية !

لهذا نستطيع ان نتصور حرجها ، هي التي عاشت في عالم ضيق الى أبعد حدود الضيق ، بعيدة عن الهواء والسماء والوجوه الانسانية . ولكن براوننغ لم يكن رجلاً عادياً لأنه كان نابغة العصر . المثل الأعلى الذي تصبو اليه واحتل في نفسهاأسمى مكانة،لهذا كله وعدت بقبول زيارته في السر وفي فصل الشتاء ، ثم تراجعت وأرسلت اليه قصيدة تقول فيها :

« كان جوابي على طلبك في رسالة الأمس نعم »

واليوم أقول لك يا سيدي يا عزيزي « لا »

ذلك لأن الألوان التي تراها على ضوء الشموع

تفقد رونقها إذا رأيتها في وضح النهار ... »

أما براوننغ فقد أصر على زيارتها ، وعلقت على إصراره تقول انهما سيلتقيان في الربيع ، فانتظر قدوم الربيع ، وقد شفّه الوجد ، وغلبه الشوق ، وكتب لها يقول:(جاء الربيع مبكراً هذا العام ، في مطلع آذار ، فهل تسمحين لي بأن أزورك ؟) فردت عليه تقول : (ان ربيعنا يبتدىء متأخراً في شهر أيار !) وأخيراً ظفر منها بالموعد وكان ذلك في العشرين من شهر أيار ، على أن تكون الزيارة بين الثالثة والخامسة بعد الظهر لان المستر باريت يعود من عمله في المدينة حوالي السادسة .

وصل براوننغ في تمام الثالثة وكان نباح كلبها الشرس أول تحية تلقاها فهدأت اليزابيت من روع « فلاش » وسلمت على الزائر الكبير بكل بساطة فجلس بجوار سريرها وتحدث الشاعران عن كل شيء الا عن حديث القلب . لقد وجدها أحسن حالاً مما كان يتصور ففرح فرحاً كبيراً ، وقرر إنقاذها من السجن الذي تعيش فيه ومن السجان

الذي يحرمها من الحياة والنور ، عقد النية ، في قرارة نفسه ، منذ أول لقاء ، على أن يعرض عليها فكرة الزواج لانه وجد في جسمها النحيل ، ولونها الشاحب ونظراتها العميقة الحنون لوناً من السحر والجمال . أما شعرها الاسود المتموج الطويل فكان يزيد في روعة شحوبها وإبراز رقتها ، فخرج من دار أبيها في الرابعة والنصف ليسجل انطباعه عن هذا اللقاء السعيد ، وفرحه الكبير في أنه وجدها في حالة صحية جيدة بالنسبة لما سمعه عنها وتخيله . لقد هام براوننغ بضعفها وشحوبها المتناقضين مع قوتها الروحية وعبقريتها النادرة فكتب لها في اليوم التالي يعرب عن شكره العميق لاستقبالها إياه ، ويعتذر عما إذا كان قد صدر عنه أي سوء تصرف وطلب يستعطفها بالسماح له بزيارة ثانية قريبة . أجابت اليزابيت بالموافقة وهي لا تصدق انه لم يزل راغباً في رؤيتها بعد الزيارة الأولى وقالت له بسذاجة : (هل ستعود حقاً ؟) لقد فكرت طويلاً وأيقنت بانها أخطأت في الحكم على نفسها وفي الظن بأنها قبيحة . لا تغري أحداً بحبها والاهتمام بها . ثم عاد براوننغ لزيارتها مرات ومرات ! كان يزورها مرة في الاسبوع وكان اخوتها مغتبطين بالحدث الجديد في حياتهم ، وحياة أختهم بصورة خاصة ، وكثيراً ما كانوا يداعبونها معلقين على الصداقة الوليدة بينها وبين براوننغ . أما خادمتهم الأمينة فقد كتمت السر ، وشاركت إليزابيت في سعادتها وكانت لها بمثابة الممرضة والصديقة والأم ، كما أن « فلاش » تعود أيضاً على رؤية هذا الشاب الدخيل ، وأحبه وصار يستقبله بهدوء وترحاب ! أصبحت زيارات براوننغ لأليزابيت ينبوع أمل كبير ، ومنهل الوحي ومصدر القوة لها فكان لها أثر السحر في تنشيط الشاعرة المريضة ، وخلقها خلقاً جديداً . حدثت المعجزة ذات يوم فنهضت من فراشها ومشت

بضع خطوات . ثم أكثر فأكثر وبعد ثلاثة أشهر تمكنت من السير برفقة براوننغ مسافة قصيرة في الشارع في اثناء غياب أبيها عن لندن : وهكذا فقد تغلب الحب على المرض واليأس ولكن اليزابيت أخفت عن براوننغ هيامها به خوفاً عليه من نفسها إذ لم تكن راثقة من أنها قادرة على إسعاده . كانت تخشى ان لاتكون لائقة به وبشبابه وجماله . أما براوننغ ، فلم يكن يخشى شيئاً من هذا ، بل فاتحها بعزمه على قضاء عمره معها : بهذه العبارات :

(أود من كل قلبي ان أحبس نفسي ضمن جدران الغرفة معك مدى الحياة حيث سأشعر بحرية وسعادة لاحدود لها) فأجابت تقول : (كيف يجوز أن تفكر بربط مصيرك بمصير مخلوق مثلي مشرف على الموت ؟ إنك لاتدري أي ألم يصيبني عندما تتحدث بمثل هذا الجنون ،) وأعادت له رسالته مرفقة بهذا الرفض الجازم ، فأحرق الرسالتين واستمرت زياراته لها وكأن شيئاً من هذا الصدّ لم يحدث بينهما ! كانا ، في اثناء الزيارات ، يتحدثان في الأدب والفن والأمور العادية وكان براوننغ يتلعثم في الحديث ولا يجرؤ على إطالة النظر اليها . كما انها كانت كثيرة الحياء تتكلم بعمق وهدوء وتستشيره فيما تكتب كما كان هو يقرأ عليها قصائده ويستمع الى آرائها باهتمام . أما رسائلهما فانها تنبىء عن شخصيتين مختلفتين إذ كانا فيها واثقين من نفسيهما وعواطفهما ، يبوحان بجرأة بما يختلج في القلب ويدور في الفكر ، استمرت المراسلة بينهما أربعة أعوام ، عجزا خلالها عن الجهر بعواطفهما مع أن حب براوننغ لها كان يتزايد يوماً بعد يوم ففاتحها مرة ثانية بموضوع الزواج بعد رفضها له ومنعها إياه من خوض هذا الموضوع وتهديدها بقطع الزيارات الأسبوعية . لقد كتب لها رسالة

معلناً عزمه الأكيد على الزواج منها ، مؤكداً لها بأنه بحاجة شديدة إليها ، وأن غاية طموحه تنحصر في العيش بقربها ، والعناية بها ، والتمتع بمشاركتها في كل شيء ولقد أكد لها أنها أمست في صحة جيدة ، وانها تسير نحو بلوغ الصحة الكاملة بخطى سريعة مما سيجعلها قادرة على الاهتمام به وإسعاده . لم تحرق اليزابيت الرسالة ، هذه المرة ، ولم تعدها لبراوننغ بل حفظتها في أقدس مكان وأجابت عليها باستبعاد فكرة الزواج ظناً منها أنها ستبقى عليلة مدى الحياة ، وان براوننغ يرى فيها من الصفات ما ليس فيها ، وهذا ما جاء في رسالتها : اليه تقول : (كانت حياتي منتهية عندما عرفتك ، ثم كان البعث وعدت الى الحياة من أجلك وحدك ، وأنا أخاف ألا أكون قادرة على إسعادك !) فكتب الشاعر يرجوها ان تنقذه من وحدته ، ويخبرها بأنه سيبتعد عنها عندما تشاء غير أنه سيكون أسعد الناس اذا كان معها عندما تشعر بالألم لكي يواسيها ويرعاها . لم يؤثر شيء على اليزابيت مما قاله براوننغ أكثر من قوله إنه بحاجة الى وجودها بقربه ، فبدأت تتصالح مع الحياة لأن براوننغ وجد فيها ضالته ، والصديقة والملهمة والأم ، والجدير بالذكر هو أن براوننغ عاش أسيراً لحب أمه وسيطرتها عليه اذ كانت تعامله معاملة الاطفال ، وتدلله وتؤثر عليه **أشدّ** التأثير ، كان لايستطيع أن يتصور الحب الا مقروناً بقداسة العاطفة والاحترام، فرجا إليزابيت بان تسمح له بمقابلة ابيها لأخذ موافقته على زواجهما ولكنها اقنعته بألا يقدم على هذا الأمر ليقينها بأن اباها يفضل الف مرة أن يراها جثة هامدة على ان يراها خارجة من داره مع أي من الغرباء ، وكتبت اليه تقول : (يمكنك أن تزيل ثلث نجوم السماء بحركة من أهدابك ولا يمكنك أن تجعل أبي راضياً عن حبّنا وزواجنا) !

ذكرت فيما سبق أن مرحلة الزيارات والمراسلة دامت بينهما أربع سنوات مرت بالنسبة الى كل منهما مرور الحلم السعيد . كانت اليزابيت تعيش حلماً من الأحلام ، ولم يعد في نظرها للأيام والشهور والسنين أي حساب ، فكتبت أجمل قصائدها وأجود انتاجها ، ولكنها أخفت ما كتبت عن براوننغ نفسه ، وعن أستاذها القديم الذي بقي يتردد عليها ، ثم جمعت القصائد في كراس كتبت على غلافه عنواناً ملفقاً هو : (أشعار مترجمة عن اللغة البرتغالية) كيلا تلفت المجموعة انتباه أحد فيطلع على السر . كانت قصائدها تحكي قصة حبها لبرواننغ وقصة إنقاذها من الموت وبعثها من العدم لتعيش حياة مترعة بالسعادة والأمل فلقد أوحى اليها هذا الحب الكبير أناشيد خالدة فيها البساطة وفيها العمق ، فيها الجمال وفيها الصدق ، هذا نموذج منها :

« عندما أفكر ، أيها الحبيب الغالي

انك كنت موجوداً في هذا العالم

يوم كنت أجلس وحدي في الصحراء والظلمات ...

عندما أفكر أني لم انتبه لوجودك يومئذ ،

وان طيفك كان يدفو مني لنجدتي .

أنت أيها الكاس المسحور الذي ارتوت منه روحي :

ارى ان قلبي العزيز وعيني الكفيفه كانا شبيهين

بالملحد الذي يعجز عن الإحساس بوجود الله !)

وتقول الشاعره في قصيدة ثانية :

أعِدْ ، أتوسل اليك ، أعد على سمعي

أنك تحبني ، ولا تقل إن تكرار هذه العبارات

يذكرك بهدهدة الطيور في غاباتنا .
صدقت أيها الحبيب ، ولكن تذكر
أن الربيع بلا هدهدة الاطيار .
وعجيجها في الغابات التي يلونها بأحلى الألوان
تنقصه الحياة والموسيقى الساحرة ،
فأنا ، في غمرة الشكوك ، أتوسل اليك !
قل لي مرة ، بل مرات : أحبك .ماذا تخشى ؟ . .
هل يخشى الانسان طفرة الأزهار في شهر آذار ؟
وهل يخشى كثرة نجوم السماء تلمع وتتبسم ؟ ؟
قل لي إنك تحبني ، وزد في رنات . .
هذا الجرس الفضي ، من غير ان تنسى أبداً
أنك تحبني أيضاً ، في اعماق قلبك ، دون بوحٍ وكلام .

أما في القصيدة التالية فان اليزابيت تصف معجزة الحب وتقول :

(أنت أيها الحبيب الذي رفعتني .
من على سطح هذه الأرض المقفرة ،
حيث كانت حياتي مطفأة . لقد غذيتني
بالايمان . ونفحة الطيب في قواي الواهنة ،
فعادت النضارة الى جبيني بعد ان
طبعتَ عليه قبلتك الأولى ، يا حبيبي !
جئت إليّ بعدما خانني الزمن
لتنجيني وتهديني يوم كنت أبحث عن الله .

وجدتك ، وها أنا قوية ، محبوبة ، وفيّة ،
كالروح الآمنة في جنات الخلد
التي تستعيد مآسي الماضي ، من غير ألم ولا ندم !
واني لأشهد ، وقلبي طافح بالفرح ،
ان الحب في دنيانا ، كالموت تماماً ،
يستطيع إنقاذنا من اليأس والألم) .

لقد بلغت أناشيد المجموعة أربعاً وأربعين مقطوعة ، قالت اليزابيت في آخرها :

(أرسلتَ الي ، ايها الحبيب ، طوال الصيف
ازهاراً قطفتها من حديقتك
فذبلت في سجني ولكنها لم تأسف
كثيراً على النور وعلى الهواء ....
والآن ، تقبّل برفقٍ هذه الخواطر
هذه الأناشيد والألحان ،
التي انتقيتها لأهديها اليك
من حديقة الحبّ التي غرستها من أجلك .
إن باقاتي ، وأسفاه ، محفوفة
أوراقها وازهارها بالأشواك
فتقبّلها مني أرجوك
واحتفظ بها في الظلّ النديّ
وليعلم قلبك الصديق أن جذورها

متأصّلة في أعماق قلبي الضعيف) .

أتى شتاء عام ١٨٤٦ وكان قاسياً جداً على اليزابيت لشدة الضباب والبرد ، فازدادت آلامها ولم تعد تتمكن من الحراك في فراشها . نصحها الأطباء بالسفر الى إيطاليا حيث الدفء والشمس لان الأدوية المقوية لم تعد ذات فائدة كبيرة لها فرفض المستر باريت فكرة السفر رفضاً باتاً ، وبرزت أنانيته بشكل فاضح يوم صرح بأنه لايريد ان تبتعد عنه لأنها سلواه الوحيدة ! ... ولو طلب المستر باريت من إليزابيت البقاء معه لأنه بحاجة اليها لما ترددت في التضحية بنفسها حباً به وإرضاءاً له ، ولكنه رفض بقسوة اقتراح الاطباء الذي فيه إنقاذها ولم يترك لها مجالاً للمناقشة ، وهذا ما جعلها تصغي الى كلام براوننغ عندما قال لها : (إنك عبدة لأبيك يا إليزابيت) فتجرأت وعاتبت أباها على موقفه منها ، معربة بكل أدب عن استغرابها لرفضه سفرها ، فصاح بوجهها غاضباً ونعتها بأقبح النعوت ، بأنها فتاة متمردة ، تنسى واجباتها ، — وتفكر بالخروج على الطاعة . لقد زاد هذا الكلام في استيائها وشجعها على قبول الزواج من براوننغ والسفر معه إلى ايطاليا ، فوعاته بأن يتم زواجهما سراً في الربيع ، ولما أتى الربيع أجلت تنفيذ الوعد حرصاً منها على الاستمرار في « حلم حياتها العذب » كما كانت تقول ! انتظرها براوننغ سعياً بموافقتها ودام الانتظار أكثر من عام حيث كانت الزيارات في خلاله تجري مرتين في الاسبوع ، كما تزايدت فيه الرسائل التي اتخذت لهجة جديدة ففوجئت اليزابيت بضعف في براوننغ لم تكن تترقعه . لقد بدا لها ، بعد أن قطعت له الوعد بالزواج ، مستسلماً في رسائله كل الاستسلام ، قابلاً كل الاقتراحات وعاجزاً عن تقرير أي شيء وحده لأن ارادته رهن لارادتها !

هذا ما آلمها وجعلها في حيرة من أمرها وأمره لأنها تمثلت فيه القوة والرجولة والنبوغ معاً . لقد انحسرت صورة شخصيته القوية عن مخيلتها ، بعدما ظنت انه رجل ذو ارادة من حديد ، دخل حياتها ليخلّصها من الموت ، وليضعها تحت حمايته . كانت تلك الشاعرة المريضة تعبد القوة فكتبت مرة تقول : « إن لأبي نفوذاً مطلقاً على قلبي أستسيغه لاني إحدى أولئك النساء الضعيفات اللواتي يعبدن القوة) !

أدركت أن « المستر باريت » علم في المدة الأخيرة بزيارات براوننغ لها ولكنه ، ولأمر ما ، لم يصارحها بشيء غير أنه أصبح يلمح اليها ، فشعرت أنها على شفا الهاوية واضحت ترتعد خوفاً من غضب ذلك الطاغية ، ومماسيجري في الدار والأسرة من عواصف مروعة. كانت ميالة لبراوننغ النابغة الذي أغدق عليها الوعود المغرية ، والذي صرح لها بانه هالك ، لا محالة ، إن لم تف بالوعد وتتزوجه ، ولو زواجاً صورياً فبقيا على هذه الحال ، يجتمعان ويتراسلان بحذرٍ شديدٍ يعلم إخوتها وخادمتها الأمينة الذين لم يخطر على بالهم عزم العاشقين على الزواج . وذات يوم قرر المستر باريت فجأة الانتقال مع أسرته إلى الريف ، وأعلم أبناءه بقراره الخطير دون سابق إشعار ،فأخبرت الشاعرة براوننغ بالأمر وبأن المراسلة والاجتماع سيصبحان أمراً مستحيلاً بعد الانتقال إلى الريف فأسرع في إجراءات الزواج الذي تم خلسة بعد يومين ، في إحدى كنائس لندن بحضور الخادمة ويلسون فقط . ومن الكنيسة عادت اليزابيت إلى دار أبيها ، وكأنه لم يحدث في حياتها أمر خطير أما براوننغ ، فقد شرع بتهيئة برنامج رحلتهما وكتب كلمة « لجريدة » التايمس لتعلن زواجهما بعد سفرهما مباشرة !

فكرت اليزابيت بكتابة رسالة مفصلة لأبيها يتسلمها بعد رحيلها ولكنها عدلت عن الفكرة ليقينها بأنه سيصب عليها جام غضبه على كل حال. فسافرا وأحدث نبأ سفرهما ضجة كبرى في الأوساط الأدبية في لندن وعلم المستر باربت أن ابنته أبحرت في طريقها إلى شهر العسل، وأخذت معها الخادمة ويلسون للعناية بها ، والحارس فلاش، تجهم وقال بقسوته المعهودة : (أن ابنتي في قبرها الآن فلننس الأموات) ! .

سعد الزوجان في السنين الخمس الأولى من حياتهما المشتركة سعادة نادرة ، وكان براوننغ مثال الزوج والصديق ، همه في الحياة أن يلازم إليزابيت في كل ساعة ، وأن يسعدها فتحسنت صحتها في إيطاليا كثيراً أقاما في مدنية (بيزا) مدة عامين تقريباً ، ثم انتقلا إلى مدينة « فلورانس » ، ولكنهما لم يكتبا شيئاً يذكر خلال تلك الفترة السعيدة ماعدا رسائل مطولة كانت تكتبها إليزابيت إلى أبيها بقيت بلا جواب ، ولم يعكر صفو هنائها غير غضبه وصمته الرهيب . كانت الرسائل ترجع اليها مع البريد من غير أن يفتحها أحد ، كما أحزنها كثيراً . . موقف أشقائها العدائي من زوجها براوننغ ومنها هي ، لظنهم بأنه اختطفها وتزوجها طمعاً بمالها ! . . .

وفي فلورانس ، المدينة الجميلة حدثت المعجزة الثانية في حياة إليزابيت فبلغت سعادتها الذروة يوم وضعت طفلها الأول والوحيد . كانت في عامها الرابع والأربعين يوم أنجبت لبراوننغ ابنهما: « بينيني Bennini » وكان الطفل صحيح البنية ، وسيم الطلعة ، مما جعلها تقول لبراوننغ مبتسمة مبتهجة :(يكاد العقل لا يصدق أن هذا الطفل القوي هو ولدي أنا) ولقد استمدت من طفلهما قوة جديدة وأملاً

كبيراً فتغلبت على المرض تماماً،وعاد إليها الشباب بألقه وقوته ونشاطه ونضارته وكأنه أراد التكفير عن خطيئته معها وأهماله اياها من قبل . . .
ثم فجع براوننغ بوفاة أمه ، المرأة التي كان يحبها ويقدسها ، فحزن عليها حزناً « عميقاً » ، وبذلت إليزابيت جهدها لمواساته والتخفيف عنه .طلبت اليه ذات يوم أن يكتب قصيدة في رثائها ولكنه كان عاجزاً عن كتابة أي شيء ، أو عمل أي شيء ، فقدمت له الديوان الصغير الذي جمعت فيه أروع أناشيدها والذي أسمته ، كما ذكرنا سابقاً : (قصائد مترجمة عن البرتغالية .) وفيه تبوح اليه بعواطفها ،وتناجيه أرق مناجاة ، فوجد براوننغ في القصائد ثروة أدبية ليس من حقه أن يستأثر بها ويخفيها عن الناس ،واقترح عليها أن تنشرها ولكنها رفضت الفكرة ، لأول وهلة ،وقالت له :

— (يجب أن تبقى هذه القصائد سراً « خاصاً » بنا، شأنها في ذلك شأن رسائل حبنا .) فأجابها براوننغ .

— (ولكنها ياعزيزتي أجمل شعر قيل منذ عصر شكسبير، ولا يحق لك أن تبخلي بنبوغك على الناس، كما لا يحق لأي إنسان منعم أن يبخل بماله على السائل والمحروم) !

فقبلت اليزابيت أن تنشر المجموعة على أن تحمل العنوان القديم الذي أوجدته لها فيما سبق أي : (قصائد مترجمة عن البرتغالية .) وصدر الكتاب باسم اليزابيت باريت براوننغ ،وعرف الناس والنقاد أن الأشعار ليست مترجمة إنما هي من تأليف الشاعرة نفسها لأن الموضوع يدور حول بعثها من العدم ، وحول شقائها وهي مقعدة وعودها للحياة بعد أن كانت تغالب سكرات الموت إلى أن تغلبت عليه

بقوة الحب ! علقت الصحف والمجلات في انكلترا وايطاليا على الديوان بالتقريظ وكتب أحد الأدباء يقول (إن ديوان الشعر الرائع الذي وضعته إليزابيت باريت براواننغ قد غذت به التراث الفني في العالم لأنه من أبدع المجموعات المترجمة في تاريخ الأدب . (لقد كان الكاتب على حق لان قصائد إليزابيت أبدع ترجمة للمشاعر الانسانية ، وأروع تعبير عن الحب الخالد الذي يدوم في حياة لا تعرف الديمومة .

استمرت اليزابيت على مراسلة أبيها ، بعثت اليه بمئات الرسائل وحاولت استدرار عطفه ، بعد ولادة ابنها ، فأخبرته في إحداها عن « بينيني » كيف بدأ يمشي ويتكلم ، وكيف أصبح يتسابق مع فلاش ليلتقطا الدمى ، وقالت له فيها (ان هذا العفريت الصغير يقلب آنية الماء ، ويقص أجمل أثوابه وهو يضحك ولكنه يجلس على ركبتي هادئاً ليشاركني في الدعاء إليك ، وطلب مرضاتك ، كما أنه يطرب عندما يعزف أبوه على البيانو وها قد بدأ بتعلم العزف منذ أيام .) أما الجواب على كل الرسائل فقد ظل صمتاً مؤلماً ، رهيباً ! ولما بلغ بينيني عامه الثالث ، عادت أسرة براوننغ إلى لندن بدوافع الشوق لمن فيها ، وطمعاً في الحصول على المغفرة الأبوية ، كما أن براوننغ كان مشتاقاً لأخته وأبيه ، وراغباً في العودة اليهما بعد ان ماتت أمه ، ولكن صحة إليزابيت ساءت بعد أن فشلت كل محاولاتها لترضية أبيها وأخوتها الذين رفضوا مقابلتها ، وسماع أي حديث عنها ، ماعدا أختيها اللتين سعدتا باستقبالها في الدار القديمة في لندن بالخفاء . أما براوننغ فلم يلق في دار أبيه الا الحسرات والأحزان حيث أن كل ما فيها وما في حديقتها كان يذكره بأمه الراحله . كان طبيعياً أن يؤذي ضباب لندن رئتي إليزابيت التي عاودهاالمرضى فأسرع براوننغ بالرحيل معها إلى باريس

أولاً لمدة عام، ومنها إلى إيطاليا حيث اختاروا روما لسكناهما مع ابنهما ، ولكن الصفاء الذي هيمن على حياة الشاعرين الزوجين بدأ ينحسر شيئاً » فشيئاً ، كما تغيب الشمس حزينة عن الكون ليغشاه البرد والظلام . . لقد حلت الخلافات محل الوفاق والوئام ، فأقعد المرض الشاعرة في فراشها من جديد ، وبدت على روحها وجسمها آثار الصدمات والسنين ، بينما كان براوننغ لم يزل في عنفوان الشباب ، وقد بدأ نجمه يلمع في أندية روما ومجتمعاتها . ومع ذلك ثابر على إحاطة زوجه بعطفه وعنايته ، وكثيراً ما كان يعتذر عن قبول الدعوات لقضاء السهرة إلى جانبها ، ولكنها كانت ترجوه بإلحاح أن يخرج من الدار وهي تعلم ، علم اليقين ، أنها تدفعه بذلك للابتعاد عنها والتفكير بغيرها . كتبت ، في تلك المرحلة من آخر حياتها قصة شعرية في روما صدرت تحت عنوان « إدورورا ليغ » كما ألف براوننغ مجموعة شعرية ، بعنوان : « رجال ونساء » غير أن النقاد استقبلوا قصة اليزابيت بالتقريظ المفرط ، بينما استقبلوا ديوان براوننغ بشيء من الفتور ، فكتبت إلى إحدى صديقاتها تقول : (يالعمى النقاد ! إنهم يعجبون بشعري الذي يشبه ضوء المصباح الضئيل ، وقد عميت عيونهم وقلوبهم عن شعر براوننغ الذي هو أشبه ما يكون بضوء الشمس . ولكن اليوم الذي سيقدرون فيه زوجي ليس ببعيد) .

في عام ١٨٥٧ علمت اليزابيت بموت أبيها فأصيبت بنكسة حادة لأنه مات ولم يغفر لها ، وقضت أعوامها الأخيرة حزينة ، هزيلة ولكن المرض والحزن لم يضعفا شخصيتها وشاعريتها المتدفقة إذ كانت تدير شؤون المنزل من فراشها وتهتم بتربية ابنها ، وتتحف العالم بالروائع الأدبية لقد ترك براوننغ لها منذ البداية حرية التصرف بالأمور المنزلية وبتربية ابنهما ، وفي عام ١٨٦٠ أصبح الفارق بين الزوجين كبيراً

جداً ، أعني الفارق بين صحة براوننغ الذي بلغ التاسعة والأربعين ، وبين اليزابيت المريضة التي بلغت الرابعة والخمسين ، ومع ذلك رفض أن يذهب لقضاء ربيع عام ١٨٦١ في باريس عند أبيه وأخته وحده بلا اليزابيت التي نصحها الأطباء بالبقاء في روما .قالت له اليزابيت إنها أصبحت تشعر وكأنها سلسلة من الحديد الثقيل يصعب عليه جرها معه ، ولكنه أصر بأنه لن يذهب اذا رفضت أن ترافقه ، وأنه واثق من أن الربيع في باريس سوف ينشطها صحياً ونفسياً ، ولقد صح ظنه وعاد الشاعران وابنهماالذي بلغ عامه الثاني عشر من باريس لقضاء الصيف في فلورانس حيث أصيبت اليزابيت بزكام بسيط ، تبعه سعال حاد ، ولم يكن براوننغ يتوقع أن الموتأصبح قريباً منها . . . كان يبدو مرحاً على غير عادته ، وحنوناً كعادته ، لا يود فراقها ولا ساعة ، أما هي فقد شعرت بدنو أجلها وكانت سعيدة بأفول نجمها وهي لم تزل محبوبة منه عوضاً عن أن تعيش وترى بعينها موت حبهما العظيم .

ماتت اليزابيت باريت براوننغ وهي تبتسم وتضم براوننغ قائلة له « فليباركك الله ! بعد أن انقضى على زواجهما السعيد أربعة عشر عاماً ذاقا خلالها الحلو والمر ، ولم ينتجا فكرياً إلا إبان الأزمات والخلافات لقد انطفأ بموت إليزابيت الشاعرة ، قبس روحي كان لإشعاعه ودفئه أثر بعيد المدى في التراث الشعري العالمي ، كما انتج روبرت براوننغ . بعد موتها ، أجمل اشعاره وأقواها وكأن التجربة علمته بأن الفكر المجنح بحاجة إلى أن يحلق وحده في الآفاق ، ولا يمكن له أن يرافق فكراً آخر محلقاً لاحتمال تصادم الأجنحة !

يقول أندريه موردأً في كتابه « لوحات » الذي صور فيه حياة

الشاعرين ، أن صور العظماء في أذهاننا قابلة للتغير بعد موتهم فكثير ما تظهر أمام المؤرخ . بعد حين ، مذكرات أو وثائق جديدة تبرزهم بأشكال جديدة وأضاف يقول أنه كلما فكر في زواج اليزابيت باريت وروبرت لبراونغ ازداد يقينه بأن القصص الرائعة ليست دائماً من نسج الخيال . كان يتصور اليزابيت فتاة عليلة ، تعيش في ظلمات سجن رهيب فرضه عليها أب ظالم تفكر بأمير أحلامها فاذا الأمير فتى وسيماً وشاعراً « ساحراً » يأتي مسرعاً لإنقاذها من العزلة والمرض والظلام والسجن ، فيحملها على جناحيه إلى عالم الحب والهناء والنور والحرية .
ثم اطلع أندريه موروا على مؤلف جديد عن الشاعرين صدر عام ١٩٥٣

بقلم « بيتي ميلر » كشف النقاب البراق عن حياتهما معاً وإذا بالجزء الأول من هذه الأسطورة الواقعية يبدو صحيحاً ، « إلى حد بعيد ، أما الجزء الثاني منها ، الذي بدأ بزواجهما ، فلم يكن مطابقاً لما تخيله موروا ، أي لم يكن بمثل الروعة والصفاء اللذين تخيلهما ، وهذا ما يجعل القصة أكثر إنسانية ، وأقرب إلى حياتنا ، نحن معشر البشر ، التي هي سلسلة مبهمة من نور وظلام ، ودمع وابتسام .

* * *

بين أعلام البيان والنابغة مي

محاضرة ألقيتها في المركز الثقافي الاسلامي
بيروت في ١١ / ٢ / ١٩٨٢ / وفي
الجامعة الأردنية بعمان في ١٧ / ٤ / ١٩٨٤

النبوغ الذي فطرت عليه مي هبة ثمينة وعتها منذ حداثتها ، وغذتها بالعلم والبحث طوال حياتها . فالنبوغ ، ككل موهبة ، يحتاج الى الجهد والاجتهاد لكي تطيب ثماره ، وتتألق أنواره . ولقد أجمع أعلام البيان في مصر وسائر الاقطار العربية ، في الثلث الاول من هذا القرن ، على تقدير مي وأطلقوا عليها صفة « النابغة » منذ ظهورها كاتبة مقالة مجلية ، وخطيبة عظيمة ، وباحثة ، وصاحبة ندوة أسبوعية استقطبت صفوة الشعراء والأدباء والعلماء في عصرها ، فتوطدت بينها وبين أولئك الأقطاب أواصر صداقة أدبية ، وزمالة فكرية ، كان لها في أدب العصر آثار وسمات ألهمت اسماعيل صبري ، وألهمت الرافعي ، ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان ، متنوعة الأفنان ، أضافت الى ذخائر الفكر الانساني ثروة ، كما قال الاستاذ أحمد الزيات في كتابه « وحي الرسالة » .

كانت مي تتقن أربع لغات أجنبية ، وتتمثل ما تطالع فيها فتثري أحاديثها ومقالاتها بهذه الثقافة المتينة ، وقد ساقها طموحها العلمي الى

الالتحاق بالجامعة المصرية . إبان الحرب العالمية الأولى ، حيث قضت أربع سنوات درست خلالها تاريخ الأمم الاسلامية على الشيخ محمد الخضري وتاريخ الأداب العربية على الشيخ محمد مهدي ، والآداب الانكليزية ،والفلسفة الاغريقية وعلم الأخلاق على أساتذة غربيين في جامعة القاهرة ، بعضهم كان مستعرباً . ولابد من الاشارة الى أن شخصيتها تميزت بصفات متعددة من أهمها اعتزازها بعروبتها الذي دفعها الى التحول بالتعبير من اللغة الفرنسية الى العربية بعد أن نشرت في مصر ديوان شعر بالفرنسية عام ١٩١١ بعنوان « أزهار حلم » وبتوقيع : « ايزيس كوبيا » المستعار . لقد أدركت أنها مدعوة الى الاسهام في النهضة الأدبية والقومية التي واكبتها ، فاتخذت لنفسها اسم « مي » العربي الجميل ، وعكفت على دراسة لغة آبائها وأجدادها . قرأت القرآن الكريم بتوجيه من أستاذ الجيل في مصر « أحمد لطفي السيد » ، فأعجبت بما فيه من بلاغة ، وقالت في حديث أدلت به الى مجلة الهلال ، عام ١٩٣٠ : (منذ ان قرأت القرآن الكريم بدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربي ، وما في القرآن من روعة جذابة ساعدتني على تنسيق أسلوبي . وعلى ذلك استطيع أن أقول إن أهم ما أثر في مجرى حياتي ثلاثة أشياء : النظر الى جمال الطبيعة ، والقرآن الكريم بفصاحته وبلاغته الرائعة ، والحركة الوطنية التي لولاها ما بلغت هذه السرعة في التطور الفكري) . كما أنها نهلت من بعض كتب التراث وهي موقنة بأن « البيان العربي كالاسلام ، لا يحيا إلا بالاستقاء من رؤوس عيونه الصافية » على حد تعبير الاستاذ محمد كرد علي في مقدمة كتابه : « أمراء البيان »

أما ندوتها فقد أضحت محجة لمفكري عصرها ، وفرسان الكلام

فيه ، وكان لها تأثير كبير في تنشيط الحركة الأدبية والاجتماعية آنذاك ، وفي إلهام روادها أروع القصيد ، وأجمل المنثور وكان في طليعتهم : ولي الدين يكن واسماعيل صبري ، رخليل مطران ، وانطون الجميل ، ويعقوب صروف ، رعاس محمود العقاد ، ومصطفى عبد الرازق ، ومنصور فهمي ، وطه حسين ، وأمير الشعراء شوقي الذي وصفها بهذه الابيات :

أُسائِلُ نفسي عما سباني
أَحُسْنُ الخَلْقِ أَمْ حُسْنُ البيانِ

رأيتُ تنافُسَ الحُسْنَيْنِ فيها
كأنهما لِمَيَّةَ عاشقانِ

إذا نطقت صبا عقلي إليها
وإن بَسَمَتْ إليَّ صبا جناني

كانت بينها وبين هؤلاء الاعلام وأمثالهم من الذين كانوا يحجون الى بيتها لدى زياراتهم للقاهره ، ومنهم : أمين الريحاني وخليل مردم وآمين تقي الدين ، والامير مصطفى الشهابي ، وشبلي ملاط والأب انسطاس ماري الكرملي مراسلات ممتعة ، هي بيت القصيد من حديثي اليكم هذا المساء . أما اذا تساءلتموني كيف عثرت على حوالي مئتي رسالة مخطوطة من رسائل مي الى أعلام عصرها ، ورسائلهم اليها ، فجوابي هو أن الحظ حالفني في بحثي عن أوراقها المشردة ، ومخطوطاتها الضائعة بين مصر ولبنان ، منذ ان شرعت بالعمل قبل ثمانية عشر عاماً . قابلت في لبنان ومصر وسورية الأحياء الذين اتصلوا بها ، وأقرباءها من أهل أبيها وأهل أمها ، وأسر الذين قضوا من أصدقائها . وراسلت الذين

كانت تربطهم بها صلات النسابة الأدبية ، في كل مكان ، في الشرق وفي الغرب ، فوجدت لديهم التجاوب المرتجى ، والكرم والعون . كان منهم من أعطاني الرسائل التي احتفظ بها ، ومنهم من صور لي ما لديه منها ، ثم أضفت الى هذه الذخيرة رسائل أخرى هامة وجدتها في صناديق مهترئه ، وملفات مهملة كان بعضها مرمياً في أقبية الوراقين في القاهرة ، وبعضها الآخر مختبئاً بين صحف صفراء ، في خزانة كتب عتيقة في بيت قريب لها يدعى نجيب أغناطيوس زيادة ، ويقطن في حي الفجّالة بالقاهرة . هذا ما حفزني لنشر هذه الرسائل في كتاب صدر قبل عامين في بيروت بعنوان : « مي زيادة وأعلام عصرها وثائق جديدة لم تنشر » . ولقد ورد في كتاب الاستاذ عباس محمود العقاد « رجال عرفتهم » عول هذه الرسائل حيث قال : (ولكن الذي بقي من رسائل مي في موضعه ، أو عند اصحابه يساوي الجهد الجميل الذي يبذل في جمعه وإنقاذه ، وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه ، وهم قراء الآداب ومحبو الفنون (. كما أن الاستاذ أنطون الجميل قال ، في حديث أجراه معه الاستاذ محمد عبد الغني حسن ، بعد وفاة مي : (رسائل مي يجب ان تحفظ لانها نوع جميل من أدب الرسائل ، ولقد رأيت ، فيما رأيت من مخلفاتها ظرفاً خاصاً برسائل ولي الدين يكن اليها . ورأيي أن تجمع رسائلها الى من اتصلوا بها ، ورسائل المتصلين بها إليها وتنشر في كتاب خاص لأن فيها ثروة كبيرة وتراثاً أدبياً نفيساً) .

ومن غريب الاتفاق أن بعض رسائل ولي الدين يكن قد وقعت في يدي ، وهي بحق ، لوحات من الأدب الرفيع والبيان الناصع . تعالج موضوعات الفكر وتصور شخصيات العصر ، وتعزز مكانة مي فيه .

في الخامس من نيسان عام ١٩١٢ تسلمت مي من ولي الدين يكن الرسالة التالية :

(سيدتي ملكة دولة الالهام

ما أمسكت هذا القلم عن مناجاتك الا حرب الأيام . إنه ، منذ أيام كثيرة أسيرها الذي لا يرجى فكاكه . غير اني كنت أناجي روحك كلما بدت لعيني أشياء من محاسن هذا الوجود . كم وقفت أمام الأبيض المتوسط أرتجل العبرات . هذه أشعار لا أهديها اليك أني لأشفق أن أحييك بغير الابتسامات . وكم دخلت الروض أساجل قماريه ، تلك أغان لاأرجّعها لديك : اني أخاف أن أغنيك بغير المسرات . والآن عندي قبلة ، هي أجمل زهرة في ربيع الأمل أضعها تحت قدميك ، إن تقبليها تزيدي كرماً ، وإن ترديها فقصاراي الامتثال . وبعد ، فاني في انتظار بشائر رضاك ، وسلام على الوالد الكريم والوالدة المصونة ، وطاعة لك واخلاص .

تحت قدميك

ولي الدين يكن) .

إن القبلة التي أشار اليها ولي الدين يكن هي قصيدة مستوحاة من زيارته الأولى لمكتبها ، أرفقها برسالته وقال في مطلعها :

ما ميّ بينَ الأقلامِ والكُتُبِ
كالشمسِ بينَ الأقمارِ والشُهُبِ

أَحْيَيْتِ عَهْدَ القريضِ والأَدَبِ
جَدَّدْتِ للعصرِ رَوْنَقَ العَرَبِ

ولا ريب في أنه قصد من قوله : (جددت للعصر رونق العرب) الاعتراف بفضلها في إنشاء ندوتها على غرار مجالس الأدب العربية التي أحيتها ، في العصور الغابرة ، سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة ، وولادة بنت المستكفي الأندلسية ، ونزهون الغرناطية .

عندما وقفت مي خطيبة على منبر دار الأوبرا المصرية للمرة الأولى ، في حفل تكريم شاعر القطرين خليل مطران عام ١٩١٣ بهرت الحاضرين بموهبتها الخطابية التي امتازت بجمال لفظ ، وعذوبة جرس ، ورشاقة أسلوب وجزالة بيان . مثل لبنان يومئذ الشاعر شبلي ملاط ، فكتب الى مي مودعاً يقول : (شبلي ملاط ، مندوب لبنان في مصر مع الألم يودع الآنسة النابغة صديقته مي ، ويسره الاعتراف بأن بدر مايو ، الذي رآه على محياها الخلاسي الجبلي ، قد رافقته أنواره في شهر نوار ، ويتمنى لو أنه بقي طوال حياته على تلك الشرفة ، شرفة إيزيس الساحرة) !

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى توطدت صداقة مي مع العالم الكبير الدكتور يعقوب صروف . وأضفت على حياته وحياتها قبسا « من السعادة والبهجة كان اجلال مي للدكتور صروف وللمقتطف عظيماً » . ورسائلهما المتبادلة مساجلات فكرية تكشف نشاط الأديبين وتواضعهما الجم واهتماماتهما الأدبية . في ١٤ تموز عام ١٩١٨ كتبت مي الى الدكتور صروف رسالة مطولة كان مما جاء فيها المقطع التالي :

(لم يزعجني قولك إن رسائلي أفضل من مقالاتي لأن ذلك أعظم مدح لي ، كأنك تضعين شخصيتي الحقيقية التي تخاطبك في رسائلي ، فوق شخصيتي المكتسبة التي أعرضها أمام الجمهور في مقالاتي . ألجأ الى القواميس حينما أكتب مقالة . ولا أثبت أمراً «فلسفياً» كان، أو اجتماعياً أو تاريخياً ، إلاّ بعد البحث والتنقيب في لغتين أو ثلاث أو أربع ، لأكون على ثقة مما أبديه ، حتى إذا جاء وقت مخاطبتك فلا قواميس ولا لغات . أدفع بكتبي بعيداً وألمس قلمي لمس المداعب ، وأزفر زفرة عميقة أختمها بالضحك لاني أتصورك أمامي باسمة أو متهكمة ، أو باحثة عن نكته قارصة فأكتب ، لا كمن يكتب ، بل «كمن يفكر عالياً» كما كانت تقول صديقتنا مدام دي سيفينيني ... وأؤكد لك ان اعظم ما يقال في مدح كاتب هو أنه أبلغ وأمتن في رسائله إلى أصدقائه منه في رسائله الى الجمهور) .

وهذا أنموذج من رسائل مي الى الدكتور يعقوب صروف جاء في رسالة وجهتها اليه في ١٩١٩/١/١٥ :

أستاذي العزيز ،

بالأمس غمست قلمي الصغير في أشعة قوس السحاب لأخط به تحية للدكتور « هورد بلس » . من هو الدكتور « هورد بلس » ، وماذا يهمني أمر هذا الرجل الأمريكي . أنا الفتاة السورية ؟ ... هناك ، على شط الأزرق البعيد كلية تلثم الأمواج قدمها ، ليل نهار . أنا اعبد البحر لأني أرى فيه أتم صورة للأبدية على الأرض ، وأعبد الكليات لأنها ...

، أكثر الناس ولوعاً بالأسماء الضخمة ولكن اذا نزعنا قشرة الظواهر قليلاً يصبح امتحان الجوهر ميسوراً . ما الكليات الا كتاتيب تعلم المبادىء والمبدئيات ، والمرء بادىء أبداً ، مهما كبر علمه ، واتسعت معرفته .

اذا كانت المدارس الابتدائية تعلمنا القراءة فان الكليات والجامعات لاتعلمنا إلا ذلك . تلك تعلمنا كيفية جعل الحروف كلمات رعبارات ، وهذه تعودنا تحويل الكلمات والجمل معاني وأفكاراً . تلك تلقننا أبجدية اللغة ، وهذه تدفع الينا أبجدية العلم ، أي ابجدية الحياة والنور ! ولئن كثر الجالسون على مقاعد الجامعات ، وكثرت العيون المحدقة بحروف الضياء الخفي ، فما أندر العقول المتنبهة لهمس الوحي ، وأقل الأيدي التي تنبض فيها حمى العمل ! تلك الأيدي التي ما تسرب النور الى ثنايا الفكر يوماً ، إلا رفعت مصباح العرفان ، تهزه في جو الحياة ، وسرعان ما يرى تلك الاشارة الباهرة من ميزّه الله ، وأعدته طبيعته للسير في سبيل الارتقاء ! هذا ما أردت أن أحيي به «الدكتور بلس» ، وأحيي في شخصه الكلية التي أنجبت لنا من أنجبت ، الكلية التي تعلمت أنتَ فيها أبجدية النور ، فما كان يوم وليلة حتى صارت بلادنا تحسب بلاداً ، وصار لسوريا صروفها وفارسها .

مي

أما الدكتور يعقوب صروف فقد كان يكتب اليها في موضوعات متنوعة ، وكان يداعبها أحيانا فيخاطبها بقوله : « عزيزتي الامبراطورة

المستبدة » أو أستاذتي في الفلسفة . وقد تلقت منه رسالة في ٨/٢٣ عام ١٩١٨ جاء فيها ما يلي :

(إن الساعات التي أقضيها في زيارتكم أبهج ساعات حياتي الآن . وقد كانت زيارتي لكم البارحة من أبهجها وأوقعها في نفسي ، ولم أغادر بيتكم الا مضطراً آسفاً . على ذكر بيت الشعر الذي حا ثتك عنه إني مرسل اليك الآن المجلد الثامن عشر من المقتطف ، وفيه رحلتي الأولى الى أوروبا ، وموضوعها : « مشاهد أوروبا » وتجدين في وداع باريس ووداع لندن شعراً ، أو ما يشبه الشعر ، تسليت به وأنا هناك ولكن ن دلك من قصيدة شوقي التي أسمعتنيها البارحة ، ولم يزل صوتك يرن في أذني . لوسمعها شوقي من فيك لتضاعفت قيمة شعره في نفسه ، والسلام عليك ، ورحمة الله) . وعندما نشرت مي سيرة باحثة البادية بعثت بنسخة منها الى العالم الأب أنسطاس ماري الكرملي ، فكتب إليها في مستهل عام ١٩٢١ يقول :

(ما ورد إلي منك كتاب ،بل انزل علي وحي من عالم الأرواح، إذ وجدته صحيفة لاتنطق الا بالحقائق ، فأشكرك على ما أودعته فيها من ضروب برود الأفكار ، وما وشيتها من أفانين براعة اليراعة ، وأقر لك بكل صدق واخلاص ان ليس من يستطيع ان يجاريك في الحلبة التي اختطيتها لنفسك فكنت فيها المجلية ، وكل من جاء قبلك ، أو يجيء بعدك . لايكون إلا سكيتاً . (والسكيت هو آخر متسابق في حلبة الخيل) .

كتابك الحي أزال كل ريب من أدمغة من كان يتهمك بانتحال ما هو نتاج قريحتك الوقادة . وكان السامعون لألفاظك يصفقون طرباً لكل كلمة تنثر من نظماك ، فأيم الله لقد أطعمت فأشبعت ، وأشربت فارويت ، وأطربت ، فطوباك يا بديعة الزمان ، وألف طوباك يانادرة الأكران) .

اتهام مي بانتحال نتاجها الأدبي فكرة ساورت بعض كبار كتاب عصرها ، واذا كان الأب الكرملي قد أشار الى ذلك في رسالته فان الأمير شكيب أرسلان استكبر على مي كتاب « المساواة » الذي نشرته عام ١٩٢٣ ، وسبقت فيه كتاب عصرها بمعالجة الأنظمة السياسية والاجتماعية قديماً وحديثاً ، فكتب من سويسرا الى صديقه الدكتور يعقوب صروف مستوضحاً ، ولما تأكد من أنها كاتبة فذة ، ذات ثقافة متينة ، تتحدث كما تكتب ، ابتهج لنبوغها ، وهلل له ، وأضحى من أصدقائها المعجبين بها . ولقد عثرت على رسالتين مخطوطتين بقلمه بين أوراقها الأولى ، الصادرة من « لوزان » في ٢٤ تموز عام ١٩٢٣ خاطبها بما يلي :

(كاتبة العصر ، ونادرة الدهر ، السيدة مي زيادة المحترمة ، أطال الله بقاءها . أعلم ان شغلك كثير جم ، ولكن هذا العاجز شغله أكثر ، وشغله مقرون بالهم . ومع ذلك فلما طال انقطاع كتبك نسيت همومي ، وهلعت وقلت لعلها غضبى ، أو لعلي اقترفت ذنباً ولم أعلم . فهل للسيدة أن تمن علي / بالجواب ؟

وهل وصلتك كتابتي عن المقتطف ؟ فقد بعثت بها في ظرف

مضمون . وهل اعجبت السيدة النقادة ؟ أم جاءت من دون أمد استحسانها ؟

أرجو أن تفيديني هل أرسلوا لك « اناطول فرانس في مباذلة » وهل حاز رضاكِ وهل تصفحه الأستاذ الدكتور صروف ؟ قد نزلت عند ارادته فحذفت من الكتاب كل مالا يليق أن يصل الى أيدي العذارى ، زيادة على ما كنت حذفت من قبل، كما اني رقعت في الحواشي ترقيعات لا أعلم كيف كان وقعها عنده وعندك .

وجواب ، ولو سطرين ، يشفي الغليل ، وأدامك الله للأدب والعلم ، والعقل والفهم .

المخلص شكيب ارسلان

وفي عام / ١٩٢٥ انبثقت فكرة الاحتفال بيوبيل المقتطف الذهبي من ندوة مي . وكانت مي البارة بوطنها ونهضته، وبأصدقائها وأساتذتها، صاحبة هذه الفكرة العظيمة ، فتألفت في منزلها لجنة ضمت صفوة شخصيات العصر ، كان وزير المعارف المصرية محمد توفيق رفعت باشا رئيسها ، وكان أمير الشعراء أحمد شوقي ، والأساتذة الشيخ محمد رشيد رضا ، وأحمد لطفي السيد ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، وأنطون الجميل ، وعباس محمود العقاد والدكتور طه حسين ، وابراهيم عبد القادر المازني من أبرز أعضائها ، فانتخبوا مي أمينة سر للجنة . استغرق الإعداد لذلك الاحتفال ما يقرب من سنة ، فأخذت مي على

عاتقها الاتصال بالمؤسسات العلمية والثقافية ، ومراسلة الأدباء والشعراء من مقيمين في الوطن العربي ومغتربين ، تدعوهم إلى الأسهام في تكريم العلم والفضل . وكان الأمير شكيب ارسلان من الذين تلقوا دعوتها ، فوجه اليها الرسالة التالية من برلين في ٢٦ كانون الثاني عام ١٩٢٦ :

« أهلاً وسهلاً بالسيدة مي ، العالمة الفاضلة ، والعلامة الدراكة التي إن كانت تاء التأنيث في العلامة علامة المبالغة ، فيجب أن نضع لها تاءً للتأنيث ، وتاءً أخرى للتأنيث الحقيقي الذي ، بمثل مي ، أظهر فضل النساء على الرجال . ويلما أسعدني بودها ، ويلما أقل استحساني لشيء بعدها ! وأسأل الله أن يعمرها طويلاً مفخرة للشرق ، ويجعلها رمزاً لعدم المساواة في الناس ، وآية على ما بين البشر من الفرق . ولقد تلقيت الكتاب الكريم،ووضعته على رأسي إجلالاً لمقام الكاتبة ،وللموضوع الذي كتبت به ، وأي موضوع أجل من الاحتفال بالعيد الخمسيني للمقتطف ، أجلُّ مجلة في حلبة العلم ، وأقدم منارة أضاءت ألباب أهل الشرق ، وهو الفرض الذي أعده مقدساً ،والواجب الذي هو عندي أفضل من القربان لدى من جعل العلماء تلو الأنبياء . وإن كنت قد تأخرت عن الجواب الى الآن فالسيدة مي ، بمكانها من الذكاء الذي يشتعل فوق اشتعال النار ، تعلم الأسباب التي تستغرق بياض نهاري ، وسواد ليلي في هذه الأوقات العصيبة ، والليالي النابغية .

سأبعث ياسيدة البيان بما ينفث في روعي في هذا المقام ، وكانت السيدة القديرة في غنى عن تنبيهي الى أن الموضوع يجب أن ينزه عن

السياسية ، فان تنزيهه عن السياسية، وإفهام الغربيين أننا نعرف أن نعطي ما للعلم للعلم ، وما للسياسة ، للسياسة ، هو مالا يغرب عن ذهن هذا العاجز ، مع ما يقال من استغراق السياسة جميع قواه ، واستيلائها على هواه . ثم اني سأكتب الى قومنا في فرنسا وسويسرا ، وأذاكر من منهم في ألمانيا ليشتركوا في هذه المبرة ، ويضربوا بسهم في شرفها . أما وضع كتابتي عن « المساواة » في مقام مقدمة للكتاب ، وانك تستاذنين في جعلها « مقدمة » له ، في الطبعة الثانية ، فهذه أشبه باستئذان أحد يقال له : « هل ترضى أن نضع هذا التاج على رأسك ؟ ! »

تقولين : « إن صرحت بذلك » وصرح ، بمعنى أذن » ، اصطلاح مصري غلط فان التصريح هو الإبانة ، وليس فيه شيء من معنى الإذن ، وانما قبلها إخواننا المصريون عن « تسريح » وهو بمعنى الإذن بالجواز أو السفر . وما جرّأني على هذه الملاحظة إلا شدة غرامي بكمال بيانك العالي من كل وجهة ، ثم مني سؤال خاطر العلامة الأكبر ، والصديق الحبيب الدكتور صروف ، وأطال الله بقاءك ، ونفع بك . المخلص ـــ شكيب ارسلان)

وما دمنا نستعرض مأثرة مي في تكريم المقتطف وصاحبه لا بأس من الاطلاع على ما كتبه صديقها وزميلها في لجنة الاحتفال الأستاذ انطون الجميل في إحدى رسائله إليها ، بعد نجاح ذلك الأحتفال :

(. . . . تذكرين كرماً « منك وتلطفاً » ما عانيناه في سبيل عيد المقتطف ياحبذا عيد المقتطف يامي ! وياما أعذب ما كابدنا من عناء

وتعب ! فقد أتاح لي أن أعرف فيك . فوق الكثير مما كنت أعرف من رقّة الطباع . وسداد الرأي ، والصبر على المكروه ، ما زداني إعجاباً» برجاجة عقلك . وسمو قلبك . وهل للباحث المنقب ألذ من استكشاف تلك السجايا ؟ لذلك ما ذكرت تلك الكشوف ، وما حملتك في سبيلها من المشقة ، إلا شعرت بدين جديد لك علي .

سأقرأ كثيراً قاموسك الفلسفي ، وسأنظر طويلاً إلى الآلهتين الجميلتين المرسومتين على الطابع ، ولو غضب عطارد ، ريثما يتسنى لي التشرف بزيارتك قريباً أرجو أن تتكرمي بقبول أصدق عواطف الشكر والاجلال من المخلص

أنطون الجميل .

أما شاعر القطرين خليل مطران فان رسائله الى مي من درر المنثورة . على قصرها . لقد قام . برحلة الى سورية في خريف عام ١٩٢٤/ فكتب اليها مايلي :

(سيدتي النابغة ، فخر العلم والأدب

الآن عدت من حلب ، وهي خاتمة مطافي . ذكرتك وذكرك الخاصة والعامة في كل مكان ، وجنيت لك من تكريمهم بحق ما أنت جديرة به ولو علا الى السماك . وقد ابطأت في الكتابة حتى أرسل إليك مُحصّل الروض في قطرة من العطر . فتفضلي بقبول تحيتي ،مع تجلّتي وبتقديم احترامي للسيدين الوالدين الجليلين .

أحد المعجبين : خليل مطران .)

ولم يكن شاعر القطرين مغالياً في الاشادة بذكرى مي العطرة لدى السوريين إذ كانت قد زارت دمشق عام ١٩٢٢ ملبية دعوة أنديتها الأدبية آنذاك ، وهزت بأحاديثها وخطبتها الأفئدة يوم وقفت في قصر البللور في باب توما تحيي عاصمة بني أمية ، وتشكر الأدباء والشعراء الذين كرموها فيها ، ومنهم الدكتور مرشد خاطر ، والدكتور توفيق قندلفت ، والأستاذ فائز الخوري والأديبة روزشحفة وخليل مردم بك وحليم دموس وشفيق معلوف الذي استهل قصيدته فيها بهذين البيتين :

بنتَ الجبال ربيبةَ الهرم
هيهات يجهل اسمها حي
لم نَلْقَ سِحراً سال من قلم
إلا هتفنا هذه « مي ! »

وكانت قصيدة شاعرنا الكبير خليل مردم بك طويلة ، هذه بعض أبياتها :

تحيةٌ طيبةٌ إلى النبوغ العربي
ونظرة «خاشعة» إلى بهاء والأدب
قد جمعت بينهما « ميّ » بأمي وأبي ! .
ولاة أمر الأدب ولّوك مُلكَ الأدبِ
وقلّدوك أمرَهُمْ وذاكَ أعلى الرتبِ
وبايعوكِ بالتي عزّت على المطلب .

وفي إثر تلك الزيارة لسورية بعثت مي برسالة شكر للرابطة الأدبية وبتهنئة لأعضائها على تضامنهم مع سائر الجمعيات الأدبية ، فأجابها خليل مردم بك الذي كان رئيس تلك الرابطة بما يلي :

(إخوتي في الرابطة الأدبية يرجون أن يكونوا عند حسن ظنك بهم من حيث التآخي ، وتأليف القلوب ، وجمع الكلمة على المضي في الجهاد الأدبي . وما زالت نواقيس أفئدتهم تقرع للنهوض منذ سمعوك تؤذنين أذان الاخلاص في « جمعة » الأدب بدمشق ،

المعجب المخلص : خليل مردم بك .)

كلنا يعلم أن مي أحبت في حياتها جبران خليل جبران حباً عارماً دام حوالي عشرين عاماً ، من غير أن تلقاه ، إلا عبر الرسائل ، وقد نشرنا رسائله إليها في كتاب « الشعلة الزرقاء » سنة / ١٩٧٩ ، غير أني عثرت ، بعد نشره ، على رسالة أخرى منه نشرتها في الطبعة الثانية من الكتاب التي صدرت في بيروت ، قبل عام مضى . لقد استجابت مي إلى إلحاح جبران وأرسلت اليه صورة من صور صباها فاستهل رسالته بقوله :

(يامي ياصديقتي ،

ما أجمل هذه الصورة ؟ ما أجمل وأحلى هذه البنية ! وما أوضح دلائل الذكاء في عينيها ، وإمارات الاختبار النفسي في معانيها . لا ! لم أر في حياتي وجه صغيرة مثل هذا الوجه . فلو تفرسته سنة ١٩٠٤ لقلت

مقرراً : « إن وراء هذه الجبهة قوة غريبة ستظهرها الأيام ، ووراء هذا الثغر أغنية سترسلها الليالي » .

ما أجمل هذه الصورة يامي ، وما أسعدني بها . لماذا ترى لم أحصل عليها قبل اليوم ؟ ولماذا لم أحصل على غيرها من الصور ؟ هل كان عدم حصولي على ما أتمناه مظهراً من مظاهر القضاء والقدر أو العدل الخفي ، أو ناموس النواميس ؟

إن في عيني جوعاً وعطشاً الى الصور أمثال هذه ، فأي متى تشبع عيناي ، وأي متى ترتوي ؟

أعود فأقول اني أحب هذه الصورة حباً عظيماً ، وسوف أحصل على صورة أخرى ، أحدث عهداً ، ان شاء الله ! ان شاء الله !

جبران .)

كتب جبران هذه الرسالة سنة ١٩٢١ ، وما فتىء يبث لواعجه الى مي ، في رسائله اللاحقة ، ويدعوها بأسلوبه الرمزي الى عالمه الضبابي ، ويتفنن بوصف حبه الروحي لها ، ومي ، الهائمة به تتقدم خطوة في رسائلها ثم تحجم ، وتتأرجح في الاعراب عن مشاعرها بين المد والجزر الى أن برح بها الهوى ، سنة ١٩٢٤ فباحت بحبها ، في رسالة من أروع رسائل الحب بين العشاق . وقد سبق أن نشر جزءاً من هذه الرسالة الأستاذ مارون عبود في كتابه « جدد وقدماء » وكذلك الدكتور جميل جبر في كتابه : « رسائل مي » ، واليكم بعض ما جاء فيها حيث دعته: « مصطفى » قاصدة بذلك : «المختار»(ما أحلى رسالتك في قلبي يامصطفى !

ماأحلى كلامك بين تافه الكلام ، وركيكه ! إن ألفاظك وسطورك جدول نور وندى ، وتشع حرارة ، ولطافة وانشاد . ومع ذلك فقلّ ما أخبرتني به عنك . لم تقل لي شيئاً عن كتاب : « نحو الله » ، وعن تلك الرسوم الزيتية ، وعما يشغلك الآن من كتابة : أو تصوير ، ولا حتى نصف خبر عن الوادي ؟ أتصدق أني أشعر بأسف كلما فكرت في الرسوم التي تنقشها ولا أراها ؟ فاستعيض عنها بالنظر الى الرسوم المنشورة في كتبك، وأكتشف فيها ، كل مرة ، شيئاً جديداً . خاصةُ فنك الأولى أن يكون زاخراً بالأسرار والمعاني ، متفلتاً من كل تعريف ، هازئاً بكل حصر وتقييد .

جبران : كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد قول : إنك محبوبي ، لأتحايد كلمة الحب ! إن الذين لا يتاجرون بمظاهر الحب ودعواه ، في السهرات والمراقص والاجتماعات ، ينمو الحب في أعماقهم قوة ديناميتية رهيبة . قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألأ السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تتفجر ، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لأنفسهم ويفضلون وحدتهم ؛ ويفضلون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهي بما لا علاقة له بالقلب والعاطفة . يفضلون أية غربة ، وأي شقاء « وهل من شقاءٍ وغربة في غير وحدة القلب ؟ » على الأكتفاء بالقطرات الشحيحة .

مامعنى هذا الذي أكتبه ؟ إني لا أعرف ماذا أعني به ، ولكني

أعرف أنك محبوبي ، وأني أخاف الحب . إني انتظر من الحب كثيرا فأخاف أن لا يأتيني بكل ما انتظر . أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير ، ولكن القليل في الحب لا يرضيني . الجفاف والقحط واللا شيء خير من النزر اليسير .

كيف أجرؤ على الافضاء اليك بهذا ، وكيف أفرط فيه ، لا أدري الحمد لله أني أكتبه على الورق ، ولا أتلفظ به ، لأنك لو كنت حاضراً بالجسد لهربت خجلاً ، بعد هذا الكلام ، ولاختفيت زمناً طويلاً ، فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسى . حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحياناً لأني بها حرة كل هذه الحرية . وليس ما أبدي هنا أثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء أبعد من الوراثة . ماهو ؟ قل لي أنت ما اذا كنت على ضلال أو على هدى ، فاني أثق بك ، وأصدق بالبداهة كل ما تقول . وسواء أكنت مخطئة أم غير مخطئة فان قلبي يسير اليك ، وأن خير ما يفعل هو أن يظل حائماً حواليك، يحرسك ، ويحنو عليك . غابت الشمس وراء الأفق، ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لا معة . نجمة واحدة هي الزهرة ، إلهة الحب . أترى يسكنها ، كأرضنا، بشر يحبون ويتشوقون ؟ ربما وجد فيها من هي مثلي ، لها واحد جبران ، حلو بعيد بعيد ، هو القريب ، تكتب اليه الآن ، والشفق يملأ الفضاء ، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق ، وأن النور يتبع الظلام ،وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه ،

فتتسرب إليها كل وحشة الشفق ، وكل وحشة الليل ، فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد : جبران !(١)) .

كان من العلماء الذين عاصروا مي وراسلوها وأنزلوها أرفع منزلة في نفوسهم صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق ،وقد أرسلت إليه كتاب تهنئة يوم عين أستاذاً للفلسفة الاسلامية في جامعة القاهرة سنة ١٩٢٧ ، فتلقت منه الرسالة التالية :

(ان لم تكوني وزيرة ، ياسيدتي ، ولامن المستوزرات عن طريق النهضة النسوية فانك أميرة هذه النهضة في الشرق ، بل أنت أميرة النهضة الشرقية على إطلاقها . وياليت كل إمارة كانت كإمارتك الحبوبة الجميلة الخيرة . أما كلماتك السامية فقد شجعتني حقاً في الميدان الذي يدفعني إليه القدر من جديد . واني لهيوب في الحياة ، وقد كنت هيوباً إذ أسعى لالقاء أول درس من دروسي في الجامعة المصرية فيرسل الله إلي كتابك مدداً روحياً من تلك الفيوضات القدسية التي تتنزل بها ملائكة الرحمة ، فتملأ النفس إيماناً ونوراً .

وأزجي ، في الختام ، إلى ساحتك ، ساحة الفضل والأدب طيب الحمد ، وخالص الود ، وعظيم الاجلال .

مصطفى عبد الرازق

---

(١) وقعت مي هذه الرسالة باسمها الحقيقي : ماري زيادة اذ كثيراً ما كان جبران يخاطبها في رسائله بقوله : يا ماري !

نعم ، لقد كانت مي أميرة النهضة النسوية في الشرق العربي . وسارت على خطى الرائدات اللواتي سبقنها كوردة اليازجي ، وعائشة التيمورية وماري عجمي ، ولبيبة هاشم ، وباحثة البادية ، وهدى شعراوي ، تدعو المرأة إلى التحرر من الجهل ، وحسن تربية النشء والأسهام في النضال القومي ، والحفاظ على التقاليد الشرقية والهوية العربية . ففي ربيع عام ١٩٢٢ تلقت من الأديبة ماري يني رسالة تستشيرها في أمر إنشاء مجلتها : « مينيرفا » فكتبت مي اليها تقول :

(لرسائلك عيب ، وهو حسنها — إن صح أن يكون الحسن عيباً .

أصارحك القول بأني أرى موقف الصحافة موقفاً محرجاً للمرأة ، ولا سيما الفتاة في بلادنا . بل هو أحرج المواقف . فاللاتي ولجن هذا الباب يجب تشجيعهن ، وحثهن على متابعة المسيرة جهد المستطاع . أما اللائي مازلن يفكرن في الولوج فعليهن أن يفكرن طويلاً قبل الشروع بالعمل . عليهن أن يتفرسن ملياً بما ينتظرهن من عناء ونصب ، وفي ما قد يصادفهن من نجاح أو فشل . فاذا كنت على ثقة من أن المحيط مستعد ، وله من أحواله المختلفة ما يضمن بقاء مجلة جديدة ، واذا شعرت ، بعد وزن الأمور ، بأنك ذات شجاعة أدبية ومادية ، تتلون بمئات الألوان ، وتتكيف بمئات الصور ، وتستطيع أن تتجرع المرارة ، كما تتذوق الحلاوة ، إذا شعرت بكل ذلك ، وقبلته سلفاً ، إذن يمكنك أن تطلقي الحكم باتاً وتبدي الرأي صائباً ، كأنه حكم آلهة الحكمة « مينرفا » الذكية الجميلة . وأخيراً أقول لك سواء صدرت هذه المجلة مباشرة ، أو تأجل موعد صدورها ، فقلمك أبدا في يدك يغرد على الطروس ، وهو هو قوتك ، فلن يعدم وسيلة إيصال زفرة القلب ، أو كلمة الاخلاص أو أنين الشكوى إلى جمهور يقرأ فيطرب . . .

. . . لك بالخلاص : مي)

ومن أعلام البيان الذين راساوا مي الكاتب الكبير الأستاذ مصطفى صادق الرافعي . حالفني الحظ بالعثور على عدة رسائل بخطة بعث بها إليها ما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٣٣ . ومع أن رسائل مي إليه لم تكتشف بعد ، فإننا نستجلي من خطاباته إليها تقديره الكبيرة لأدبها ، وحبه الروحي العف لها الذي أوحى اليه روائعه : أوراق الورد ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وحديث القمر . كتب اليها يقول في الخامس من آذار عام ١٩٢٣ :

(سيدتي الآنسة النابغة)

لو أن في فصل الكلام عندنا « أما قبل » بدلاً من « أما بعد » لحسن عندي ذلك اذ أشير إلى هنية كانت في عصرها كحياة الزهر ، وفي منفعتها كزاد الدهر . وأي بليغ يراك ولا يعرف منك فناً جديداً في حسن معانيه وبيانه ، ويعرفك ولا يرى فيك أبدع البديع في مايعانيه من افتتانه . (لله الحمد أن جعلنا نتلقى الماء ، ولم يجشمنا أن نصعد من أجله إلى السماء ! ولك الفضل إذا قبلت وصفك على قدر مايُخط بالحبر ، ولا ما يخطر في الدماء . . . قدمت مع البريد شيئاً من كتبي ، ولا ريب أنها قد رأت في كتابتي إياها معنى من النقص ، فاليوم يسرني أن أهديها اليك لتستمتع من نظرك اليها بمعنى الكمال .وحفظك الله للفضل والأدب ، وللمعجب بك ، مصطفى صادق الرافعي .) وقد أجاب الرافعي بعد ذلك على كلمة الشكر والثناء التي أرسلتها اليه برسالة ظلت ، على مايبدو دون جواب ، فعاود الكتابة إليها عاتباً ، مغتاظاً يقول :

(بعثت إلى المقتطف منذ أيام بمقال في شعر صبري باشا ، رحمه الله ، ثم علمت بالأمس أنه قدم إليك أبياتاً من نتفه ، فان صح ذلك ،

وكانت هذه الأبيات مما انبعث من روحه ، فقد تعبت في البحث عما لم ينشر من شعره ، ولقيت لذلك أكثر أصدقائه .

أرجو الا تذهبي في الضن بهذه الأبيات مذهبك مع كتاب أرسلته إليك فكان كلاماً لمن لم يقبله بذلفاه ، وسلاماً لمن لم يرده أرساناه ، وقولاً ليتنا ما قلناه ، والسلام .

(مصطفى صادق الرافعي)

كان الرافعي مفرط الحساسية بسبب صممه ، كثير الظنون ، فتوهم أموراً أتعبته وأتعبت مي ، منها أنها آثرته على سواه ، ثم أهملت الاهتمام به في ندوتها ، وانضمت الى صف خصميه في معارك الفكر والأدب : العقاد وطه حسين . كان يغضب في رسائله الرائعة إليها ويثور ثم يرضى فيعرب عما يخالبه من حبور ، ويدعوها سيدة القلم العربي في التاريخ كله ! اليكم صورة عن غضبه في إحدى تلك الرسائل، يوم كان التلميح بعبارتي « أما قبل » وأما بعد « آخذا » مجراه على قلمه سنة ١٩٢٣ : (. . . . لعلني كنت مخطئاً فيما فهمت منذ « أما قبل » لكنك لكنك أنت تركتني أخطىء الفهم ، بل أردته ، فلا ذنب لي . . . .

وأما بعد ، فقد حطمت تلك القيود ، وستعرفين ذلك ، وتا الله ما كنت أحسبك في أدبك ، ورقتك ، ترمينني قبل هذا ، ولكن كم تصنع الجرأة ، وكم تغر ، ولعلنا ابتلينا بطه حسين مذكراً ومؤنثاً والسلام .) وفي رسالة منه لاحقه بتاريخ ٢٣ / ١ / ١٩٢٤ عبر الرافعي عن استيائه من صدها له وصمتها بهذه الأبيات :

إلـــى اللــــهِ أشكو نيّةً طوّحـــت بنـــــا
هـــــي اليـــوم شتى ، وهي أمس جميـــعُ

تقطـــعُ فـــي قلبـــي حنينـــاً لِمَرْبَـــعٍ
يُجـــاذِبنِـــي قلـــبٌ بـــــه وضلوع

لـــدى منـــزلٍ ، حتى النسيـــمُ يجيئـــه
عليـــلاً ، وحتـــى الكِبْـــر فيـــه يَطيعُ

ديـــارُ التي إن تُسْقِـك الماءَ لـــم تـــزل
مـــن الماء في عينيـــك ، بَعْدُ دموعُ . . .

وتدل رسائله على أن هذا الرجل المحافظ الوقور أنزلها في قلبه أرفع منزلة ، وكان حريصاً ، أشد الحرص ، على صداقتها ، وإعجابها بأدبه الذي كان فخوراً به . ولكن الوقت لا يتسع لاستعراض فقرات أخرى ، فلننتقل إلى رسالة الشاعر القروي التي بعث بها الى مي من « سان باولو » في البرازيل ، وذلك في نهاية شهر كانون الأول عام ١٩٢٩ معزياً ، بوفاة أبيها الياس زيادة .

أيتها الآنسة العزيزة :

نعيت إلي أباك وقد تكفل البرق والصحافة بنعيه الى الدنيا ، وما كان صاحب المحروسة . وأبو مي من الخاملين . ولكنها شكوى الحزينة إلى نسيبها . ولا نسب كالأدب . فكل أديب في المصاب أخوك .

وددت يا أخيتي لو أفدي بكل ما ملكت عيناي من دموع تلك اللآلىء التي كانت تسيل حلوة من فيك، فصارت تنسكب مُرّة من عينيك، وكنت تنزلينها على الأكباد برداً، فصرت تحصبين بها الأضالع جمراً.

إني أعلم يا مية من رجاحة عقلك قدر ما أفهم من رقة فؤادك فتداوي يا أخيتي من الحزن بالصبر ، وكِلي أمرك ، بعد الله إلى أملك

التي تجدين في حبها التعزية ، وإن كانت تعوزها التعزية ، مثلك .
واذا عصفت الريح بالشجر تعانقت أغصانها إشفاقاً فلتحفظ السماء أمك
لك ، ولتحفظك لها ولللأمة والانسانية ، وليرحم الله من كان يحرسك
إنساناً فبات يحرسك ملاكاً .

لا تُـراعي يامـي فالأصـلُ للتـربة
والفـرعُ للـهواء الطليـقِ

هـو فـي راحـةٍ فـلا تُقلقيـه
رُبَّ بِـرّ شبيـهٍ بالعُقـوق

إنمـا القبـرُ للخلـودِ سبيـلُ
مـا سبيـل المحيـطِ غيـُر المضيـق

أخوك : (القروي)

ثم توالت المصائب على مي بعد موت أبيها اذ مات جبران بعده ،
ثم ماتت أمها ، وانفرط عقد ندوتها ، ووجدت نفسها ، بين ليلةٍ
وضحاها ، وحيدة في الدنيا ، غريبة ، لا أهل لها ولا زوج ولا ولد ،
فاستبدت بها الأحزان مما كان له أسوأ الأثر في صحتها النفسية .
استنجدت بابن عمها الدكتور جوزيف زيادة ، المقيم في بيروت ، فأتى
إلى القاهرة ، في مطلع عام ١٩٣٦ ، وصحبها إلى بيته ثم نقلها منه إلى
مصح الأمراض العقلية والنفسية : « العصفورية » . . . فكانت تلك
الحادثة المأساة الكبرى في حياتها ، وكان لتلك المأساة ملابسات مروعة
سوف أشرحها في الكتاب الذي أعده عن حياتها ولكن ما ينبغي أن
نقوله الآن هو أن ذوي الشهامة ، في العالم العربي ، هبوا لانقاذها من
جحيم العصفورية ، بعد أن ذاع خبر جنونها المزعوم ، وعملوا من

أجل إلغاء دعوى الحجر التي أقامها أهلوها عليها ظلماً وبهتاناً . وهكذا بفضل المنقذين استردت مي حريتها وكرامتها في إثر المحاضرة الشهيرة التي ألقتها في الجامعة الأميركية ببيروت سنة ١٩٣٨ ، أمام هيئة المحكمة، وبدعوةٍ من جمعية « العروة الوثقى » . تلقت مي بعد ذلك رسائل متعددة من الشخصيات الأدبية ، والسياسية ، أخترت منها رسالتين لقراءتهما عليكم لما فيهما من بلاغةٍ وايجاز ، فكانت الأولى من الوطني الكبير فخري البارودي وهذا نصها :

(حضرة الكاتبة المبدعة

أهنئك ، بل أهنىء أنفسنا ،ولا ألوم أحداً على ما نزل بك من اضطهاد وظلم ، وما كانت قضيتك قضية مي زيادة بل قضية الفكر الذي ديست كرامته ، والثقافة التي عبث بحرمتها ، والأدب الذي امتهن قدره، والعبقرية التي أردوا أن يطمسوا نورها .

لقد كانت قضيتك قضيتنا ، وها قد انجلت الغمة فأهنئك وأهنىء الأدب الذي عدت له ولنا ، والله يحفظك للمخلص .

محمد فخري البارودي)

وفي السابع من تموز عام ١٩٣٩ كانت مي قد رجعت إلى القاهره، فتلقت من الزعيم الأستاذ فارس الخوري الذي كان رئيساً للمجلس النيابي السوري آنذاك رسالة مطولة استهلها بما يلي :

(سيدتي أميرة البيان ، الآنسة مي أطال الله حياتها ، ومتعنا بنفحاتها الشاذية ، بعد ان كتبت في توجيه هذا الخطاب : « حياتها الغالية » قلت لابد من عبارة أخرى ينسجم بها الوقف ، وترددت بين أن

أقول : « ومتعنا بنفثاتها الكاوية » أو « بصيحاتها الداوية » أو « بفضائلها السامية » أو بغير ذلك من السجعات الكثيرة التي تنطبق على إحدى نواحي سجاياك الجمة التي تفسح للواصف مجالاً رحباً للوصف ، كيفما انقلب . وأخيراً اخترت النفحات الشاذية بمالها من قوة الاشعاع والانتشار ، رغم بعد الدار ، وشط المزار ، فأنت كما قال المتنبي :

كالبحرِ يقذفُ للقريبِ جواهراً
جواداً ويبعثُ للبعيدِ سحائبا

كالبدرِ في كبِدِ السماءِ وضُؤهُ
يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

فدومي يا سيدتي على ماخصتك الطبيعة به من البسطة في العقل والفضل ، واروي غليل المعجبين بأدبك الرائع ، وينبوع علمك الفياض . لا أدري ماذا صنع الله بصديقنا جار وادي الفريكة ، واشتهي استعادة تلك الذكرى ، يوم كنت جارة ذلك الوادي ، وأنسنا بهاتيك المجالس العذبة نصغي الى بيانك الساحر ، وأنت كما قال الشاعر :

من الخفراتِ البيضَ وَدَّ جليسُها
إذا ما انقضت أحدوثَةٌ لو تعيدُها

يعز علي أن أقطع ما أشعر به وأنا اكتب هذه الرسالة ، من لذة النجوى ، وأختمها بتحية طيبة الى السيد النبيل حسين بك إدريس رئيس المجلس الحسبي ، ذاكراً له فضلاً ثاوياً في دفع النكبة وتفريج الكربة ،

صديقك المخلص — فارس الخوري) .

وهنالك بضع رسائل ، كانت آخر ما كتبت مي الى أصدقائها الذين أنقذوها من محنتها في لبنان ، وفي طليعتهم أمين الريحاني ، فيلسوف الفريكة . وجهت اليه خطاباً رائعاً طويلاً كان مما جاء فيه هذه العبارات : (القاهرة ١٥/ أغسطس عام / ١٩٣٩ :)

صديقي العزيز ، جار الوادي وسيده :

حسبي أن أقول في وصف خطابيك أني لم أحسبهما خطابين بل استئنافاً متقطعاً لحديث سابق ، وقد زادا في شوقي اليكم ، وفي حنيني الى لبنان . أصحيح أني قضيت ثلاثة أعوام في لبنان المحبوب ، وأني عانيت فيه ما عانيت ، ممن عانيت ، وحيث عانيت ، وأني أنقذني بعدئذ المنقذون ؟ وأني حللت في رأس بيروت شهوراً ، واصطفت في الفريكة شهوراً ، متقلبة في شتيت الغمرات ، حتى اكأني منها في بحر متلاطم ؟

الآن ، ولما أخلص بعد من تلك الأعاجيب الرهيبة ، الآن أشك أحياناً في أن ذلك حدث يقيناً . أيحدث لي كل ذلك مما شهد أصحابي ومما لم يشهدوا فلا أموت ، ولا يبيض مني الا الشعر ؟

أيحدث كل ذلك وأعرف من طبيعة الشر في الانسان أكثر جوانبها أدهماماً وفظاعة ، ومراوغة ، فأبقى على ما أنا واثقة بطبيعة الخير في الانسان ، مطمئنة الى عدل الحياة ، شغوفة بكل صنوف الجمال ، نازعة الى كل مثل سام ، وكأن عمري ونشاطي ، يتجددان كل صباح مع شروق الشمس ؟ أرأيت إنساناً غيري في مثل هذه الغباوة ؟ ومع ذلك فهنالك أمور تغيرت عندي ، أو أنني أنا تغيرت في أمور إذ لست أطيق الآن ان يزعجني أو يؤلمني أحد ، ولست أنيل الناس ثقتي .

وهذا دليل على أن في داخل نفسي شيئاً من الشيب كذلك ... ما علينا !)

الرسالة طويلة . والوقت لايتسع للوقوف على ما ورد فيها من مساجلة أدبية دارت حول مؤلفات الريحاني الكبير ، وقد ضمنتها مي هذه العبارات :

(وددت أن أصف لك مبلغ ما أشعر به من الشكر لما شهدته من همتك ، وأريحيتك ، في انقاذي ، وفي مؤاساتي ، وفي تشجيعي ، إبان تلك المحنة كلها . ولكن شكري لكم جميعاً هو الجو الذي يحيط بي . وهو الروح التي تملي عليّ كل كلمة أخطها ، وهو النسيج الذي تنسج منه أيا مي ولياِلي ، إنه رحيب شامل لنجدتكم لي . دم كما أنت ، يا أخا الهمم ، واسلم على ما أتمناه لك ولجميع الذين تحبهم ، من خير وهناء .

مي)

سيداتي سادتي ، بعد هذه الجولة في رحاب البيان ، وهذا الاستعراض لجزء يسير من رسائل أعلام البيان الى مي ورسائلها إليهم ، نرى انها ظلت الكاتبة الفذة حتى نهاية حياتها المأساوية . ولا أحسب أنني أغالي إذ أقول إن من حسن حظ الأدب أن يتسم عصرها بالمراسلة بين الأدباء والاصدقاء ، فقد كان عصر اهتمام باللغة والاسلوب ، وتقديس للفكر والبيان ، عصر نهضة حقيقية وتمسك بالقيم الجميلة ، والتقاليد الاجتماعية التي يسودها التهذيب الجم ، والظرف والاحتشام ، والتقدير والاحترام . والسلام عليكم ورحمة الله .

حضارتنا في الأندلس أو :

« المعجزة العربية »

خطاب القيته في ١٠ / ٢ / ١٩٧٤ بدعوة من رابطة التضامن الاجتماعي بطرابلس الذي يرأسها الأستاذ النقيب حميد معوض (نقيب المحامين في لبنان الشمالي) .

سيداتي وسادتي :

أتيت اليكم هذا المساء والسرور يغمر قلبي ، والشوق يشدني الى طرابلس المدينة العريقة التي تربطني بها أواصر المحبة ، منذ زمن بعيد، فضلاً عن كونها المهد الأول لقرة عيني إبني « نزيه » ،جئت مستجيبة لدعوة كريمة من أصدقاء كرماء اشتهروا في طرابلس ، منذ أقدم العصور ، بحب العلم ، وتكريم الأدباء .

قبل أن أحدثكم عن الحضارة الاندلسية التي سماها المؤرخ الاسباني سانتشيث ألبرنص (المعجزة العربية) أتقدم بالشكر الى رئيس جمعية التضامن الاجتماعي ، النقيب الشيخ حميد معوض ، فالحميد ، كما أعرفه وتعرفونه ، رجل لامع ، ووطني مخلص ، وصديق وفي ، وانسان كبير يشيع الظرف والأنس حيثما وجد . لقد عرفنا الحميد وقدرناه وأحببناه منذ سنوات ، لا أريد عدها الان ، وسعدنا بزيارته

لنا في إسبانيا سنة ١٩٦٣ .ومن ثم بزيارات حلوة كان يتفقدنا بها في دمشق وبلودان . كثيراً ما كنا نطوف خلالها بأحاديثنا على الاندلس واسبانيا . فشاء ان يدعوني اليكم لكي تشاركونا تلك الذكريات . وما العبارات التي خصني بها ، قبل قليل ،سوى دليل آخر على كرم أخلاقه الذي يمترض فيه أن يمدح أصدقاءه ،وألا يرى سوى محاسنهم . فله مني ، ولأعضاء الرابطة الكرام ، ولجميع الأصدقاء الحاضرين جزيل الشكر وأجمل التحية .

سيداتي وسادتي : ثمانية قرون ، أو أقل بقليل ، عاشها أسلافنا العرب في الاندلس ،منذ دخول طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومن ثم بلج بن بشر ، قائد جند الشام ، حتى خروج أبي عبد الله الصغير من غرناطه ، آخر امراء بني الاحمر فيها ، كما تعلمون . فكيف لاتطبع حياة مشتركة دامت زهاء ثمانمائة سنة شعبين غريبين كلاً منهما بطابع الاخر ؟ لقد امتزجت الدماء والأرواح بين العرب والاسبان . فتولدت عند سكان الاندلس شخصية متميزة ، عربية السمات نتيجة للاختلاط والمصاهرة ، وعربية الخصائص بدافع البيئة والاقليم ، اعطت للانسانيه حضارة عربية أندلسية شدت اليها أنظار العالم ، وما زالت تعتبر شعلة أضاءت عصر الظلمات في القرون الوسطى ، وقدمت للعالم خدمات جلى ، ولابد لنا من الاعتراف بان الفضل في ازدهار تلك الحضارة لايعود الى اجدادنا ومواهبهم فحسب ،انما يعود الى زكاوة التربة الأندلسية التي تقبلت ذلك الغرس الطيب وأسهمت في تألقه .

آثارنا في الاندلس تدل علينا ،ولا أعني الآثار العمرانية وحدها

لأنّ لنا فيها آثاراً عديدة شملت اللغة والتقاليد، وأساليب الحياة والتعبير. والميول والطباع . والبناء والموسيقى والطعام . وكل ما يمس حياة الفرد والجماعة من خصائص وصفات . لهذا لم أشعر بالغربة في إسبانيا ، ايها الاصدقاء . ولا أحسب ان أحداً منا زارها ، وزار الأندلس خاصة وأحس بالغربة فيها لشدة التشابه بيننا وبينها. وجدت نفسي بين أهلي وعشيرتي اذ كنت أجد في كل قرية ومدينة أزورها كل مايذكر بالوطن العربي ، وبدمشق ، مما جعلني أحسب انها امتداد له . كنت أرى إشراقة وطني في أرضها وسمائها . وابتسامة أبنائها .وأسمع موسيقى بلادي في ألحان الفلامنكو ونغمات القيثار ، وأشم عطر دورنا القديمة الجميلة في أريج النارنج والياسمين والريحان . فكيف أشعر بالغربة بعد ذلك ؟؟ بل أقول أكثر من هذا ، أقول اني وجدت في اسبانيا فروعاً باسقة من شجرتنا العربية بعد أن تعرفت بنساء ورجال مازالوا يحملون أسماء وكنى عربية ، ويفاخرون بها لأنها الدليل على تحدرهم من سلالة الذين شيدوا في بلادهم حضارة عظيمة جعلتها محط أنظار العالم .

وصف شاعرنا الكبير عمر أبو ريشه فخار الأندلسيين بأصلهم العربي بأبيات له رائعات في قصيدته : « أندلسية » والأندليسة هذه سيدة خارقة الحسن والذكاء ، التقى بها فأجابته عندما سألها عن أصلها :

قلتُ يا حسناءُ من أنتِ ؟
ومن أيّ دوحٍ أفرع الغُصن وطالا ؟

قالت : أنا من أندلسٍ
جنةِ الدنيا عبيراً وظلالا

وجـــدودي ألمـــحَ الـدهـرَ علـى
ذكـرهـم يطـوي جنـاحيـهِ جـلالا

بـوركـت صحـراؤهـم كم زَخـَرَتْ
بـالمـروءاتِ ريـاحـا ورِمـالا

حملـوا الشـرقَ سـناءً وسـنى
وتَخطـّوْا ملعـبَ الغـربِ نضالا

فـمـا المجـدُ علـى آثارِهـمْ
وتحـدّى ، بعـدمـا زالـوا ، الزوالا

يكفي أن أقص عليكم حادثة جرت لي في مدريد ، سنة ١٩٦٧ ، بعد انقضاء أربعة أشهر على نكبة حزيران ، لتتأكدوا من أن الاسبان يبادلوننا حباً بحب ، ويفاخرون بصلتهم بنا العميقة الجذور . التقيت ذات مساء برئيس الوفد الاسباني لدى هيئة الامم آنذاك (دون مانويل أثنار — Don Manuelaznar) وهو رجل عظيم ، ومعروف في الاوساط السياسية والمحافل الدولية اذ شغل منصب سفير لبلاده في دول كثيرة ، ومنها المملكة المغربية ، بعد أن عمل رئيساً لتحرير صحيفة هامة تصدر في برشاونه تدعى : « لافانغواردیا » . فشكرته بحرارة على موقفه من القضية العربية ودفاعه عنها في أحرج الأوقات . أعني في أول اجتماع عقدته الجمعية العامة بعد حرب حزيران . تذكرون أن الوفود العربية ذهبت يومئذ الى نيويورك تشكو العدوان الاسرائيلي ، وتدافع عن هزيمتها ، فسجلت دوائر هيئة الامم الشكاوى ، وأصغت وفود الأمم الى خطابات رنانة تشرح القضية الفلسطينية والتآمر عليها ، فطلب الكلام رئيس الوفد الاسباني ، « دون مانويل آثنار » الذي أحدثكم عنه ، وألقى خطاباً موجزاً ، بليغا ، قال فيه :

(إن الشعوب العربية لم تهزم في حرب حزيران ، أيها السادة ، لأنها لم تخض حرباً ، ولو فعلت لانتصرت على العدوان . اسألوني أنا ، أسألوا قومي الاسبان عن شجاعة الجندي العربي ،وعن إيمانه بقضاياه ، وعن حبه للعدل ، وعن حسن معاملته للعدو .) .

لقد تبنى هذا الرجل الدفاع عن قضيتنا وكأنه واحد منا ، واذا كانت بعض البلاد العربية ، قد دعته بعد ذلك لزيارتها ،وكرمته وأهدت اليه الأوسمة ، فانها سددت له ولبلاده الصديقة جزءاً يسيراً من دين كبير .

لنعد الآن الى الأندلس التي تهز مشاعر من يزورها ويطوف على أسواقها ، وبيوتها وقلاعها ،وقصورها ومساجدها الأثرية . إن ماتبقى لنا فيها من آثار عمرانية لايوجد له مثيل في البلاد العربية حيث اندثرت معظم آثار الامويين والعباسيين وقصورهم بسبب الغزوات والزلازل التي تعرضت لها بلادنا . ربما تظنون أنني أشيد بعظمة تلك الآثار حباً بالتمجيد ، وبكاء على الأمجاد ، لا ! أبداً ! إن غايتي من وصفها هي التذكير بما حققناه في ميادين التقدم لنستعيد ثقتنا بامكاناتنا في التطور والابداع ، بعد أن هبت علينا رياح الظلم والتخلف ، وأفقدتنا حتى الثقة بأنفسنا . قرأت إبان القتال في حرب تشرين الماضي ، مقالاً في مجلة : « ساندي مورننغ » في عددها الصادر في الثالث عشر من تشرين الأول بالضبط ، يستحق ان نقف عنده ولو لحظة اذا سمحتم . لقد وصف كاتب المقال نجاح عبور إخواننا المصريين للقنال وقتال الجنود السوريين والعرب المشرف في معارك الجولان ، وبسالة نسورنا في المعارك الجوية التي حطموا فيها أسطورة الفانتوم والجيش الذي لايقهر ،

وأشار بعد ذلك الى دهشة العالم من تضامن العرب إبان الحرب ، وحسن بلائهم في القتال فقال ما معناه : (نسي العالم ان العرب أمة مقاتلة شجاعة ، وأنها قادرة ، متى شاءت ، على الإتيان بالمعجزات) . نعم ! لقد شئنا ، حمداً لله ، وحققنا بعض الآمال ، ولكن أملنا الكبير هو ان نبقى على هذا التضامن الرائع ،وان نعي أكثر فأكثر مسؤولياتنا ، وواقعنا ، وماضينا !

هذا الماضي ، سيداتي وسادتي ،نود ان نستلهمه ليكون حافزاً لنا في الحاضر على استعادة مكانتنا ، واللحاق بالركب الحضاري ، والسبق العلمي المعاصر . واليوم ، وبعد ان انقضت خمسة قرون على خروجنا من الاندلس ، وزالت جميع رواسب التعصب بيننا وبين الاسبان ، نلاحظ اهتمامهم الكبير بالحفاظ على آثارنا ، بالصيانة والترميم ، وبالقاء الأضواء على التراث العلمي والادبي المشترك . إنهم ينقبون عن آثار درست،وينفقون الجهود والمبالغ الطائلة للكشف عنها . فقد بدأوا ، منذ ربع قرن ، باعادة بناء هيكل مدينة الزهراء ، المدينة الخيالية التي شيدها الخليفة عبد الرحمن الثالث من أجل محظيته المفضلة « الزهراء » ، في القرن العاشر ميلادي . وسماهاباسمها . كما أنهم يحققون وينشرون بعض ما في مكتباتهم الغنية من مخطوطات ،ويؤلفون الكتب ، ويضعون الدراسات المطولة عن تلك الحضارة ، ويترجمون الى الاسبانية آثار العلماء الأندلسيين والشعراء ،ولعله يهمكم ان تعلموا ان إسبانيا اقامت في سنة ١٩٦١ مهرجانا رسميا في قرطبة للخليفة الاموي عبد الرحمن الداخل دعت اليه البلاد العربية والمستشرقين ، ورفعت خلاله لوحة تذكارية ، على جدار المسجد الجامع ، تحمل

العبارة التالية : (الى الأمير العظيم عبد الرحمن الأول من قرطبة عاصمة خلافته)

واحتفلت أيضا بالعالم الفقيه ، والشاعر المؤرخ ابن حزم ،سنة ١٩٦٣ ، وأقامت له تمثالا في قرطبة . كما دعت الى تكريم ذكرى الفيلسوف الاندلسي الكبير ابن رشد سنة ١٩٦٧ ، وأقامت له تمثالا رائعاً في مدينة قرطبة ،وما زالت اسبانيا تعد العدة للدعوة الى احتفالات رسمية ومهرجانات مماثلة لتكريم أعلام الحضارة الأندلسية وعباقرتها .

كانت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في الاندلس ، فنافست عواصم المشرق في روعة عمرانها ، وطمأنينة الحياة في ربوعها ،حتى بلغت الأوج في التحضر أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر ، وابنه الحكم ، فقال « ابن حوقل » حين زارها في خلافة الناصر : (هي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس لها بجميع المغرب ،ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل ، وسعة رقعة، ونظافة أسواق ، وعمارة مساجد ،وكثرة حمامات وفنادق) . ولابد من الاشارة هنا الى أن المساجد في الأندلس كانت بيوتاً للعلم وللعبادة في آن معاً ، وأن تدريس الفقه والحديث واللغة والادب والعلوم كان يجري فيها . وفي دور بعض المؤدبين والعلماء ،غير أن الفتن التي نشبت في الأندلس ، بعد انهيار الخلافة الاموية ، أخمدت شعلة تلك الحضارة عمرانياً وفكرياً ولم تتمكن من اطفائها لأنها تأججت من جديد ، واستعادت بهاءها في ظل دول الطوائف ، في جميع أرجاء الأندلس ، والغريب حقاً هو أن نمو تلك الحضارة رافق تطاحن ملوك الطوائف وأمرائها ...

عرفت الاندلس ، في تلك الحقبة المضطربة من تاريخها نخبة من

أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها أمثال الفيلسوف ابن حزم ، والمؤرخ ابن حيان . والشاعر ابن زيدون ، والشاعر الاديب ابن عبدون ، وولادة بنت المستكفي ، ويجدر بنا أن نشير الى ان ملوك الطوائف كانوا أنفسهم مولعين بالعلم والادب والشعر ، وقد نبغ منهم العالم « عمر بن الافطس » صاحب بطليموس ، « والمعتضد بن عباد وابنه « المعتمد » ، صاحبي إشبيلية ، « والمعتصم بن صمادح » صاحب (ألمرية — Almeria) وهي ومدينة سالم من المدن الساحلية التي بناها العرب واسموها ، ولكن اسم مدينة سالم قد تحرف بالاسبانية وأصبح : « Medinaceli » توقفت هذه النهضة الفكرية والاجتماعية عن النمو وأوشكت أن تذوي عقب تضعضع دول الطوائف ، واستيلاء المرابطين على الأندلس في أواخر القرن الحادي عشر ميلادي (٤٨٤هـ . ١٠٩١م) . كان المرابطون قساة مولعين بالحرب فلم تعرف دولة الفكر في ظلهم أي ازدهار بالمعنى الواسع ، فاذا بحثنا عن علماء ومؤرخين وأدباء تألقوا في عهدهم القصير لا نجد سوى الفيلسوف « ابن باجة » ، « والفتح ابن خاقان » ، « وابن بسام » صاحب : « الذخيرة » « وابن قزمان » صاحب الازجال المشهورة . ثم جاءت دولة الموحدين فانطلقت الحياة الفكرية من جديد في ظل من حرية البحث والتفكير ، بعد أن كانت مقيدة في عهد المرابطين إذ منعت في أيامهم كتب الإمام الغزالي وغيره من مفكري المشرق . وفي تلك الفترة ، بين القرنين السادس والسابع للهجرة ، أي الثاني عشر والثالث عشر م . انتعشت الحضارة الاندلسية وبلغت ذروة جديدة على أيدي طائفة كبيرة من العباقرة امثال : « ابن طفيل الاشبيلي » ، صاحب رسالة : « حي بن يقظان » (المتوفى سنة ٥٧١هـ) . والفيلسوف « ابن رشد » القرطبي (المتوفى سنة ٥٩٤هـ).

« وابن زهر » الطبيب الشاعر صاحب الموشحات الرائعة ومن أشهرها : « ايها الساقي اليك المشتكى(١) ، و« ابن بشكوال» صاحب كتاب « الصلة ». ولا ريب في أن الاندلس كانت عاملاً هاماً في النهضة الاوروبية إذ عن طريقها ، وبفضل ابن رشد وأمثاله من الفلاسفة و العلماء اطلع الاوروبيون على الفلسفة والعلوم اليونانية القديمة ، بعد أن نقلوا مؤلفاتهم الى اللاتينية ، ومن أهمها : « شرح فلسفة أرسطو » في المنطق لابن رشد . لهذا قال العالم الفرنسي «Renan » رينان عن ابن رشد ، في إحدى محاضراته التي ألقاها في القرن الماضي : (لقد دخل ابن رشد جامعة السوربون في القرن الثاني عشر فاتحاً) .

هذا المد والجزر الذي عرفته الحضارة العربية والاسلامية في الاندلس بعد زوال الدولة الأموية لم يقض عليها لانها حضارة أصيلة ، غنية ، وقوية ، أعطت للعالم أطيب الثمار ، واعتبرت تراثاً مشتركاً بيننا وبين الإسبان ، لأنها كانت تنهل من موردين إثنين : من كتب المشارقة وعلومهم بفضل رحلات الاندلسيين الى المشرق العربي للتزود بالعلم وتغذية مكتباتهم بآثار المشارقة ، وبفضل البيئة والطبيعة في الأندلس اللتين قدمتا لها آفاقاً رحبة جديدة ، وحياة جديدة ، فرضت سلطانها في تكوين شخصية الاندلسي ، وتفجير مواهبه . لذلك نقول : كان الاندلسي عربياً في لسانه ، شرقياً في خياله ، وشيئاً آخر أكتبه من الاختلاط بأمم غربية طبعته بخصائص عميقة تجلت في زيه وتفكيره ، وأمثاله ، وحتى في نهج الحياة الاجتماعية التي أقبل عليها ، بتسامح لم يعرفه الشرق العربي انعكس على المرأة والعادات . لقد امتاز الأندلسي

---

(١) لقد نسبت هذه الموشحة خطأً إلى الشاعر العباسي ابن المعتز حسبما جاء في كتب التراث .

باهتمامه بلباسه ، وطعامه ، وحبه للهو والغناء والموسيقى ، وكان اذا فقد عزيزاً يلبس البياض حداداً عليه ، على سنة الصحابة في صدر الاسلام ، ، وامتاز كذلك ، الى جانب هذه الحياة المترفة بحبه للعلوم والشعر والفنون برمتها .

في ظل هذا المجتمع وتلك الحضارة نبغت في الأندلس نساء كان لهن نصيب وافر من العلم والادب والفن والنفوذ السياسي . عرف بلاط الأمويين كاتبات موثوقات فكانت « لبنى » كاتبة للخليفة الحكم ابن عبد الرحمن وهي شاعرة ، وخطاطة ، بصيرة بالحساب ، وكانت « مزنة » كاتبة للخليفة الناصر ، وعرفت الأندلس شاعرات مجيدات منهن « عائشة بنت أحمد القرطبية » ، و« صفية بنت عبد الله » « ومريم بنت ابي يعقوب » التي كانت تطوف على بيوت إشبيلية لتعلم أبناءها وبناتها الصرف والنحو في خلافة المهدي ، صاحب إشبيلية ، « وولادة حبيبة ابن زيدون وبنت الخليفة الاموي محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفي ، « ونزهون بنت القلاعي الغرناطية » التي عطرت ليالي غرناطه بشذى قصائدها ، وسحر جلساتها ونوادرها مع كبار أدباء عصرها ومنهم أبو بكر المخزومي الأعمى . ولعل اشهرهن « ولادة » ، لما كان لها من تأثير في حياة ابن زيدون ، وشعره ، ومن أثر في المجتمع القرطبي إذ كانت شابة جميلة ، وشاعرة مطبوعة ، ومحدثة بارعة ، وفتحت قصرها لشعراء عصرها وأدبائه فكانوا يؤمونه للمساجلات الشعرية والسمر ، خلال مدة طويلة من الزمن في القرن الحادي عشر . دام الحب بين ولادة وابن زيدون ثلاثين عاماً ، ظلا خلالها ينهلان من معين لم ينضب على الرغم من الأنواء التي هبت على العاشقين وجعلت

حبهما الكبير يتأرجح بين النعيم والشقاء ، بين اللقاء والفراق ، وديوان ابن زيدون حافل بأروع القصائد التي قالها بولادة ، لعل من أجملها النونية المشهورة التي مطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

واما ماوصلنا من شعر ولادة فقليل جداً ، ولكنه عذب ورشيق ، يبدو لنا منه انها كانت شديدة الغيرة اذ عاتبت ابن زيدون في قصيدة ملتهبة يوم امتدح جاريتها « عتبة » التي كانت تغني وتعزف في ندوتها ، كما أعربت في قصيدة ثانية عن غيرتها فقالت له :

أغارُ عليكَ من عيني ومني
ومنكَ ، ومن زمانكَ ، والمكان

ولو أني خبَأْتكَ في عيوني
الى يوم القيامة ، ما كفاني !

كان للشعر في الأندلس حظوة لدى الملوك وعامة الناس . وكما درج الملوك والأمراء على تكريم الشعراء وإسناد المناصب الوزارية لهم ، كذلك درجت العامة على حفظ الشعر ، والتخاطب به أحيانا . وقد رافقت النهضة الشعرية في الأندلس نهضة موسيقية ، لاتقل عنها أهمية ، كان للنساء فيها أثر بعيد ، ومنهن « فضل » المغنية المدنية التي استقدمها « عبد الرحمن الأول » من الحجاز الى قرطبة ، فشجع بذلك رحلة المغنين الى الأندلس ، ولكن الفضل الأكبر في تلك النهضة الموسيقية يعود ، بلا ريب ، الى « زرياب » أنبغ فنان عرفته بغداد في القرن

الثالث هـ ، التاسع م . وزرياب ، كما نعلم ، تتلمذ على إسحق الموصلي ، وأضاف على العود الوتر الخامس ، وفاق أستاذه بمراحل ، اننا نستدل من أخبار « المقّري » صاحب : « نفح الطيب » ان إسحق الموصلي قدم زرياب الى الخليفة الرشيد فأعجب بغنائه وعزفه ، وجعله من المقربين اليه ، مما أثار غيرة الموصلي ودفعه لأن يهدد زرياب بالاغتيال إذا لم يغادر بغداد ، فاختار زرياب الرحيل الى المغرب ، مع أهله ، ووصل الى الاندلس في أول إمارة عبد الرحمن الثاني سنة ٢٠٦هـ ، ٨٢٢م ، رافقت زرياب الى الأندلس بنتاه : « حمدونة وعلية » ، وجاريتاه : « مصابيح ومتعة ، فلقوا من الخليفة والأندلسيين أحسن استقبال ، ونشروا صناعة الغناء والموسيقى في سائر البقاع فكان لتلك النهضة ، فيما بعد ، أثرها في اختراع الموشحات ، والشعر الغنائي الاسباني والعربي ، وفي الموسيقى الاسبانية ولا سيما موسيقى الفلامنكو . ولابد من أن يذكر اثر زرياب في نقل التقاليد العربية ، والعباسية خاصة ، الى الأندلس لأنه سن لأهلها سنناً في آداب الاجتماع ، ونقل اليهم أنواعاً من الأزياء ، وفنوناً في تصفيف الشعر ، وعرفهم بألوان جديدة من الطعام ، كما علمهم ترتيب الموائد في الحفلات ، وأرشدهم الى اتخاذ آنية الزجاج الرقيق للشراب بدلاً من أواني الفضة والذهب .

أرى أني اطلت الحديث عن قرطبة مع أن الإنصاف يدعوني الى ذكر الازدهار الذي عرفته إشبيلية أدبياً وموسيقياً ، فالاشبيليون كانوا مولعين بالشعر والغناء والطرب ، يستقطبون الى مدينتهم المغنين والعازفين ، وما زالوا ، حتى يومنا هذا ، مشهورين باتقان هذه الفنون ، وباحياء أعياد موسمية تجتذب السياح من كافة انحاء العالم . إن من أطرف ما نقلته إلينا المصادر التاريخية هو ان سكان قرطبة كانوا يسارعون

الى إشبيلية اذا علموا بموت عالم من علمائها لشراء مكتبته ، في حين أن سكان اشبيلية كانوا يتسابقون الى قرطبة إذا مات فيها ماجن أو مغن لشراء آثاره الموسيقية !

وأما غرناطة فلا بد لي من إعطائها حقها ، والاعتراف باسهامها في تألق الحضارة الاندلسية ثقافياً وعمرانيا ، فحمراؤها المشهورة ليست قصراً من أروع القصور العربية الخالدة فحسب ، لأنها ، في الواقع ، مجموعة من القصور والقلاع ، اتخذها ملوك وأمراء بني الأحمر مقراً لهم إبان حكمهم لغرناطة الذي دام حوالي ثلاثة قرون ؛ ان في الحمراء ، الواقعة على هضبة خضراء فوق غرناطة ، من الزخارف والنقوش ، والقاعات والأعمدة والحصون والحدائق الغناء ما يفوق كل وصف . كانت ، وما زالت ينبوع وحي ثر للشعراء والرسامين والموسيقيين ، العرب والأجانب ، وفي أجوائها الساحرة وضع كبار الموسيقيين أجمل ألحانهم وفيها أنشد شعراء العالم أجمل القصيد . زار الحمراء شاعر مكسيكي كبير في القرن الماضي فأُخذ بما شاهد فيها وأنشد رباعية جميلة رأيتها منقوشة على أحد جدران القلعة . إن لهذه الرباعية قصة مؤثرة مفادها أنه رأى شحاذاً أعمى يدنو منه ومن زوجته ، ساعة كانا يتجولان في حديقة « جنة العريف » فأنشد يقول :

أعطه ، يا حبيبتي ، وأجزلي له العطاء ،
فلا توجد في الدنيا حسرة ، ولا بلاء ،
أوجعُ من أن يكون الانسان
أعمى في غرناطة ! »

وختاماً لهذا الحديث أود أن أذكر لكم ما كتبه صديقنا الاستاذ الكبير

ظافر القاسمي بعد رجوعه من زيارة الأندلس : كتب مقالة نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي في سنة ١٩٦٣ عنوانها : « عالم الأندلس البكر متى يكتب له النور ؟ » يستحث فيها همم الحكومات والجامعات والمجامع العلمية في بلادنا لكي ترصد إمكاناتها المادية والمعنوية من أجل إحياء تراثنا في الأندلس ، وقال ما معناه: « إن البعثات الاجنبية تنقب عن آثار الحضارات القديمة ، أينما كانت ، وتتكبد في هذا السبيل المشاق والنفقات من أجل خدمة العلم والتاريخ ، ومن دون ان تكون لها علاقة مباشرة بتلك الحضارات ، سوى الإنتساب إليها إنسانيا ، فما بالنا ، نحن العرب ، عن حضارتنا اليتيمة في الأندلس لاهون ؟ لايوجد من يجلوها سوى أفراد قلائل من أصحاب الهمم ، بعضهم ينشر مخطوطة ، وبعضهم يحقق كتاباً ، وبعضهم الآخر يكرس بحثاً » . لقد عبر صديقنا الأستاذ القاسمي ، في مقاله هذا، عن غيرته على حضارتنا ، ونحن نشاركه هذه الغيرة ، ونعترف بتقصيرنا ، أفرادا ومؤسسات علمية وثقافية في العناية بها ، وفي إبراز مفاخرها ، غير أنني أود أن أعزو هذا التقصير والاهمال الى الأوضاع القلقة التي عاشها عالمنا العربي حتى اليوم على ان هذا لايمنعنا من ان نثني الثناء كله على إخواننا في المغرب العربي الذين حافظوا حتى اليوم ، على التراث الأندلسي في دورهم ولباسهم وتقاليدهم ، فحافظوا ، في الوقت ذاته على الطابع العربي الذي ورثوه . كما احب ان اضيف شيئاً يدعو الى التفاؤل فأقول إن البشائر في مستقبل أفضل أصبحت واضحة ، تدعونا الى تحقيق نهضة جديدة ، ثابتة الدعائم ، تتوافق مع العصر الذي نعيشه ، وتجلو لنا عصور تاريخنا الذهبية لنتخذها عبرة وحافزاً ، كما قلت في مطلع هذه الكلمة سوف يأتي يوم قريب

بإذن الله نتعاون فيه على الكشف عن تراثنا الرائع ، أقول الرائع ، بلا مغالاة اذ سبقني الى نعته بـ : « المعجزة العربية » مؤرخ اسباني معروف هو الأستاذ « سانشيت ألبرنص Sanchez Albornos » فقال : (لقد فقد التراث العربي في الاندلس ثروة لا تعوض ، ولكن القليل الذي سلم منه ، ومن المخطوطات العربية كنز عظيم ، يدعو للاعجاب ، ويعتبر بحق : « المعجزة العربية » التي أعقبت : « المعجزة اليونانية » ، ورفعت من شأن الانسانية) .

والآن أدعوكم ، سيداتي وسادتي ، الى مشاهدة بعض الصور التي التقطتها لبعض آثارنا في الأندلس ، شاكرة لكم تكريمكم الغالي الذي به اعتز وأفخر ، والسلام .

* * *

المرأة في حياة تشايكوفسكي

ألقيت هذه المحاضرة في نادي جمعية
الفنون السورية بدمشق في ٢١ شباط ١٩٥٢

عندما يريد الانسان أن يخلد إلى التأمل والدعة ، وأن يستمتع بنفحات من الصفاء الروحي ، يعود إلى الجمال والموسيقى والأدب ، ونحن في هذه الأمسية سنحاول أن نبعث في نفوسنا شيئاً من ذلك بسماع قصة حياة تشايكوفسكي وسماع بعض مقطوعاته .

عاش تشايكوفسكي في القسم الثاني من القرن التاسع عشر في زمن لم يكن فيه الموسيقيون الموهوبون في روسيا إلا قلائل ، بل كانت الموسيقى الروسية وقتئذ متأثرة بالايطالية والفرنسية والألمانية ، ماعدا الموسيقى الشعبية التي ظلت محافظة على طابعها . وكان رقص الباليه في روسيا في ذلك العصر راقياً جداً ، لم يكن ينقصه الا الموسيقار النابغة الذي هو تشايكوفسكي . إن نبوغ هذا الفنان لم يظهر الا بعد ما تجاوز الثلاثين من عمره ، فنجحت مؤلفاته واشتهرت في روسيا وفي الخارج ونال شهرة واسعة ، كما برع في إدارة الجوقات الموسيقية أمام الجماهير في روسيا وفي عواصم أوروبا بعد أن بلغ الثانية والأربعين ، وهكذا نرى أن لوناً ثانياً من ألوان النبوغ تجلى عند تشايكوفسكي وهو في سن متأخرة جداً .

ولد « بيوتر الويتش تشايكوفسكي » في السابع من شهر أيار عام ١٨٤٠ في مدينة (فوتكينسك) في إحدى المقاطعات الروسية ، ونشأ في عصر أدبي نبغ فيه كبار المفكرين والروائيين أمثال : بوشكين وتورغنيف ودوستوفسكي وتولستوي . وأما حياته ، فهي مجموعة متناقضات عرف فيها الفشل والنجاح ، الحب والكراهية ، كما أنها سلسلة أحداث صاخبة أثرت تأثيراً « عميقاً » في فنه وفي عمله . كان لطفولته أثر بليغ في توجيه ميوله وأهوائه ، كما كان لشبابه الأثر الأكبر في توجيه مشاعره إزاء النساء خاصة والمجتمع عامة .

لم ينل تشايكوفسكي في طفولته العطف والمحبة اللذين كان يتطلبهما لانه كان واحداً من ثمانية إخوة . تلقى علومه الابتدائية على على يد مربية قديره أحضرها له أبوه من سان بترسبورغ وهو في عامه الرابع ، وكانت المربية الآنسة فاني — Fany » معجبة بذكائه الكبير وبميله لتعلم اللغات إذ أتقن الفرنسية والألمانية وهو في عامه السادس . ثم لاحظت حبه للأدب منذ أن نظم شعرا بالفرنسية وهو في السابعة ، غير ان ميله للموسيقى كان اكبر واوسع مدى لانه كان يقضي اوقات فراغه امام البيانو ، فيضطرب ويرتجف اذا ما لامست أنامله الصغيرة هذه الآلة ، أو اذا سمع لحناً جميلاً ، وكثيرا ما كان يلجأ الى الحديقة ويمكث فيها بعض الوقت . ريثما يعود اليه هدوؤه السابق ، لقد أثرت الموسيقى في أعصاب تشايكوفسكي اذ جعلتها تضطرب أشد الاضطرابات في طفولته ، وتقول مربيته انها دخلت غرفته في أحدى الليالي لترى ما اذا كان نائماً بعد حفلة موسيقية بيتية كان قد سمح للأولاد ان يحضروها ، فوجدته جالساً في سريره يبكي بسكون ، ولما سألته عن سبب ألمه اجاب : « الموسيقى ، الموسيقى ؟ أريد أن أنجو منها ! » ثم أشار الى رأسه وقال :

— « إنها هنا لاتريد أن تخرج فتريحني » .

كان بيوتر عصبي المزاج ، مرهف الحس ، سريع التأثر على خلاف إخوته لذا كان هم أمه الأوحد ، ومدار عنايتها ، مما زاد تعلقه بها وبمربيته « فاني » التي غادرت الأسرة بعد ان عاشت معها اربع سنوات . لقد بكى الطفل العاطفي كثيراً لفراقها وأصبح يراسلها باستمرار ، وبعد ان انتقلت الأسرة الى سان بترسبورغ التحق بالمدرسة فيها مع أخوته ولكن جوها لم يرق له فأصيب بمرض ارغمه على ملازمة السرير مدة ستة أشهر كانت تنتابه خلالها نوبات بكاء حادة فانقطع عن البيانو مما زاد في سوء حالته الصحية ، وكتب الى مربيته يقول ، وهو يومئذ دون العاشرة من عمره : (ما أحلى الأيام التي قضيتها بصحبتك ، لقد ضاعت ويا للأسف ، وضاعت معها حياتي وطفولتي ...) ثم قال لها فيما بعد ان القراءة هي سلواه الوحيدة إذ كان في تلك السن المبكرة يقرأ غوغول الأديب الروسي وتيليماك لفينيلون ورسائل مدام دوسيفينييه . وعندما انتقل عمل ابيه الى مقاطعة بيرم غادرت الاسرة سان بترسبورغ واحضرت مربية جديدة للأولاد أحبها بيوتر كثيراً، نعم الطفل بصحبتها بضعة اشهر ثم أوفده والداه الى المدرسة الليلية لانه قد أتم عامه العاشر ، ولان أمه قد رزقت توأمين فتألم لاضطراره الى الابتعاد عن الاسرة وعن أمه خاصة وبكى بكاءً مراً فتركت هذه الحادثة في نفسه أثراً عميقاً كان سبباً من أسباب حذره الشديد وخوفه من مفاجآت الحياة . وبعد أن انقضت على هذه الحادثة عدة سنوات تخرج بيوتر من المدرسة بنجاح وانتمى بعدها الى المعهد التحضيري لدراسة الحقوق نزولاً عند رغبة أبيه . كان مجتهداً ، حاد الذكاء ، لطيف المعشر وقريباً من اساتذته ولكنه كان ينكمش على نفسه ، ويدغدغ

آلامه النفسيه بصمت كله كبرياء ، وعندما اصيبت أمه بالكوليرا أصابة خطيرة أودت بحياتها ، حزن عليها حزناً عميقاً لان حبه لها كان قوياً ، غريباً ، شبيهاً بوله العاشق بمعشوقته ، ولم يجد العزاء لحزنه إلا في مضاعفة الجهود بدراسة الموسيقى لانها كانت الوسيلة الوحيدة للتخفيف من وجده وحزنه .

وضع بيوتر تشايكوفسكي لحناً للفالس وهو في الرابعة عشرة، أهداه الى مربيته الثانية ، ولكنه مفقود اليوم ، وعلى أثر هذه التجربة استشار أبوه اساتذته في الموسيقى عما اذا كانوا وجدوا في ابنه المؤهلات الكافيه لكي ينصرف عن التعليم ويتفرغ للدراسة الموسيقى فأجابوه بان ذاكرة بيوتر قوية ، وأذنه جيدة ولكن تقدمه بطيء لذا طلب منه أبوه أن يتم دراسة الحقوق حتى اذا فرغ منها توجه للعمل في وزارة العدل ، وهكذا كان ، ولكن بيوتر لم ينقطع عن إتمام ثقافته الموسيقية ، وعن ارتياد صالات العزف والأوبرا ، حتى انه حاول ان يضع لحناً لقصيدة جميلة وأخفق فيه ولم ييأس . لم ييأس لانه كان متيقناً من موهبته ، ومصراً على تنميتها ، فصاحب احد أساتذة الغناء الايطاليين وبدأ يتأثر بذوقه فأحب الحان « فردي » و « موزارت » وأصبح قادراً على فهم موسيقاهما . في تلك الفترة التحق بالمعهد الموسيقي الذي تأسس في سان بترسبورغ (كانت « الدوشيس الكبيرة هيلين بافلوفنا » هي أولى مؤسساته وقد لعبت دوراً كبيراً في حياة الموسيقي الشهير « أنطون روبنشتين » وسلمته ادارة هذا المعهد الكبير) عندئذ كتب الى شقيقته الكبيرة « ألكسندرا » يقول : « سأترك وظيفتي عاجلاً أم آجلاً من أجل الموسيقى . ولن أقدم على ذلك إلا بعد ما أتحقق من اني أصبحت موسيقياً موهوباً) . ولم ينقض وقت طويل ، بعد هذه الرسالة ،حتى

استقال من وظيفته وانصرف الى الموسيقى انصرافاً تاماً تحت تأثير بعض أصدقائه من الموسيقيين الناشئين ، فغضب أخوه الأكبر وقال : « إن بيوتر يحب الموسيقى ولكنه لن يصبح ذا شأن في عالمها » فأجابه بيوتر بهذه الكلمات : (يجوز ألا أصبح موسيقياً مماثلاً « لكلينكا » ، ولكني أؤكد لك أنه سيأتي يوم تصبح فيه أنت فخوراً بي) أما أبوه فلم يغضب من تصرفه مع أنه كان وقتئذ بحاجة للعمل لكسب قوته ، بل شجعه كثيراً ، مما أسعد الشاب الطموح وضاعف أمله ونشاطه ، وجعله ينال إعجاب أساتذته . لقد هيأ له « روبنشتين » بعض التلامذه على أثر الحفله الموسيقية التي اشترك بالعزف فيها مع الجوقة الكبرى ، ثم لاحظ أنه بدأ يطيل شعر رأسه ، محاكياً بذلك أستاذه ، وانه انقطع عن المجتمع تقريباً ، وودع حياة المرح والشباب ليدخل معترك الحياة مع كبار الموسيقيين .

وضع بيوتر تشايكوفسكي ألحانه الأولى وهو في الرابعة والعشرين وكان ميالاً لموسيقى الجوقة ، على خلاف أساتذته الذين غضبوا حينما وزّع ألحان إحدى دراسات «شوبان» للبيانو على مختلف آلات الجوقة وجعل منها معزوفة رائعة . كان أول نجاح موسيقي لاقاه يوم قدم معزوفات جديدة من وضعه سماها : « رقصات الخادمات » وقد عزفتها الجوقة للجمهور في حديقة عامة ، فتلقى في إثر ذلك النجاح دعوة من صديقه « « نيكولا روبنشتين » للتدريس في المعهد الموسيقي الذي أسسه في موسكو . كان وقتئذ منصرفاً لإعداد فحص الدكتوراه في الموسيقى وانكب على تلحين قطعة استوحاها من نشيد الفرح « لشيللر » وقدمها الى اللجنة الفاحصة ، فنال عليها شهادة الدكتوراه مع التقدير ، ثم سافر الى موسكو وبدأ يدرس في معهدها الكبير ،

ووضع افتتاحية رائعة قادها أستاذه روبنشتين يوم قدمتها الجوقة للجمهور أول مرة . نجحت الافتتاحية نجاحاً « كبيراً » وابتسم الدهر في وجه بيوتر تشاكوفسكي بعد أن بلغ عامه الثلاثين ، أي في عام ١٨٧٠ . ولا يخفى علينا ما للتشجيع والتنشيط من اثر عميق في دفع كل ذي موهبة على العمل والانتاج،لأن بيوتر انصرف ، عقب نجاحه الأول ، الى تلحين قطعة موسيقية جديدة هي « افتتاحية روميو وجوليت » ، فوضعها ونقحها عدة مرات قبل ان يرسلها الى برلين لطباعتها التي تمت بعد عام من بدء عمله فيها . ويوم قدمها للجمهور في موسكو لم تلق اي تقدير أو استحسان،على ان الفنان الكبير شهد في نهاية حياته هتاف الجماهير لها في روسيا وفي العواصم الأوروبية بعد ان استساغوا ألحانها ، وفهموا مقاطعها ، وصدق لهجتها وللبراعة في تصويرها . وقد اصبحت أنشودة الحب في « افتتاحية روميو وجولييت » انشودة شعبية ذائعة الصيت. ثابر الفنان على التأليف،وبعد ستة أعوام قدم أوبرا كوميك اسماها : « فاكولا الحداد » ، كان يأمل لها نجاحاً كبيراً ولكن الجمهور الذي بدأ يحب لوناً خاصاً من ألوان موسيقاه ، لم يستحسن هذه الأوبرا الجديدة التي تختلف كل الاختلاف عن ألحانه السابقة . ويقول المؤرخ « هوبرت وينستون » أنه وجد بين المستمعين من صفر لتشايكو فسكي حينما ظهر على المسرح لتحيتهم ....

وفي الفترة الأولى من نجاح بيوتر كمؤلف موسيقي ، لعبت المرأة في حياته دوراً كبيراً . كان أول حب عنيف شعر به حبه للمغنية الشهيرة : « ديزيريه » التي أمت موسكو ، في أواخر عام ١٨٦٩ ، مع فرقة ايطالية ذاع في الأوساط الفنيه نبأ خطبتها مع الموسيقار الناشيء الذي هام بها وهامت به فكتب بيوتر لأبيه ينبئه بما جرى بينهما وقال

له : (لقد تعرفت بديزيريه وانا معجب بمقدرتها الفنية على الغناء وبصوتها الجميل ، ثم توثقت عرى الصداقة بيننا واصبح من الضروري ان اراها كل يوم . وفي احدى اجتماعاتنا تباحثنا عن الزواج واضحيت أفكر جدياً في هذا الموضوع لكي استطيع ان أتخذ قراري فيه ، عما قريب . إن امها تعارض فكرة زواجنا لأنها تجدني أصغر من ابنتها ، ولأنها تخشى ، فيما لو تم هذا الزواج ، أن أجبرها على السكن في موسكو ، وهي التي تعودت ان تزور العواصم الكبيرة ومختلف البلدان لاكتساب الشهرة والمال . كما أنني أظن ، يا والدي العزيز ، أنه يصعب على ديزيريه ان تتنازل عن مهنتها الفنية التي مارستها منذ حداثتها من أجلي وحدي ، مهما بلغت درجة حبها لي . واما من جهتي ، فانا على غير استعداد للتضحية بمستقبلي في سبيل حبي لها اذا رفضت أن تترك الغناء بعد الزواج ، وانت ترى ان موقفي ذو بال ، ووضعي الآن دقيق جداً ولاسيما لأني احبها من صميم فؤادي واشعر ان لاحياة لي بدونها ، فأنا الآن بانتظار جوابك ونصحك أيها الاب الحبيب !)

فكان رد ابيه حكيماً متزناً ، نصحه فيه ان يتدبر الأمر على ضوء مشاعره والهامه الخاص ، وان يدرس وضعه عن كثب وبكل هدوء ، وتمنى له السعادة والتوفيق . عمل الفنان العاشق بنصح ابيه ولم يبت بالأمر الى ان فوجىء بخبر أليم وقع عليه وقع الصاعقة ، يوم أخبره صديقه « نيكولا روبنشتين » بينما كان منصرفاً الى تدريب الجوقة التابعة للمعهد ، ان ديزيريه تزوجت في فارصوفيا مصوراً « اسبانيا » اسمه « باديللو راموس » ! فشحب لونه ، وغادر المسرح ، وغاب عن الانظار ثلاثة أيام ، عاد بعدها لمزاولة عمله كالمعتاد . ولكن هذه الصدمة تركت أثراً سيئاً في نفسه جعله عديم الثقة بالمرأة ، وسيء الظن بأهوائها ! لقد اهتم المؤرخون

والبحاثة بالكتابة عن حياة تشايكوفسكي العاطفية وعن تأثيرها على فنه وألحانه ، وخرجوا جميعاً بنتيجة واحدة اثبتوا فيها ان بيوتر لم يكن ميالاً للنساء ، بل كان يلهو مع اللواتي يجد فيهن ما يلائم ذوقه لهواً سطحياً بريئاً . واكدوا انه لم يكن يتأثر أو يسر أو يفاخر إذا بلغه ان امرأة جميلة أو نبيلة هامت به . غير أنه لم ينس « ديزيريه » أبداً هي التي اوحت اليه تلحين مقطوعة الرومانس المعروفة . وبعد عام من زواجها اجتمع بها فجدد الصلة التي تحولت بينهما من حب عنيف الى صداقة متينة ، وقد شوهد آنئذ يبكي بدموع غزيرة بكاءً متواصلاً في أثناء العرض الغنائي الذي كانت تقدمه « ديزيريه » على أحد مسارح موسكو ... كان بامكانها ان تسعد بيوتر وأن تسعد الى جانبه ولكن القدر كان يخبيء له مصيراً آخر ، فيه قليل من السعادة وكثير من الشقاء لأنه عاش وهو في السابعة والثلاثين من عمره ، فترة هامة جداً من حياته ومفجعة ، لعبت فيها امرأتان متناقضتان دوراً كبيراً : الأولى هي « فادجدا فون ميك » التي كانت ارملة غنية مولعة بالموسيقى ولعاً كبيراً ، فراسلت تشايكوفسكي مراسلة فنية دامت أربعة عشر عاماً لم تجتمع به خلالها مطلقاً ، نزولاً عند رغبته . كانت ترسل له الهبات المادية الضخمة بأسلوب لبق فتطلب منه قطعاً من ألحانه وترسل له مبالغ كبيرة ثمناً لها ، ولقد جمعت الحكومة السوفيتية رسائلهما ونشرتها بعد وفاته ، وهي تقع في ثلاثة أجزاء ! لم تخف السيدة « نادجدا فون ميك شيئاً» من مشاعرها وأسرارها عن بيوتر كما باح لها هو بكل ما يختلج في صدره من آمال وأماني ، وبكل ما يعاني من متاعب ومشاق . لقد هامت به هذه المرأه واحبته حباً جماً ، لا كرجل من الرجال العاديين ، بل كفنان ملهم قدير . ولذلك لم تحاول رؤيته

والتعرف اليه شخصياً . وهذه نقطة الغرابه في حبهما . عرفت عنه وعرف عنها كل شيء لانه لم ينقض يوم واحد ، عبر تلك الاعوام الطويلة ، دون أن تبعث اليه برسالة أو يكتب لها كلمة . لقد أحبت الفنان النابغة تشايكوفسكي لا الرجل الشاب بيوتر الويتش تشايكوفسكي ، ولله في خلقه شؤون ... كانت قد سمعت باسمه أول مرة يوم طربت لمعزوفته « العاصفة » طلبت ذات يوم من « روبنشتين » أن يرشدها الى عازف على الكمان يرافقها في دارها على البيانو ليعزفا معاً ما تحبه من الألحان ، فأرسل لها « جوزيف كونك » وهو تلميذ تشايكوفسكي المحبّب اليه ، وهكذا اتيح لها ، في بادىء الأمر ، أن تقف على أخبار الفنان الكبير وان تشغف بألحانه التي كانت تجيد عزف أكثرها على البيانو . ثم كتبت اليه رسالة اعجاب وتقدير طلبت فيها ايضاحات عن بعض معزوفاته الصعبة فأجاب على رسالتها التي اتضح له منها انه يخاطب موسيقية مثقفة قديرة وهكذا بدأت تلك المراسلة الفنية التاريخيه بينهما .

واما المرأة الثانية التي لعبت دوراً هاماً في حياة بيوتر فهي « أنطونينا ميليوكوفا » الشابه الجريئة التي تلقى منها ، ذات مساء ، رسالة غرامية ولكنه لم يرد عليها . أرسلت له رسالة أعنف وطلبت منه أن يقترن بها لانها تحبه لدرجة العباده ، فاجابها بانه يشكر عواطفها ، وعدّد لها مساوئه الخلقيه ... فكتبت له رسالة ثالثة تخبره بانها ستقدم على الانتحار اذا لم يأت لزيارتها ، ووصفت نفسها بأنها فتاة بلغت الثامنة والعشرين ، وأنها ليست جميلة وانما هي شريفة طاهرة ، وهائمة بحبه الى درجة العبادة واكدت له بانها لاتستطيع العيش بدونه ، على الرغم من السيئات التي نسبها لنفسه ! فزارها بيوتر خوفاً من ان تقدم على انتحار بسببه ثم كتب الى أسرته وصديقته « نادجدا » معلناً خطوبته لانطونينا بلا

سرور ولا حرارة ، ثم استجاب لإلحاحها فتزوجها ولكنه يقول انه اقدم على هذا الزواج تحت تأثير الشفقة فقط ، وشبه نفسه يوم الزفاف بمن يلعب دوراً مسرحياً غريباً عن ميله ، بعيداً عن رغبته ، كل البعد ! الواقع الذي اشار اليه المؤرخون هو انه تزوج مرضاة لأبيه الشيخ ، وشفقة على فتاة قدمت له نفسها بلا قيد ولا شرط ، والى السبب الأول الذي دفعه للزواج هو رغبته في الخلاص من كلام الناس الذين نسبوا اليه شذوذاً جنسياً أثر على سمعته تأثيراً سيئاً .

قضى تشايكوفسكي الأسبوعين الأولين بعد زواجه مكتئباً فكتب الى أخيه يقول : إنها قبلت بي على علاتي وهي قليلة الذكاء ، ولله الحمد ، « ولو كانت ذكيه لخفت منها . » كما انها تكتفي باحاطتي بعنايتها ، وأحس الآن أنني أسيطر على أفكاري السيطرة ولكني أعود فأقول : ربما استطيع ان أبادلها حباً بحب فيما بعد ؟ :)

لم يكن بيوتر ، كما ذكرت آنفاً ، يحب النساء ، بل أصبح ، بعد حادثته مع المغنيه « ديزيريه » يكرههن تقريباً لأن كراهيته لزوجته أنطونينا تجلّت بعد رسالته لاخيه بأيام قلائل لقد شعر بانهيار عصبي بحاجه ملحة للفرار منها ومن مشاهدتها اذ لم يكن يعلم مقدار كراهيته للنساء قبل ان يتزوج ويشعر بوجود امرأة الى جانبه وبعبء طيفها الملازم له ، لقد كتب الى صديقته « نادجدا » يصف لها تعاسته ورغبته بالابتعاد عن داره وزوجه ويطلب منها مساعدة مالية لأن مراسم الزواج وتأثيث الدار استنفدا كل ما كان لديه من نقود ، فأرسلت له مبلغاً كبيراً، وكتبت تشجعه بلباقة وتؤكد له أنها تبغي سعادته دائماً ، ثم ختمت رسالتها شاكرة له الساعات الطيبة التي تقضيها وهي تنعم بألحانه العذبه .

كان لابد له من الغياب عن موسكو فغادرها لمدة ستة اسابيع استطاع خلالها ان يستجمع قواه بين أخوته واصدقائه وشرع بتلحين أوبراه الجديد « أوجين اونيكين » ولكن الرعب استولى عليه حينما بدأ يفكر بالعودة الى موسكو . كانت تساوره أفكار متناقضة فتارة يظن انه سيعتاد معاشرة هذه الزوجه لانها مخلصة ، طيبة القلب وطوراً يجد نفسه نافرة من العودة اليها ومكتئب لمجرد التفكير بضرورة العيش الى جانبها وخائف من سوء عاقبة هذه الصلة . واخيرا عاد اليها مكرهاً لانه لم يجد حلاً سريعاً لمعضلته النفسيه هذه. استقبلته أنطونينا على المحطة والفرح يملأ قلبها فعادا معاً الى البيت ولكن بيوتر شعر أنه دخل سجناً مظلماً منذ أن وطأت قدماه عتبة الدار . فقضى أسبوعاً تعيساً اثر على أعصابه وصحته فظهر عليه الاعياء الشديد وأصبح زملاؤه في المعهد يتحاشون سؤاله عن أي شيء لشدة اهتياجه وسرعة غضبه . بعد أسبوع ضاقت نفسه فأبرق الى أخيه أناطول يستدعيه للاجتماع في مكان عينه خارج موسكو . وسافر اليه بعد ان كتب الى صديقته « نادجدا » يقول : (لكي أوافيك بمشاعري الحالية لا أستطيع ان أكتم عنك أني بحاجة ملحة للفرار ولكن الى اين ؟ لايهم . والى متى ؟ لا أدري . ولكن أريد ان يكون فراري أبدياً غير انه يبدو مستحيلاً مستحيلاً !) ويقول أناطول تشايكوفسكي انه وجد صعوبة كبيرة للاهتداء الى أخيه بيوتر ومعرفته بين الركاب في محطة سكة الحديد لشدة التبدل الذي طرأ عليه ، ولشدة ما تغيرت ملامحه في الأسبوعين الماضيين ، فصحبه الى الفندق وما ان دخل الفنان غرفته الجميلة حتى بدأ يحدث أخاه عن زواجه الفاشل وعن حالته النفسيه المريضه ثم انتابته نوبة عصبية حادة وهو يتحدث ، خشي الأطباء الا يسترد قواه العقلية بعدها ،

ولكن تشايكوفسكي تغلّب على النوبة . وبدأت حالته تتحسّن . بعدئذ سافر أخوه الى موسكو وأخبر رئيس المعهد الموسيقي فيها ، نيكولا روبنشتين ، عن حالة بيوتر واتفقا على زيارة الزوجة وإعلامها بضرورة الانفصال . تلقت أنطونينا النبأ الخطير ببلادة كبيرة أزعجت أناطول كثيراً ، وجعلته يقول وهو خارج : (اني لم أر في حياتي إنسانا غبياً لهذا الحد !) ثم اقتضت حالة بيوتر الصحيه ان يسافر الى أوروبا للاستجمام فجمع له إخوته تكاليف الرحلة ، وذهب الى ألمانيا مع أخيه أناطول ، ثم الى جنيف حيث شعر بتحسن كبير في صحته . أما المال الذي جمعه فقد نفد ، فكتب الى صديقته « نادجدا » ورجاها أن تساعده بهذه العبارات :) أطمع ، والحالة هذه ، في كرمك غير المتناهي ، معذرة يا صديقتي الحبيبة الغالية عن هذا الطلب ، ولكن ليس لي مرجع سواك (وأخذ ينتظر المساعدة المالية بقلق فوصلته رسالة قديمة منها ، بعثتها الى موسكو آنفاً تتضمن حوالة بمبلغ كبير ، وطلبت منه أن ينفقه في رحلة الى أوروبا للترفيه عن نفسه وصحته ! لقد حوّلت اليه تلك الرسالة المذكورة الى سويسرا ، ووصلت في الوقت المناسب ، وبعدها بأيام تلقى رسالة ثانية جواباً على رسالته ، تقول له فيها :

(ألا تستحي من الاعتذار عند الطلب ؟ إني اعيش يا صديقي العزيز من أجل سعادتك ، وأبذل كل ما في وسعي لتحافظ على صحتك الغاليه ، وتنمي موهبتك الثمينه) . ثم أعلمته في آخر الرسالة ، انها خصصت له مرتباً سنوياً قدره إثنا عشر ألف روبل ، وانها سترسل له قريباً القسط الأول مضاعفاً بمناسبة سفره ... ولا ريب في أنه يندر أن توجد امرأة في حياة النوابغ والعظماء ، الذين نقل الينا التاريخ سيرة

حياتهم ، تبذل قسطاً كبيراً من ثروتها في سبيل إنعاشهم ، وإسعاف فنان لم تكن تربطها به إلا الموسيقى !

في هذه الآونه اجتمعت هيئة المعهد الموسيقي في موسكو برئاسة روبنشتين وخصصت للفنان تشايكوفسكي معاشاً دائماً تقديرا للخدمات الجليلة التي أداها للموسيقى الروسية فانتقل الى ايطاليا ،وأقام في البندقيه لأنه أعجب بجوها ومناظرها ، وأنهى فيها وضع أوبرا جديدة عنوانها : « أوجين أونيجين » ثم ارسلها الى موسكو مع أخيه أناطول ، فنالت أعجاب زملائه وقرر روبنشتين وضعها مع المعزوفات الكبيرة لتدرج في حفلات الموسم الموسيقيه المقررة للسنة المقبلة . بعد ذلك انتقل بيوتر الى فيينا ومنها عاد الى ايطاليا فزار الريفيرا الشهيرة وفيما كان في « سان ريمو » أخبر بصدور مرسوم موقع من وزارة المال الروسيه بانتدابه ليمثل روسيا في المهرجان الموسيقي الذي سيقام في باريس قريباً ، ولكن تشايكوفسكي اعتذر لانه لايستطيع قيادة الجوقه ، ولا يحب حضور الحفلات والاختلاط بالناس ، فحصلت مشادة بينه وبين روبنشتين ، في إثر هذا الاعتذار ، انتهت بالتفاهم التام بين الموسيقيين الصديقين ، من ايطاليا كتب الى أخيه ينبئه بانه تعود على شرب الكونياك بكثرة وأنه يشربه بالخفاء لأن الخمرة أراحت اعصابه وخففت من حدة ثوراته النفسيه .

تعود تشايكوفسكي ابان اقامته في البندقيه على شرب الخمره بكثرة لانها أراحت أعصابه وخففت ثوراته النفسيه . ولابد انه كان قد أسرف في الشراب يوم أجاب على سؤال صديقته « نادجدا » عن رأيه في الموسيقيين الروس الخمسة المشهورين وهم ريمسي كورساكوف وكوي،

وبورودين ، وبالاكيريف ، وموسوركسي لأنه كتب لها محللا موسيقى وألحان كل واحد منهم ، ونقدهم نقداً لاذعاً ، وقال إنه لايكن شيئاً من التقدير إلا لريمسي كورساكوف ، ولكن نقده هذا قد آذاه كثيراً ، وخفف من شعبيته عندما عرف الناس رأيه الصريح فيهم ، واعتبروه مغروراً . بيد ان النقاد الموسيقين اليوم يقرون بان تشايكوفسكي كان على صواب ، والدليل على ذلك أنه أصبح أشهر مؤلف موسيقي في عصره ، وأن معزوفاته أضحت مسجلة في برامج الحفلات الموسيقيه ، في جميع أقطار العالم ، بينما لايوجد لهؤلاء الموسيقيين أكثر من معزوفة أو معزوفتين ظلتا خالدتين .

في الثاني والعشرين من شهر شباط لعام ١٨٧٨ ، بينما كان يستجم في مدينة فلورانس كان روبنشتين يقدم للجمهور في موسكو سنفونيه صديقه الرابعة بقيادته . وكان بيوتر ينتظر خبرا عنها فتلقى برقية تهنئة واعجاب من صديقته ناوجدا التي فهمتها وقدرت قيمتها الفنيه قبل الآخرين لأن السنفونيه لم تلق من الجمهور والنقاد يومئذ الاهتمام الذي تستحق . فكتب الى صديقته يقول : « لا أزال على يقين بان سينفونيتي الرابعة هي أفضل انتاجي حتى اليوم » ثم صرح لها بان البرقية التي أرسلتها اليه ، ثم الرسالة التي تقول فيها بأن ألحانه تخاطب قلبها لا فكرها فقط ، أدخلتا على نفسه غبطة لا يستطيع التعبير عن أثرها الطيب ، وهذا أهم ما ورد في رسالته المشار اليها حيث وصف لها الطريقة التي يؤدي فيها عمله الموسيقي بقوله : (لايمكنني ان اعبر بالكلام عن الفرح أو البهجه التي تملأ قلبي أو روحي وحواسي حينما أفكر بلحن جديد ، وخاصة عندما يبدأ هذا اللحن يدور في رأسي ،

أني أنسى وجودي حينئذ . وكل شيء . واصبح أشبه ما يمكن بالمجنون ، وما أكاد أضع الخطة الأولى للمعزوفه حتى تتهافت الأفكار وتنهال علي النغمات ، وكثيراً ما يحدث ، في أثناء انهماكي في تطبيق هذه العملية السحرية ، أن يطرق الباب ، أو تدق الساعة ، أو يدخل الخادم علي ، فاستفيق من حالة الذهول المنتج . وهذا مايؤلمني كثيراً لأن ينبوع إلهامي يكاد يجف اذا ما قوطعت اثناء استرسالي في العمل . ويعلم الله كم ألاقي من المشقه للحاق بما يسمونه الوحي أو الالهام ، وغالبا ما يستعصي علي ذلك اذا ما قوطعت ، فأتم المعزوفة لاجئاً الى الخبرة الفنية وحدها ، ولكن انقطاع الفنان المفاجيء عن عمله ضروري جداً في ظني لأنه او لم يحدث ، انفجرت الآلة ، وتقطعت الأوتار ! » .

وأخيراً ، بعد غياب دام ستة شهور عن روسيا ، عاد تشايكوفسكي إلى « كاممبا » خوفاً من رؤية زوجته في موسكو ، وفي الوقت المناسب أتت « نادجدا » بمساعدة جديدة ومن نوع جديد إذ عرضت عليه أن يقضي بضعة أسابيع في مزرعتها في « برايلوف » ، في منطقة « أوكرانيا » ، وأكدت له أنها لن تكون هنالك ، فقبل الدعوة شاكراً ؛ وقضى أوقاتاً طيبة هانئة ، وألف لها فيها بضعة قطع البيانو والكمان تحت عنوان : « ذكرى مكان حبيب » ليعرب عن شكره وحفظه للجميل. كان بانتظار رساله من موسكو حيث كان أخوه أنا طول يسعى لاقناع أنطونينا بضرورة طلب الطلاق ، فوردت تلك الرسالة المنتظرة ورجع إلى موسكو واثقاً من نفسه ، مطمئناً . كان لابد له من مقابلة زوجته للبت في أمر الطلاق غير أنها توارت عن الأنظار ولم يستطع العثور عليها رغم ما بذل من جهود ، إلى أن وجدها أحد أصدقائه وأتى ليخبره بانها عدلت عن طلب الطلاق ، وأنها ستدافع عن براءتها إذا ما اتهمها بالزنا

أمام المحاكم ! ولم يكن القانون في روسيا وقتئذ يعترف إلا بالزنا سبباً لفسخ الزواج . فجن جنون بيوتر وكانت صديقته « نادجدا » قد أرسلت له مبلغ عشرة آلاف روبل لانهاء معاملات فسخ الزواج فكتب لها يشكرها ويقول إن ثلث هذا المبلغ يكفي لاقناع أنطونينا بمغادرة موسكو كي يستطيع أن يعيش فيها مرتاح البال ، بعيداً عن شبحها المخيف ، كراهيته لها بلغت ذروتها بعد أن رفضت طلب الطلاق . ولكن تشايكوفسكي نسي أن المرأة أدهى من الرجل أحياناً ، وأن لها أساليب خاصة للانتقام إذا ما مست كرامتها بسوء ، فلم تغتر انطونينا بالمال الذي عرضه عليها ، بل أصرت على أن تبقى في مدينتها محافظة على سمعتها وكرامتها لهذا السبب هجر هو موسكو ، واستقال من المعهد الموسيقي الروسي بعد أن قضى اثني عشر عاماً مدرساً فيه ومحاضراً ولقد أثارت استقالته ضجة كبيرة كان لها تأثير سيء على سمعته في الأوساط الفنية دعاه إلى استشارة صديقته « نادجدا » في الأمر ، فنصحته بأن ينصرف إلى التأليف فقط ، ورجته أن يزور قصرها قبل مغادرته لموسكو ، وأعلمته بأنها ستسبقه إلى إيطاليا « وتستأجر له داراً في « فلورانس » كي يقضي فيها شهراً الاستجمام . وهكذا كان لأنه كتب أن زيارته لقصرها استغرقت ساعتين وأنه عزف على البيانو العظيم الذي تقتنيه ، ثم سافر إلى فلورانس وهو يخشى أن يصادف « نادجدا » التي كانت تقطن على بعد خمسمائة متر منه ، ولكنهما التقيا مرة في أحد الشوارع ، وأخرى في حفلة موسيقية ، فتحاشيا السلام والابتسام . وذكرا هاتين المصادفتين بسرور في رسائلهما . أن من الغريب جداً انهما لم يجدا ما يثير اهتمامهما سوى ما كانا يرتديان من ألبسة . . . بعد مدة وجيزة غادرت « نادجدا » فلورانس بعد أن اطمأن هو إلى أنها أوفت بعهدها

الذي قطعته على نفسها بأن تتجنب بالا تحاول الاجتماع به ! ومن الغريب أيضاً أنه شعر بوحشة اليمة بعد سفرها . . . في أثناء وجوده بايطاليا كان ينصرف للتلحين . وتأتيه أخبار من روسيا عن نجاح مؤلفاته ولكن معزوفته (العاصفة) التي قدمت للجمهور في العاصمة الانكليزية لم تلق الاستحسان الكافي ثم عاد إلى وطنه وإلى همومه واشجانه ، وانهملت عليه رسائل مشوشه من زوجته انطونينا ، فأشفق على اضطرابها العقلي وتألم من أجلها وكان يتصبب العرق البارد من جسمه كلما فض رسالة وقرأها ، إلى أن عادت انطونينا إلى الدار فجأة لتقطن معه فيها فهرب إلى بلدة كاممبا ، ولحقت به لانها وجدت نفسها وحيدة في عالم من الظلمات يوم غادرها رجلها الأوحد الذي أحبته ، وأخلصت له ، والذي لم تلق منه الا النفور والنسيان . لقد اضطرت إلى اللحاق به بدافع حبها العميق، وليست متكالتها الفريدة من نوعها ، بل كثيراً ما تقع حوادث من هذا النوع في المجتمعات . إمرأة تحب رجلا ولا تلاقي منه الا الكره والنفور ، فتتمنى عودته إليها وتعيش لتغذي هذا الأمل الكبير ، وقد تصطدم بالواقع فتيأس ويكون لهذا اليأس عواقبه الأليمه . إنّ قصتها معه مأساة من مآسي الحياة ، بلا شك ، وبعد أن لحقت به إلى كاممبا ، أعطاها مبلغاً ضخماً من المال ، ورجاها أن تبتعد عنه ، فيئست نهائياً ، وظلت مثابرة على ارسال تحارير مخرفة اليه حتى نهاية أيامهامن غرفة صغيرة في إحدى مصحات الأمراض العقلية !

في سنة ١٨٨٠ احتفل تشايكوفسكي بعيد ميلاده الأربعين وبدأ يشعر بضعف عام في صحته ، ولكن همته للعمل لم تنقطع فانكب على دراسة اللغة الانكليزية ليتمكن من قراءة أدبائها وشعرائها في لغتهم الأصلية آملاً أن يستوحي من آرائهم وتمثيلياتهم بعض الألحان . ثم وضع

أوبرا كبيرة عنوانها « جان دارك » استوحاها من سيرة هذه البطلة، فكثرت اتصالاته بالناس ، واضطران يزور الوجهاء .ويقبل الدعوات، ليشق طريق النجاح لأبراه الجديدة « جان دارك » . نجحت الأوبرا ونالت شعبية كبيرة وخاصة المقطع منها الذي عنوانه (وداع الغابات).

وفي هذه الأثناء تلقى رسالة من « نادجدا » تخبره بأنها ترغب في مصاهرة أسرته الكريمة وذلك بأن تخطب احدى بنات أخته الكبيرة إلى ابنها « كوليافون ميك » ، فرحب تشايكوفسكي بالفكرة وتمت المصاهرة فيما بعد من غير حضوره كيلا يجتمع بالمرأة التي كانت كل شيء في حياته . كان صديقه الفنان نيكولا روبنشتين قد توفي ، فاقترحت « نادجدا » عليه أن يضع معزوفة ثلاثيه للبيانو والفيولونسيل والكمان ويهديها إلى روح روبنشتين فوضع لحناً جميلاً نزولا عند رغبتها ، ثم وضع قطعاً خالدة للبيانو نالت شهرة واسعة عنوانها : « الفصول والحان الكونشيرتو الثاني المشهورة ، وهكذا نرى أن تشايكوفسكي أنتج انتاجاً كبيراً وهو في الأربعين من عمره . وأما شهرته فقد ذاعت كثيراً في روسيا بعد أن لاقت معزوفته « السيريناد » نجاحاً منقطع النظير ، وخاصة بعد الحفلة الساهرة التي خصصها المعهد العالي للموسيقى فيموسكو لمعزوفاتهفقدمت له الجوقة الكبيرة « العاصفة » «والكونشرتو للكمان»، و « الكابرتيشو ايطاليانو » ومقطوعتين جديدتين للباليه رائعتين . كانت القاعة غاصة بالمستمعين الذين مابرحوا يصفقون إلى أن وقف تشايكوفسكي على المسرح وحياهم شاكرا ،وعقب هذه الحفلة توثقت عرى الصداقة بينه وبين « ريمسي كورساكوف » ، وفي العام ذاته قدمت مدينة براغ للجمهور « الأوبرا الخالدة (جان دارك) فلقيت أستحساناً كبيراً من الجمهور وكانت أول أوبرا تعزف له خارج روسيا .

في عام ١٨٨٣ شعر تشايكوفسكي بضعف وهزال . فحنّ إلى ذكريات الطفولة وكتب إلى أخيه أناطول يقول بأنه في حاجه كبيرة إلى حنان المرأة.قلت في بدء هذا البحث أن حياة تشايكوفسكي مجموعة متناقضات وهذا ما يثبت قولي هو أنه وجد في حياته ثلاث نساء أحببنه ، ووهبن له حياتهن ، ورغبن في العيش إلى جانبه لإحاطته بالمحبة والعطف والحنان ، ولكنه تردد في الأقتران من الأولى التي كانت « ديزيريه » ورفض الثانية التي عبدته وكرهها ، وهي « أنطونينا » واشترط على الثالثة « نادجدا » ألا تحاول الاجتماع به قط ! ولما علم أن مربيته ومعلمته الأولى للبيانو مريضه وفي حاجة إلى المال أرسل لها مبلغ خمسين روبلا ، ثم ضاقت به روسيا ، وفكر بالسفر إلى فرنسا حيث استمع في باريس إلى آية موسيقية من ألحان موزارت هي: عرس فيكارو) فشعر بالنشاط يدب في عروقه وكتب إلى نادجدا يقول إنه انصرف للتأليف بعد سماع هذه القطعة انصرافاً « كلياً » ، ولا غرابة في ذلك لان الموسيقى كانت بالنسبة لهذا الفنان العظيم الداء والدواء . أما إقامته في باريس فلم تطل لأسباب ماديه ، وبعد أن عاد إلى وطنه كلف بوضع نشيد عسكري بمناسبة تتويج القيصر « اسكندر الثالث » فقبل لأنه كان بحاجة إلى المال ، ونجح في وضع المارش وخاصة في المعزوفة الحماسية التي اسماها « موسكو » لقد أعجب القيصر بهاتين القطعتين وأمر لجنة أعياد التتويج أن تحول للفنان الكبير مبلغ خمسة عشر ألف روبل ، فكانت هدية القيصر خاتماً من الماس قيمته خمسة عشر الف روبل ، فرهنه تشايكوفسكي وقبض مبلغ أربعمائة روبل ، ولكن سوء الحظ في هذه المرة جعله يضيع ورقة الرهن والمبلغ . . . قلت في هذه المرة لأن بيوتر كان كبير الحظ في حياته المالية لانه ما من مرة شعر

بالضيق حتى تهافتت عليه الساعدات والاسعافات . وفي هذه الأثناء كتب له الناشر الفرنسي « هامل » يستأذنه بطباعة بعض معزوفاته ، فسر كثيراً وشعر بالبحبوحة ، وأنهى وضع أوبرا جديدة وباعها لناشرة بمبلغ ألفين وخمسمائة روبل . وأما نصيب هذه الأوبرا من النجاح فكان منحصراً « بالطبقة الراقية الواعية .

على أثر هدية القيصر « اسكندر الثالث » قام تشايكوفسكي بزيارته فاستقبله بحفاوة كبيرة وقدم له وسام القديس فلاديمير ، وفيما هو في القصر أخبر بان زوجه « ماريا فيدورفننا » تود مقابلته ، فزاد سروره ، وكان قد أهداها قبل عدة سنين إحدى افتتاحياته . وعلى أثر هذه المقابلة وضع اثني عشر لحناً في مدة ثلاثة أسابيع وأهداها للقيصر ولزوجه . بعد تلك الزيارة تحمس للعمل من جديد وقدم إلى موسكو لتقديم « سنفونية ما نغريد » للجمهور ولحضور تمارين الجوقة عليها فكتب إلى نادجدا يقول : (كان العزف رائعاً ولكن الجمهور بدالي بارداً ، على انه قابل السينفونية بتصفيق حاد ،وأظن أن « ما نغريد » هي أحسن سنفونية وضعتها حتى الآن) وقد اهداها تشايكوفسكي إلى زميله « باركيريف » الذي أوحى له وضعها .

أخذت شهرة تشايكوفسكي بالازدياد ، فسافر إلى « تيفليس » حيث احتفلت الجمعية الروسية للموسيقى بزيارته لها وأحيت حفلة « رائعة خاصة بموء لفاته ، وما أن دخل القاعة حتى وقف له الجمهور محيياً ، وقدمت له طاقات الورود والهدايا ، وشاهد نجاحاً لمؤلفاته منقطع النظير لأنها قوبلت بتصفيق حاد متواصل دام ما يقرب من خمس دقائق . كما اقيمت على شرفه حفلة عشاء كبيرة حفظ لها تذكاراً طيباً لم تمحه الأيام . ولم يعد الموسيقار الكبير يشك في شهرته التي تسربت الى

عواصم أوروبا الغربية ، ووصلت الى نيويورك ، فكان لتأكده من تلك الشهرة أثر عميق في تنشيطه وانتاجه في السنين السبع الأخيره من حياته .

عقب عودته من « تيفليس » سافر الى باريس ، وتعرف الى موسيقية فرنسيه كانت شهيرة في المجتمع الباريسي وقتئذ هي : « بولين فياردو » فزارها وأتيح له أن يفحص بنفسه مخطوطة « دون جوان » لموزارت ، كان زوجها قد اشتراها قبل ثلاثين عاما . لقد ابتهج بيوتر كثيراً عندما وقعت هذه المخطوطة بين يديه وكتب يقول : « لا أستطيع التعبير عن ارتعاشي حينما أمسكت بيدي هذه الأوراق المقدسه ، لقد شعرت بأنني صافحت هذا النابغة وخاطبته » !

ولا بد لي من ان اذكر ان مراسلته مع الصديقة الوفية « نادجدا » بدأت تخف فكتب إليها معتذراً عن تقصيره ، وطمأنها عن صحته . وأما « أنطونينا » المسكينة فكان همها الوحيد تشايكوفسكي إبان اختلالها العقلي ، وقد كانت السبب في اصابته بالاحباط بعد ان تلقى منها رسالة تطلب فيها ان يهبها شيئاً ما ، وان يعتني باطفالها الذين كانوا ثمرة حبهما العظيم ... ويقول تشايكوفسكي في مذكراته انه قضى يومين كاملين يفكر في طريقة الاجابة على رسالة هذه المرأة التعيسة التي لم تكن محظوظة أبداً في حياتها .

في نهاية سنة ١٨٨٧ جرت ثلاثة أحداث هامة جداً في حياة تشايكوفسكي كان تأثيرها كبيراً عليه ؛ وشحذ همته للعمل والانتاج في السنين الخمس الأخيرة من حياته ، وهي أولا نجاح قيادته للجوقة الموسيقية في حفلة كبيرة قدمها للجمهور في موسكو وثانيا : فشل

أوبراه التي سماها : « الفاتنة » وثالثاً : جولته الأولى كمدير للجوقة يقدم مؤلفاته بنفسه . كان تشايكوفسكي يتهرب دائماً من قيادة الجوقه ويتردد طويلا قبل أن يقدم على هذا العمل الفني الدقيق ، فشرع أولاً بالتمرن عليها وعندما لقي النجاح فيها ظهر على المسرح في إحدى الحفلات في موسكو وأدار الجوقة الكبيرة بمهارة كان لها تأثير جيد على العازفين لأنهم فهموا اشاراته النابضة بالحياة، وتسرب اليهم الحماس فأبدعوا بأداء المعزوفات ، اضطره لاعادة مقطع من معزوفة له جديدة قدمها في تلك الحفلة واسمها : « موزارتيانا » لشدة التصفيق الذي قوبلت به . وهكذا كشف تشايكوفسكي لمعاصريه عن موهبة جديدة من مواهبه بعد ان تجاوز الخامسة والأربعين ، وقد ذكرنا في مطلع هذا البحث أن نبوغه كمؤلف موسيقي لم يظهر الا بعد ان تجاوز الثلاثين من عمره . وعندما فشلت احدى مقطوعاته وهاجمها النقاد، ولم يألفها الجمهور ، كتب الى « نادجدا » صديقته يقول :

« لم تنجح الأوبرا التي كرست لها بضعة أشهر من العمل المتواصل المتعب وأنا لم أتمكن حتى الآن من فهم موقف الصحافة منها » . وقد ظلت هذه الأوبرا أمرا منسياً في العالم ما عدا مقطعا واحد منها وهو لحن الفصل الرابع الذي عنوانه : « أين أنت يا حبيبي » ولكنها ظلت تدرج في روسيا بين معزوفات حفلاتها الموسيقيه ، من حين الى آخر ، حتى اليوم الحاضر . أما جولته الموسيقيه الى أوروبا الغربية فقد بدأها بزيارة برلين وكان واثقاً من أن مكانته أصبحت في طليعة الموسيقيين في روسيا ، وأن الذوق العام في أوروبا أصبح يقدر مؤلفاته ويرحب برؤيته وسماعه . ولا ريب في أن ثقته الكبيرة بنفسه أثرت كثيراً على نجاحه في تلك الجولة التاريخية . وفي احدى الحفلات التي أقيمت على

شرفه في برلين لفتت نظره سيدة أنيقة لم تكن سوى حبيبته الأولى : « ديزيريه » ففرح بلقياها فرحاً كبيراً ، وجددا الصداقة دون أن يشيرا الى الماضي بكلمه ويقول تشايكوفسكي ان زوج « ديزيريه » قبله بحرارة ، وأقام على شرفه حفلة عشاء كبيرة ، وأما « ديزيريه » فقد وجد بيوتر أن فتنتها بقيت كما كانت عندما رآها آخر مره ، قبل ما يقرب من عشرين عاما ، ومن برلين سافر الى « ليبزيغ » حيث سمع موسيقى جديدة لم يكن يعرفها ، كان يعزفها على البيانو شاب جميل ، قصير القامه مائلاً للبدانة ، وكان هذا الشاب الفنان : برامس فتعرف به تشايكو فسكي وبفنان آخر أحبه كثيراً ، وأعجب بمواهبه وموسيقاه وهو « ادوارد كريك » كما أتيح له أيضاً أن يتعرف « جوهان شتراوس ». ثم ذهب الى هامبورغ وكان يلاقي الشهرة والمجد أينما سار فحفظ للشعب الألماني أطيب الذكريات ولم يكن يشكو إلا من كثرة حفلات التكريم. في أثناء وجوده في هامبورغ تلقى برقية تنبؤه بان القيصر اسكندر الثالث خصص له معاشاً سنوياً قدره ثلاثة آلاف روبل فعلق على ذلك في مذكرته بقوله : « إني سعيد جداً بهذه المنحة السنوية ولكن ضميري يعذبني . .

يجعلني أشعر أني لا أستاهل هذا التقدير ؟ » وأما علماء الموسيقى في المانيا فقد انتقدوا موسيقى تشايكوفسكي ونسبوا اليها الهمجية والضجة الكثيرة ! طلب منه أحدهم أن يقطن في ألمانيا ليهذب ألحانه فناقشهم طويلاً ، وأثبت لهم بطلان نظريتهم في الموسيقى الروسية بوجه عام التي كانوا يعتبرونها آنذاك همجية ، والايطالية عاطفيه ، والفرنسيه سطحيه . ولقد تأخروا في فهم ألحان غيرهم من الموسيقيين غير أنهم قدروها ، وخضعوا لعظمتها فيما بعد . ومن ألمانيا انتقل

تشايكوفسكي الى تشيكوسلوفاكيا حيث استقبل رسمياً في براغ ، واجتمع بالفنان « دفوراك » الذي رافقه طيلة اقامته فيها . بالغ التشيكيون باظهار حفاوتهم به نكاية بالألمان ولكن بيوتر كان بعيداً جداً عن السياسة وأهوائها فكتب الى «نادجدا » يقول (لم أكن أعتقد أن التشيكيين يحبون روسيا ويكرهون المانيا الى هذا الحد ، لقد مرت بي لحظات بينهم شعرت فيها بالسعادة الحقيقية) . ثم أقام حفلتين قدم فيهما « روميو وجوليت » وكان على غير عادته ، مرحاً ، طروباً يتحدث ويخطب بطلاقة عظيمة ، ودع براغ وأصدقاءه الجدد فيها قرير العين ، واتجه شطر فرنسا حيث أقام حفلتين في باريس على مسرح « الشاتليه » كانتا نصراً مبيناً له ولمعزوفاته وتزاحم الموسيقيون في باريس لمعرفة تشايكوفسكي عن كثب وتكريمه . ومن باريس انتقل الموسيقار الى لوندره فلم يلق عند وصوله أدنى اهتمام أو حفاوة من الانكليز ، بل ظل أربعة أيام وحيداً في الفندق ! وبعد أن قدم حفلته وفوجيء بحماس المستمعين كتب الى نادجدا يقول : « اضطررت لاعادة بعض المقاطع ثلاث مرات متتاليات ، وهذا غريب في لوندره لأن الجمهور فيها كثير التحفظ ، قليل الحماس لشيء ، وهذا ما يدل على أنني أحرزت فيها نجاحا باهراً) . والانكليز حقاً ، على خلاف الفرنسيين والشعوب اللاتينيه الاخرى ، تسود على طباعهم التؤدة ، ويغلب عليها التأني ، ولكنهم اذا ما أحبوا شيئاً حفظوا له هذا الحب وثابروا عليه . انتهت رحلات الفنان العظيم الأوروبية بنجاح ، فعاد الى روسيا حيث أقام في ضاحية قريبة من موسكو قضى فيها ثلاث سنين ، ألف خلالها سينفونية جديدة ، وستة الحان الى حبيبته الأولى « ديزيريه » ، كما وضع الموسيقى لمسرحية « هاملت » لشكسبير ، وكتب الى نادجدا

يقول : « أود أن يستمر عملي وانتاجي لكي أبرهن للناس أني مازلت حياً ، وقادراً على الخلق الجديد والابداع) .

ثم شد تشايكوفسكي الرحال للقيام بجولة موسيقية ثانية الى أوروبا وصادف فيها الفشل والنجاح ،المديح والانتقاد ، فضعفت ثقته بنفسه ولكن « نادجدا » ، تلك الصديقة الوفية ،لم تنقطع عن تشجيعه برسائلها الخالدة التي امتازت باللهجة الصادقة المخاصة ،فاستعاد الفنان قواه ،ودوّن في مذكرته أن الفضل الأول في تنشيطه على أداء رسالته ، وفي دفعه لتكريس أيامه لخدمة الموسيقى يعود الى هذه المرأة التي لم يجتمع بها قط ، ولم يسمع صوتها ، مع أنها ملهمته الدائمة والسبب الأوحد في نجاحه . ولقد مر ، في طريق عودته الى روسيا باسطنبول ففتنته مناظر البوسفور بجمالها وروعتها ، ثم انكب في إثر وصوله الى داره على عمل جديد جاء آية في الفن والجمال ، ونال شهرة عالمية ، وهو مجموعة الألحان الموسيقية التي وضعها لرقصة الباليه المشهورة : « الحسناء النائمة في الغابة » .

في تلك الآونه أصيب تشايكوفسكي بهزة عاطفية لم يكن يتوقع حدوثها إذ تلقى من « نادجدا » رسالة جافة تعلمه فيها أنها أفلست ولم يعد بامكانها الاستمرار في تأدية معاشه السنوي ومراسلته ، وتطالب منه ألا ينساها ! لقد تألم بيوتر لهذا النبأ ، وكأن باباً من الرحمة أغلق أمامه ، وهذا ما ورد في جوابه السريع إليها :

(حبيبتي وصديقتي الغاليه :

تسلمت الآن رسالتك الأخيرة وأحزنني ما تضمنته ، لا من أجلي أنا ،بل من أجلك أنت . أقول لك ذلك بكل إخلاص لأن وضعي المالي

أصبح حسناً الآن وسوف تتضاعف مواردي مع الأيام ، فارجو ألا يساورك القلق بشأني في حالتك المزعجة اليوم . اني لا أخفي عنك أن حرماني من مورد ضخم كنت تتكرمين به علي كل عام سيجبرني على تخفيف نفقاتي ، ولكن المهم في الأمر هو اضطرارك لتغيير الحياة المرفهة التي تعودت عليها ، إن هذا ما يؤلمني كثيراً ، وأحب أن أعلم على من تقع مسؤولية هذا الافلاس ، ولكن ليس من حقي أن أتدخل في شؤونك العائليه . سأطلب إلى صديقي وصديقك « باكهولسكي » أن يعلمني عما ستفعلين ، فأنا لا أجد الكلمات لأعبر لك عن اضطرابي وقلقي عليك ، لقد جرحتني آخر عبارة وردت في رسالتك : « لاتنساني ، أرجو ان تفكر بي من حين الى آخر ! » إني لاأظن أنك كنت جادة في هذا القول ، فكيف يخطر ببالك أنني لست قادرا على التفكير فيك الا حينما أستفيد من كرمك ؟ وكيف أستطيع ان أنسى كل ما أدين لك به ؟ أقول لك من غير مبالغه انك أنقذتيني ، فلولا صداقتك ومحبتك لكنت فقدت عقلي وحياتي . وأما دراهمك ، فقد ساعدتني كثيراً على إنجاز مهمتي ، فكوني على ثقة ، يا صديقتي العزيزة ، أني لن أنساك ما حييت ، واني ساظل أذكر فضلك حتى النهاية وأحفظ لك المعروف الكبير الذي اسديتيه لي . أقبل يديك بكل ما في فؤادي من محبة واحترام ، وأرجوك ان تفهمي أيضاً انه لايوجد إنسان على وجه الأرض يشاطرك في أحزانك مثلي ، ويكن لك ما أكنه من العطف والتقدير ، وسوف أحدثك عني وعن أعمالي في رسالة ثانية) .

ولكن « نادجدا » رفضت ان تجيب على تحاريره بعد أن ودعته برسالتها الجافة ، وقد فتح ، تصرفها الغريب ، وقطعها المفاجيء لصداقة أربعة عشر عاما ، المجال للحديث والتعليق ، خاصة وأن

إفلاسها المزعوم لم يكن حقيقياً ، بل كان عبارة عن هبوط في الاسعار شمل بعض ممتلكاتها ... فلما وقف بيوتر على الحقيقة أسودت الدنيا أمام عينيه وأعتقد انه كان ألعوبة بيد امرأة لاقلب لها ، فتلاشت ثقته بالفضائل الانسانية ، وكان لأثر هذه الصدمة العاطفية أن غاب عليه الحزن والتشاؤم حتى نهاية أيامه . ولابد لي الآن من ان أذكر ما حدث لنادجدا تلك المرأة الغامضة ، فقد ظهر أنها كانت تعاني مرضاً أليماً حينما خطت آخر رسالة الى تشايكوفسكي وان حالتها الصحية ازدادت سوءاً بعد قطع علاقاتها معه . وقد وجد من قال أنها أقدمت على ذلك مرغمة تحت تأثير وضغط أكبر ابنائها الذي اراد ان يضع حدا للأموال الطائلة التي تصرفها أمه على الفنان ، لاسيما وان هذه المبالغ تنقص من الإرث الذي سيناله بعد وفاتها فتألمت نادجدا كثيراً واضطرت لقطع علاقتها المادية والمعنوية معاً ! وأما بيوتر ، فقد ظل مثابراً على مراسلتها ، مدة من الزمن ، الى أن أخبره أحد أخصائها ان حالتها الصحية لاتسمح لها بالكتابة ، وحالتها العقلية تضطر أبناءها لإخفاء رسائله عنها لان الوسواس قد استولى عليها وأصبحت تخاف الموت والجنون . وكذلك وجد من قال بأنها كانت تتصف بالقسوة والعناد ، اذ عندما كان ابنها « كوليا » يعاني آلاماً جسيمة ، ومرضاً فتاكاً عز عليها ان تمكر بغيره وتعطف عليه ، وخشيت عقاب السماء لها فأقدمت على قطع علاقتها بتشايكوفسكي نهائياً ، عن عقيدة ، ودون تردد ، وكأنها طردت خادماً مشؤوماً من دارها ! ... وهكذا انتهت صداقة تشايكوفسكي مع « نادجدا » بمثل الغرابة التي بدأت فيها ، وبقي الفنان نادماً على قبول المال منها طيلة حياته ، فعاد الى مقره في الضاحية وشرع بوضع ألحان لرقصة بالية جديدة إسمها : « كسارة البندق » . لقد وفق بعمله الموسيقي الجديد

ولكنه كان مشوشاً ، يائساً ، لذا لم يتمكن من التفرغ منه بسرعة . ثم تلقى ، في الوقت نفسه دعوة من نيويورك للاشتراك في تدشين صالة الميوزيك هول الجديدة (وهي تحمل اليوم اسم « : « كارنيجي هول» فقبل الدعوة شاكراً واستعد فوراً للرحيل لانه كان في أشد الحاجة للمال والسلوان .

أما رحلته في الباخرة باتجاه العالم الجديد فقد انهكت أعصابه الخائرة ولكن الاستقبال الفخم الذي أعد له ، والحفاوة التي لقيها أنسياه المشقة والعناء . لقد عرفه المسافرون على الباخرة وأصروا كثيراً ليسمعهم شيئاً من معزوفاته فلم يجد بداً من الجلوس أمام البيانو والعزف للتخلص منهم . وما أن رست الباخرة في الميناء حتى صعد اليها وفد مؤلف من أربعة رجال وامرأة للترحيب به ، فاوصلوه إلى نزل « النورماندي » ، من أميز فنادق نيويورك يومئذ ، حيث كان بانتظاره رئيس لجنة الموسيك هول « موريس رينو » الذي أعلمه بأنه هيأ له حفلات موسيقية ، لا في نيويورك وحدها ، بل في عدة مدن من الولايات المتحدة . ندم بيوتر على مجيئه إلى هذه البلاد النائية لما علم أن إقامته فيها ستطول ، وقد عرف عنه حبه الكبير لوطنه ، وحنينه الشديد اليه ، كلما غاب عنه ، فبكى بكاءً مراً بعد أن غادره المحتفون به . اذ وجد نفسه بعيداً جداً عن بلاده . غادر الفندق ليرفه عن نفسه وسار في شارع «برودوي» فأعجب بأبنيته العالية التي كانت تتألف من تسعة طوابق في ذلك الحين واستغرب كثيراً« عندما صادف عبيداً » في الشارع ،فعاد إلى الفندق وعادت إلى مآقيه الدموع إلى أن غلبه النوم .

لم يخف تشايكوفسكي إعجابه بالعالم الجديد ، وبصالاته الموسيقية ،

ومسارحه ، وحضارته الحديثة ، وعادات أبنائه ، ومن اطرف ما كتبه عنه وصفه لحفلة عشاء أقيمت على شرفه ، قال فيه :

« كانت السيدات اللواتي اجتمعت بهن في تلك الليلة مبالغات في كشف زنودهن والظهور والأعناق ، وكانت المائدة مزينة بمختلف الأزهار ، وقد وضعت أمام كل مدعو على المائدة صورة لي ضمن اطار جميل . وأمام العشاء من السابعة والنصف حتى الحادية عشرة ، وأنا لاأبالغ لان العادة هنا تقتضي ذلك. يصعب علي جداً تعداد أنواع الطعام التي قدمت لنا،وفي منتصف العشاء، قدمت لنا أكواب من البوظة تتبعها الواح صغيرة كتبت فيها عناوين مؤلفاتي الموسيقية ! لقد شاهدت عجباً ويجب علي الآن أن أذكر عظمة الضيافة والكرم في أمريكا اللذين لا مثيل لهما الا عندنا في روسيا . إن شهرتي هنا تفوق شهرتي في أوروبا، كما أن الأميريكيون يعرفون عدداً كبيراًمن مؤلفاتي لم يزل مجهولاً في وسيا ، أو ليس غريباً أن استمتع هنا بمكانة تفوق مكانتي في بلادي ؟ وأما حفلة تدشين قاعة الميوزيك هول فيقول تشايكوفسكي أنها كانت عظيمة رائعة ، حضرها ما يزيد على الخمسة آلاف شخص ، وكان عدد العازفين مائة موسيقي كانت الصالة تتلألأ بالأنوار الساطعة وكان البرنامج يضم قطعاً » متنوعة لكبار الموسيقيين ، قدم فيه تشايكوفسكي إحدى سنفونياته ، ونشيد التتويج الذي قوبل بتصفيق حاد جعله يظهر على المسرح مرتين للتحية والشكر .

لقد اهتمت الصحافة الأميركية بالحديث عن الصالة وفخامتها ، والنخبة الممتازة من المستمعين أكثر من اهتمامها بالمعزوفات التي قدمت! ووصفت جريدة « الهيرالد تريبيون » تشايكوفسكي بأنه رجل طويل القامة

قريب من الستين ، له وجه يعبر عن مزايا كبيرة ، وشعر بدأ الشيب يلعب فيه ، وأنه يرد على الهتافات والتصفيق بتحيات عصبية جافة . فلم يرق لبيوتر أن تتحدث الصحافة عن مظهره الخارجي ، وهو الذي طبع على الخجل والانكماش ، وصرح بانه شعر بانفعال عصبي كبير . وارتعاش قوي ، قبل أن يظهر أمام الجمهور لقيادة الجوقة في حفلة ثانية.

لقد عزا هذا الارتباك إلى اهتمام الناس بحركاته ولكنه ما أن بدأ عمله الفني باعطاء ملاحظاته للجوقة حتى نسي وجوده على المنبر . وأتم عمله الدقيق بمهارة فائقة . وبعد أن دخل إلى غرفته ليلاً وجد هدية لطيفة فيهاه كانت عبارة عن تمثال مصغر لنصب الحرية ، فتساءل عما اذا كان بامكانه ان يدخل هذه الهدية الرمزية إلى روسيا . . . . . .

يدعي الرجال دائماً أن النساء يتضايقن اذا ما فتح حديث الأعمار ويملن إلى تصغير أعمارهن ، وإخفاء حقيقتها ،ولكن الواقع لا يجرد الرجال من هذا الميل مطلقاً لأني شاهدت عدداً كبيراً من الرجال يتهربون من طرق هذا الحديث، ويحذفون بضعة سنين من أعمارهم إذا ما أحرجوا في السؤال عنها . . . وها هو تشايكوفسكي يشكو لمذكرته مانابه من الأنزعاج عندما قال لبعض زملائه إنه في الواحدة والخمسين، ليدحض تهمة جريدة « الهيرالد » اليه فيقول :

« كانوا يظنون أني طاعن في السن ، تجاوزت الستين . . . فسردت لهم تاريخ حياتي بايجاز ، وقدمت الأدلة والبراهين ، ولكنهم قابلوها بالدهشة والاستغراب ، ولم يصدقوني ، فلا بد من أنني هرمت في المدة الأخيرة وأنا أحس الآن وكأني فقدت حيويتي ! كما أن هذا الحديث جعلني أرى أحلاماً مزعجة ، رأيت نفسي في أحدها انزلق من

حائط مرتفع وأهبط منه إلى بحر عميق . . .) ثم زار واشنطن فاقامت له السفارة الروسية فيها حفلة عشاء ساهرة ، وانتقل منها إلى « بالتيمور » حيث قدم السيرَيناد « والكونشيرتوفي السي بيمول » ، وزار « شلالات نياكارا » وقبل أن يعود إلى نيويورك ليبحر منها عائداً إلى وطنه زار « فيلادلفيا » وقدم فيها حفلة رائعة سموه على أثرها « ملك الموسيقى غير المتوج . »

وصل تشايكوفسكي إلى بترسبورغ في أول حزيران لعام١٨٩١ وأقام في بلدة كلين حيث أنهى فيها موسيقى الباليه التي عنوانها « كسارة البندق » وأنتج في العامين الأخيرين من عمره « أوبرا يولاندا » « والسينفونية العاطفية » وأعاد النظر في مؤلفاته السابقة قبل إعادة طبعها ، كما أنه قام بثلاث رحلات إلى عواصم أوروبا للعمل فيها ، لا للنزهة ، وكان ينتقل من موسكو ، إلى سان بترسبورغ ،إلى كييف ، ليدير الجوقات ، ثم يعود إلى « كلين » ليقضي أوقات فراغه بالمطالعة . وهكذا نرى أن هذا العبقري ظل جوال آفاق ، دائم الحركة والنشاط ، ولقد أصبحت دار تشايكوفسكي في « كلين » متحفاً سمي باسمه ، هدمته الجيوش النازية في الحرب الأخيرة فاعاد الروس بناء اقسامه المهدومة ، وفتحوه للجمهور مجدداً بعد الحرب . لقد توفي هذا الفنان العبقري في مدينة « كلين » في داره الصغيرة فيها ، على أثر أصابته بالكوليرا ، وفي صباح السادس من تشرين الثاني عام سنة ١٨٩٤ ، انطفأت الشعلة المقدسة التي كانت تضطرم في صدر الموسيقي العظيم وهو في منتصف

عامه الرابع والخمسين .وقد شهد اطباؤه وأخوته أن اسماً واحداً لم يفارق شفتيه حتى لفظ آخر أنفاسه ،وأنه كان يردده باستمرار وبلهجة كلها شوق وعتاب . هو اسم المرأة التي ملأت حياته واغدقت عليه العطايا دون مقابل تقديساً له ولفنه الخالد « نادجدا » .

أعمال المؤلفة

١ — يوميات هالة — دار العلم للملايين — بيروت	١٩٥٠
٢ — حرمان — قصص قصيرة — دار المعارف بمصر — القاهرة	١٩٥٢
٣ — زوايا — قصص قصيرة — دار المعارف بمصر — القاهرة	١٩٥٥
٤ — الوردة المنفردة — ديوان شعر باللغة الفرنسية — بوينس آيرس — الأرجنتين .	١٩٥٨
٥ — نساء متفوقات — دار العلم للملايين — بيروت .	١٩٦١
٦ — عينان من إشبيلية — رواية — دار الكاتب العربي — بيروت.	١٩٦٥
٧ — نفحات الأمس — ديوان شعر بالفرنسية — مقطوعات باريس الأدبية — باريس .	١٩٦٦
٨ — الغريبة — قصص قصيرة — مكتبة أطلس — دمشق .	١٩٦٦
٩ — عنبر ورماد — سيرة ذاتية الجزء الأول — دار بيروت للنشر .	١٩٧٠
١٠ — في ظلال الأندلس — محاضرات — دار ألف باء — دمشق.	١٩٧١
١١ — البرتقال المرّ — رواية — دار النهار للنشر — بيروت .	١٩٧٥
١٢ — الشعلة الزرقاء — رسائل جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة — وزارة الثقافة والارشاد القومي — دمشق .	١٩٧٩

وقد طبع عدة طبعات في مؤسسة نوفل ببيروت
وترجم إلى اللغات الفرنسية والإنكليزية والإيطاللية
والإسبانية .

١٣ ــ جورج صاند : حبّ ونبوغ ــ سيرة ــ مؤسسة نوفل ــ بيروت . ١٩٧٩

١٤ ــ ميّ زيادة وأعلام عصرها : رسائل مخطوطة لم تنشر مؤسسة نوفل ــ بيروت ــ ١٩١٢ ــ ١٩٤٠ ١٩٨٢

١٥ ــ حزن الأشجار ــ قصص قصيرة ــ مؤسسة نوفل بيروت . ١٩٨٦

١٦ ــ ميّ زيادة أو مأساة النبوغ ــ مؤسسة نوفل بيروت جزآن . ١٩٨٧

١٧ ــ الحب بعد الخمسين ــ دار طلاس للترجمة والدراسات والنشر . ١٩٨٩

١٨ ــ نساء متفوقات ــ طبعة جديدة موسعة ــ دار طلاس ــ دمشق . ١٩٩٠

وكتاب جديد يعدّ للنشر عنوانه : لطفي الحفار ،
حياته ومذكراته .

الفهرس

٣٠٠٠ ط١ / ١٩٩٣/٥



ثمرة حب كبير هو هذا الكتاب . فكل كلمة من كلماته تجعلك تحب عفويا. الذين تحدثك عنهم سلمى الحفار الكزبري لأنها احبتهم ، عاشت معهم ، عاشتهم في قلبها قبل أن تنقل حبها الى الورق .

ومن اجدر بحبنا من الأندلس ، من ولادة ، من ابن زيدون ؛ حبهما المتبادل اعطانا بعضا من روائع ادبنا .

ومي ؟ ومي زيادة فقد كدنا ننساها وننسى انها لعبت في تاريخ أدبنا المعاصر دورا قلما تسنى لمدام دستال وامثالها ان تلعبه في تاريخ الأدب العربي . فطه حسين ، عباس محمود العقاد ، مصطفى صادق الرافعي ، ولي الدين يكن ، شبلي الملاط ، خليل مردم ، حسن الزيات هؤلاء وغيرهم وغيرهم من رواد ندوة الثلاثاء يشعرونك بكتاباتهم ان ميا كانت روح تلك المرحلة .

اجل لقد اعادت الينا سلمى الحفار (ميا) بنشرها رسائل جبران لها ومن ثم في الكتب الثلاثة التي وضعتها عنها .

ولا عجب فسلمى الحفار الكزبري تواصل رسالة مي على طريقتها فهي تذكر .. تذكر بلبنان بلد المفارقات كما تقول ، تناقضاته تدهس طفلة وتدمي قلبها الصغير وهي في بداية البدايات من تفتحها للحب والحياة .

تذكر بالأندلس ، صارت ذكراها بعدا من ابعاد الوجدان العربي ـ الاسباني . فالأماني وكأنها ، هي تبرز بعضا من حضارتنا في تلك الديار ، تتساءل : ايمكن ؟ وما السبيل الى مستوى من الثقافة والحضارة يضعنا مرة اخرى في الطليعة بين الأمم ؟ ......

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

سعر النسخة داخل القطر
٨٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل
١٦٠ ل.س